ميشال زيفاكو

جسر التنهدات



دار الروائع

عيد الغرام

*

فينيسيا مجد ايطاليا وعروس الأدرياتيك وجنة الشعراء والرسامين والنساء الساحرات ، وصاحبة التاريخ الثائر الغني في العصور المتوسطة ، كانت قد استيقظت تلك الليلة وتبرّجت كأجمل ما تكون المرأة الحسناء التي تلقي ساقيها وذراعيها في الموج الهادىء لتشارك أهلها جميعاً في هيامهم بهذين الاسمين ، رولاند وليونور ، في الليلة الخامسة من شهر حزيران سنة ١٥٠٩ ، إذ سهروا حتى مطلع الفجر يكرمونها ويعتقدون أنها رمز الحرية وطلسم الحب وسحر الهوى والغرام وكل ما في بلادهم من شيء جميل !

وما كان أجمل فينيسيا في تلك الليلة وقد كشفت عن مفاتنها الساحرة وبرزت تختال تيهاً فوق عرشها المائي المتموّج والبدر في كبد السماء ينظر إليها وقد اصفرّ وجهه حسداً وغيرةً فسبح في بحره الزمردي وهام في عالم اللانهاية . كانت المدينة المائية

العائمة على الأمواج المتدفقة إليها من البحر ، أشبه بكتلة من نور
وقد جعلت الألوف من الزوارق المشهورة باسم الغندول تسير في
ترعتها الكبرى ، فامتزج الرجال بالنساء في تلك الزوارق
وتلألأت أنوار مصابيحها فوق سطح الماء . فكأنما النجوم قد
هبطت إلى البحيرات بل كأنما البحيرات قد استحالت إلى سماء .

وقد اجتمع في ساحة سانت مارك تحت تلك الصواري التي
رفعت عليها علائم الجمهورية ، حسان الفتيات وفتيان البحارة
وفريق عظيم من الشعب على اختلاف طبقاتهم من كل مَن ينوح
ويترنم ويبش ويتجهم ويحب ويتألم . والأجراس تدق وقد
سكرت فينيسيا بخمرة الحب وامتزاج غناء الغرام بأناشيد الصلاة
فلا تجد بين ذلك الشعب غير الجاهر بالدعاء ، الداعي بالهناء ،
الذاكر اسمي رولاند وليونور بالحمد والثناء .

وكان هناك رجلان واقفان في شرفة القصر القديم ينظران
إلى فرح الشعب في حقد كمين ، فيرسلان نظرات نارية متأججة
تشفّ عما يضطرم في قلبيهما من الضغينة والكراهية ، بينما كان
الناس يبتهجون ويدعون بطول عمر الخطيبين ويذكرون من
حين إلى حين اسمي رولاند وليونور !

ذلك أن مدينة فينيسيا تعد نفسها بأنها ستحتفل غداً بخطبة
العاشقين في سراي الدوج ، والدوج لقب رئيس جمهورية فينيسيا
في ذلك العصر . وسيحلف رولاند وليونور يمين الوفاء أمام الجمع
العظيم من أهل المدينة بعد أن حلفاها همساً منذ عامين دون أن

يستشهدا غير قلبيهما وغير بدر السماء وأمواج البحر .

كان رولاند ابن الدوج كانديانو نصير المظلوم وغوث المضطهد
وحامي الضعيف . ولقد طالما أنقذ المظلومين من براثن مجلس
العشرة ، أو المجلس السري الغاشم الخطر الذي كان يعقد في
فينيسيا مؤلفاً من عشرة أشخاص والذي اشتهر بشدّة أحكامه
وقسوة أعماله حتى جرت فظائعه ومظالمه مجرى الأمثال .
وطالما هزّ أركان هذا المجلس الهائل الرهيب .

وكانت ليونور فخر فينيسيا بجمالها وهي من أسرة رندولو
الشهيرة بتاريخ الايطاليين . وكانت آية في الرفق الإنساني وحب
الفقير حتى كانوا يلقبونها بعذراء العذارى وحبيبة الأطفال
وشقيقة المظلومين والمحرومين . وكانت تحب رولاند حباً مفرطاً
حتى لقد روي عنها أنه جاءها يوماً مصور شهير والتمس منها
أن تأذن له بتصويرها تخليداً لجمالها وفتنتها ، وكان هذا المصور
لا يرسم في ذلك العهد غير أبدع الصور فينال صاحب الصورة
أبعد شهرة ، فأبت ليونور أن تأذن له بتصويرها وأجابته أن
صورتها كقلبها لا ينالها غير خطيبها .

وإنما كان سرور أهل فينيسيا بهذا الزواج لأنهم كانوا يعانون
من مجلس العشرة واستبداده ما لم يعان بعضه في أيام السلطان
الأحمر عبد الحميد ، فكانوا يرجون أن تصبح الاسرتان بعد
اتصالهما بقربى الزواج خير عون للناس على ذلك المجلس ، فإن
أفراد هاتين الأسرتين قد اشتهروا بمقاومة الظلم والاستبداد .

وبينا كان الناس يهتفون للخطيبين خفتت أصواتهم فجأة وانقبضت نفوسهم بعد ارتياحها وظهرت عليهم علائم القلق ، ذلك أنهم رأوا جاسوساً دنا من المكان المعدّ لرسائل الوشايات فألقى فيه رسالة ثم توارى يخفيه الظلام . فهلعت قلوب الناس إشفاقاً على ذلك المنكود الموشى به لما يعلمونه من جور مجلس العشرة . ولكنهم نسوا ذلك بعد هنيهة وعادوا إلى الهتاف عند أبواب قصر الدوج حيث كان الدوج نفسه وإمرأته سيلفا يضطربان خوفاً على ولدهما لما رأياه من تظاهر الشعب بالميل إليه فجعلا يبتهلان إلى الله كي يصونه من كيد الحاسدين .

وقد سبق لنا أن قلنا إنه كان في شرفة القصر رجلان ينظران إلى هذه المظاهرات نظرات البغض والحقد. وكان أحدهما طويل القامة تدل ملامحه على الكبرياء وقد ضم يده كأنه يتهدد اولئك المتظاهرين ، وقال بصوت أجش : افرح أيها الشعب المستبد فستذرف غداً الدم بدل الدمع . ألا تسمع يا بمبو ماذا يقولون ؟ إنهم يهتفون لرولاند اللعين ! إسمع .

قال : إني سامع أيها السيد ألتياري وأعترف أن اسمي رولاند وليونور خُلقا للانضمام كما خُلق صاحبهما للاتحاد بالزواج !

— أسكت !

— كيف ذلك ؟ أما تقررت خطبتها غداً وتقرر زواجها بعد اسبوع ؟

— يا للهول ! إني أوثر أن أمزق صدريهما بخنجري من أن يتم هذا الزواج !

— إذن أنت تكره صديقك الحميم رولاند !

— إني أكرهه لأني أحبها وقد ضيّق هذا الحب أخلاقي ! ليونور ، لماذا رأيتك ؟ ليونور ، لماذا عرفتك ؟ ليونور ، لماذا أحببتك ؟ ألا لعن الله تلك الأحشاء التي حملتني فحملتُ معي الشقاء الذي امتزج بدمي منذ خلقت !

وقد جعل هذا الرجل الهائل ، وهو أحد رجال مجلس العشرة ، يبكي بكاء الأطفال وهو إذا سار في الأسواق فرّ الناس منه رعباً لاشتهاره بالعنف والقسوة والصلابة . فابتسم بمبو ابتسامة تدل على الاحتقار والخوف ثم نظر إليه وقال : أصغ .

وكانت في تلك الحين فرقة من النساء الجميلات ينشدن نشيد غرام تردد فيه اسم ليونور بأشجى الأصوات ، فأصغى ألتياري لهذا النشيد حتى إذا سكت النساء عن الغناء هاج هياج المجانين واندفع في سلم الشرفة ! فأسرع إليه بمبو وقال له : سيدي ، ماذا تصنع ؟ فلم يجبه ألتياري بشيء ولكنه أراه خنجراً مجرداً. فحال بمبو بينه وبين الطريق وقال له : ماذا عزمت أن تفعل يا سيدي ؟ ألعلك مازح ! ألا تعلم أنك تدعى ألتياري وأنك تقود عشرين ألف جندي وأنك قادر على خلع الدوج ولبس تاجه ، وأن موت الناس وحياتهم بين شفتيك ، وأنك قابض على زمام

مجلس العشرة الهائل ؟ ومَن كانت بيده هذه السلطة يا سيدي أيتدانى إلى الإقتداء باللصوص . كلا يـا سيدي ، إن رولاند خطيب ليونور لا يجب أن يموت بالخنجر .

فوقف ألتياري مبهوتاً وقال له : ماذا تعني بما تقول؟ فأخذ بمبو بيده وذهب به إلى آخر الغرفة وهناك مدّ يده وقال له : أنظر !

فنظر ألتياري إلى حيث أشار بمبو فرأى ترعة ضيقة مظلمة لا زوارق فيها وقد شيدت على إحدى ضفتيها سراي الحاكم ، وعلى الضفة الأخرى سجون فينيسيا الهائلة التي يمـلأ منظرها القلوب ذعراً .

وبـين هاتين البنايتين صلة متصلة بالأعماق تشبه الناووس فتصل بين مكان الظلم ومكان التعذيب والتنكيل. وقد وقعت أنظار ألتياري على هذا الموصل الرهيب فتراجع خائفاً مذعوراً وقال :

— جسر التنهدات !

قال : بل جسر الموت ، فإن من يمر به لا بدّ أن يودع الحب والحياة والرجاء .

فتندّى جبين ألتياري بالعرق وقد أدرك قوة هذا الانتقام ثم ظهر عليه كأنما ضميره قد رزح تحت ثقل هـذه الفظاعة التي تمثلت له . ولكنه ما لبث أن انتفض كأنه قد تغلب على هذا

الضمير فقال : بأية حجة نقبض عليه ؟ فقال له بمبو : إذا كنت تريد الحجة فاتبعني . قال : إلى أين تسير بي أيها الشيطان ؟ فلم يجبه بمبو ولكنه سار به إلى الطرف الآخر من الشرفة الواسعة وقال له : انظر .

وقد أشار إلى قصر جميل بُني مقدّمه من رخام « كارارا » الثمين وتلوّت أعمدته وهي من اليشب فكانت خيالاتها تظهر فوق ماء الترعة جميلة فاتنة ! فلما نظر ألتياري إلى حيث أشار بمبو انذهل وقال : أتشير إلى قصر الحظية أمباريا ؟

قال : نعم . فإذا كنت تريد سبباً للقبض على رولاند ففي هذا القصر وعند هذه الحظية تجد السبب فلا يسلّمك رولاند غير أمباريا .

— كيف ذلك ؟ هل هي تكرهه إلى هذا الحد ؟ قال : بل إنها تحبه حباً أشدّ خطراً عليه من الكره، وهي تتعذب في هذه الليلة عذاباً لم يلقَ بعضه الشهداء، فإنها تحبه حب عبادة كما تحب أنت ليونور . وقد بلغت منها الغيرة أشد ما بلغت منك وهي تراقب هـذه الحفلة كما تراقبها أنت وتحاول من الانتقام نفس ما تحاوله أنت ، فهمّ يا سيدي إذا أردت أن تحول دون زواج رولاند .

*

عشاق فينيسيا

*

هدأ الضجيج الهائل الذي أحدثته الأعياد الشعبية وانقضت مظاهرات تلك الليلة وسادت السكينة ، ونام أهل فينيسيا وأغلقت المدينة أبوابها فلم يُسمَع فيها غير صوت المياه المتموّجة في ترعتها التي كان النسيم يعبث بها ويداعبها فتتلوّن كشعر إلهة البحر في أساطير الأولين ، وقد سطع القمر في كبد السماء منيراً بهياً وعكس أشعته فوق تلك الأمواج فتراقصت بها على هينمات النسيم .

أقفلت أبواب المنازل كلها في المدينة الساكنة ما خلا شدق الأسد العظيم الخاص بالوشايات ، وهو تمثال ضخم لأسد فاغر الشدقين نُصب هناك ، فكان مَن أراد أن ينتقم من عدوّه أو خصمه يكتب وشايته ويلقيها في الفم المفتوح فيطّلع عليها مجلس العشرة الظالم فينكّل بمن تحمل الوشاية اسمه تنكيلاً فظيعاً .

وبرزت جزيرة أوليفو من وراء كنيسة سانت مارك ، تلك الجزيرة المكرّسة للحب وأهله إذ كانوا يحتفلون فيها كل عام بزواج اثني عشرة عذراء على نفقة الجمهورية . وفي تلك الجزيرة حديقة

واسعة وقف بلبل على رأس أرزة من أرزاتها وجعل يغني ويعيد غناءه بألحان شجية ، فتجيبه عليها بومة وقفت فوق غصن على مقربة منه ، فكان الليل يصغي بملء نفسه المنتشرة في الفضاء إلى هذين الصوتين اللذين كانا يمتزجان بصوت الأمواج فتؤلّف نشيداً ساحراً حنوناً .

وتحت هذه الأرزة الفخيمة ، بين أزاهر الورود والرياحين وكل ما وهبته الطبيعة من الجمال ، كان ذلك الليل يسمع أيضاً حديثاً أشجى من نغمات البلابل وأرق من هينمة النسيم وأطرب من صوت الأمواج ، ذلك أنه كان يسمع مناجاة العاشقين ومناغاة الخطيبين رولاند وليونور .

كان العاشقان يتحادثان تحت هذه الشجرة وهما لا يتكلمان بأحاديث الغرام فإنه كان ماثلاً في عينيها ونبراتها ، بل كانا يتكلمان بأمور مختلفة ، ولكن يديهما كانتا تلتقيان من حين إلى حين فيضغط كل منهما على يد الآخر ضغطاً لطيفاً يتكهرب له الجسمان . وظلا كذلك حتى انتصف الليل فارتعش الاثنان إذ كان هذا الموعد موعد فراقهما كل ليلة ، منذ أذن والد ليونور لرولاند بزيارة منزله .

فنهض رولاند يحاول الذهاب فقالت له ليونور : بضع دقائق أيضاً يا رولاند ! قال : كلا أيتها الحبيبة ، فلقد اتفقت مع أبيك النبيل على أن أجعل حد زيارتي انتصاف الليل في كل ليلة إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يكون فيه لاجتماعنا موعد ولا حد !

فتنهدت ليونور وقالت : إذن إلى اللقاء غداً أيها الحبيب ! وهل يأتي هذا الغد ؟

– إنه يأتي يا ليونور ، وغداً نلبس خاتم الخطبة في منزل أبيك أمام نبلاء فينيسيا . وبعد اسبوع نربط بتلك الصلة التي تجمع بيننا الى الأبد . فاذهبي أيتها الحبيبة ونامي بسلام فإن حبي يرعاك كما ترعى هذا الكوكب نجوم السماء .

– تكلم أيضاً يا رولاند !

– نامي حالاً أيتها العزيزة وسأقتدي بك فنلتقي بالأحلام !

– ما أجمل هـذا الصوت وما أشد وقوعه في قلبي يا خطيبي العزيز . إني أشعر كل ليلة بانقباض في مثل هذه الساعة ، ساعة الفراق ! ولكني أشعر هذه الليلة بانقباض شديد وقد كثرت في نفسي الهواجس حتى لقد خيّل لي أن السماء تحسد الأرض علينا وأن الشقاء مخيّم على حبنا . فابتسم رولاند وقال : لا تخشي يا ليونور واعتمدي على زوجك فتزول هذه الهواجس .

– لله ما أعذب هـذه الكلمة يا رولاند ، فهذه أول مرة سمعتك تقولها فأسكرتني !

وكانا يتكلمان وهما يسيران حتى وصلا الى باب الحديقة فوقفا وجعل كل منهما ينظر الى الآخر وهمـا لا يعلمان ماذا يقولان ، الى أن مدّت يداهما المرتجفة واجتمعت الشفاه وتبادلا تلك القبلة الاولى التي أسكر وصفها الشعراء .

وأفلتت ليونور من يد رولاند وعلى شفتيها المرتعشتين آثار القبلة الشهية التي يعرف طعمها أهـل فينيسيا وكلهم شعراء ورسامون مرهفو الحس والذوق .

وعند ذاك انقطع البلبل عن التغريد فوق الأرزة الكبرى فيما ظلت ليونور تجري الى بيتها مسرعة وعلى شفتيها تأثير القبلة التي حرمتها الرقاد في تلك الليلة. أما رولاند فإنه أقفل باب الحديقة وانصرف يسير ببطء الى القارب الذي كان ينتظره . وبينما هو يسير سمع صوت استغاثة يمزّق حجاب السكون ويقول :

– إليّ ... إنهم يقتلونني ... إليّ ! إليّ !

ملكة المخطيات

*

كان رولاند يسير وقـد أصابه من تلك القبلة الاولى نفس ما أصاب خطيبته فخيّل له أنه في عالم غير هذا العالم . فلما سمع صوت الاستغاثة اهتزّ وانتبه انتباه من يوقظ من رقاده فالتفت الى جهـة الصوت فرأى قوماً يتخاصمون ويتنازعون ، فجرّد سيفه الطويل وصاح بذلك المستغيث قـائلاً : تشجّع فقد أتيت

لنجدتك . ولم يكن غير هنيهة حتى وصل اليهم فرأى امرأة جاثية على ركبتها وسبعة أو ثمانيـة رجال ينهبون حليها وهي لا تزال تصيح وتستغيث ، حتى إذا رأت ذلك الرجل قادماً لنجدتها سقطت مغشياً عليها كأنها بذلت كل ما تطيقه من الجهد.

أما رولاند فإنه صاح بهم قائلاً : إلى الوراء أيها اللصوص ! فالتفت اولئك اللصوص اليه والخناجر مجردة بأيديهم وجعلوا يزأرون ويزمجرون كأنهم ينتظرون أوامر زعيمهم للفتك به وقد أحاطوا به من كل جانب . وكان ذلك الزعيم هائل الجثة قوي العضل ، فتوهجت عيناه وصاح بصوت يتهدج من الغضب :

— إرجع أنت أو لا يكون نصيبك غير الموت .

وعند ذلك برز القمر من وراء غيمة وتبيّنت الوجوه فصاح جميع اولئك اللصوص بصوت جمع بين الذعر والاضطراب ، قائلين : إنه رولاند كاندريانو ... إنه رولاند ابن الدوج . أسرعوا الى الفرار .

وتسابق الجميع الى الهرب ما خلا زعيمهم فإنه دنا من رولاند وقال له : أأنت الذي يدعونه رولاند ؟ حسناً ، فأنا أدعى سكالا برينو .

كان سكالا برينو هذا من أشد زعماء اللصوص شهرة وقد أدهش أهل فينيسيا بجرأته في حادثة جرت له عام ١٥٠٤ أي منذ بضعة أعوام. وذلك أنه في منتصف شهر آب من ذلك العام

كانت فينيسيا تحتفل بتزويج اثنتي عشرة عذراء على نفقة الجمهورية حسب العادة في كل عام . وكان من تقاليدهم أنهم يُلبسون كل عذراء عقداً من اللؤلؤ وغيره من الجوهرات الثمينة التي تحفظ في خزينة الجمهورية فلا يخرجونها إلا مرة كل عام في مثل تلك الحفلة . فأتى سكالا برينو بخمسين رجلاً من عصابته الى ساحة سان مارك التي تجري فيها الحفلة ، فلما خرج العذارى من الكنيسة وعليهن تلك الحلى هجم برجاله عليهن فدافع الناس عنهن دفاعاً حسناً ، غير أن سكالا برينو ورجاله تمكّنوا من حمل العذارى الى القوارب وساروا بهن الى عرض البحر فتواروا عن الأنظار قبل أن يستطيع رجال الشرطة اقتفاء أثرهم .

وبعد ثمانية أيام أرجع سكالا برينو العذارى الى فينيسيا دون أن يمسهن أحد بسوء ، ولكنه سلبهن عقود اللؤلؤ وما كان عليهن من الحلى .

فلما سمع رولاند اسم «سكالا برينو» أغمد حسامه باستهزاء كأنه يريد بذلك أن يخبره بأن الحسام لا يجرّد بوجه اللصوص ! وعند ذلك انقضّ سكالا برينو عليه وخنجره بيده . ولكنه لم يكد يهجم عليه حتى سقط الى الأرض طائشاً ، وذلك أن رولاند لطمه لطمة هائلة على وجهه أضاعت رشده وسقط الخنجر من يده .

غير أنه أسرع الى النهوض وانقضّ ثانية على رولاند فجرت بينهما معركة شديدة دامت أكثر من دقيقة إلى أن تغلب رولاند

عليه وألقاه الى الأرض وركع فوق صدره وجرّد خنجره يحاول قتله حسب عادات ذلك الزمان ، فقد كانت حياة المغلوب ملك الغالب .

أما سكالا برينو فلم يظهر عليه شيء من علائم الخوف ، بل إنه رفع يديه وقال له : إنك أقوى مني فاقتلني . فنهض رولاند عنه لفوره وأغمد خنجره ثم قال له : إني أعفو عنك لأنك لم تخفْ .

فوقف سكالا برينو وقد أثر عليه هذا العفو خير تأثير ، فانحنى أمام رولاند وقال : مولاي ، إني سأخبرك بالحقيقة .
قال : إذهب فقد عفوت عنك .
– مولاي ...
– قلت لك إذهب .

فنظر سكالا برينو الى رولاند نظرة حنوّ وإشفاق ثم انصرف مسرعاً وتوارى عن الأنظار .

عند ذلك أقبل رولاند الى تلك المرأة وصورة ليونور لا تزال تملأ خياله وقلبه ، ولكنه كان من أهل فينيسيا الذين يقدّرون الجمال على إطلاقه ، فتمعّن في وجهها طويلاً وأعجب بجمالها الفاتن وطلعتها الساحرة . وعند ذاك فتحت تلك المرأة عينيها ورأت أمامها رولاند ، فارتجفت واحمرّ وجهها بعد الاصفرار . فأنهضها وتوكأت عليه وهي تنظر الى ما حواليها نظرة الخائف كأنها تخشى عودة اللصوص . فقال لها رولاند :

– إطمئني يا سيدتي ، فإن اولئك اللصوص لا يجسرون أن يهاجموك بعد الآن .

فنظرت اليه نظرة ملؤها الإعجاب وقالت له بصوت حنون :

– أهذا أنت ؟ إني أعتبر نفسي نجوت مرتين إذا كنت أنت مُنقذي .

ثم أخذت بيده وطوّقت عنقه وهي تقول :

– إني خائفة ... أتوسل اليك أن توصلني الى منزلي وإنك لا ترفض دون شك .

قال : سيدتي ، إني ادعى رولاند كانديانو . فإذا أبيتُ حمايتك كنت غير جدير بأن أتسمّى بهذا الإسم ، ومثل هذه الحماية لا يأباها فينيسي شريف !

قالت : أشكرك ألف شكر .

وجذبته وسارت به إلى شاطىء الترعة وهناك قارب جميل كان ينتظره ، فركبت وإياه . وسار بها القارب وكلاهما ساكت . أما رولاند فكان يفكر بل يحلم بذلك اليوم الذي ينتظره وهو يوم الغد حيث تقدم له ليونور أمام نبلاء فينيسيا خاتم الخطبة .

وأما هي ، أي الحظية أمباريا ، فإنها لم تكن تفتكر إلا بتلك الساعة التي تخلو فيها برولاند ، فإن ذلك أقصى ما كانت تتمناه في هذا الوجود .

وكانت أمباريا هذه أشهر محظية رومانية جاء بها الى فينيسيا أشهر رجالها ثروة وأشدّهم نفوذاً في مجلس العشرة وهو دافيليا. وقد كانت على جمال نادر تفوق به على جمال لوكريس بورجيا كما يقول الشعراء .

وكان أهل روما يفاخرون الشعوب بجمالها الفتان حتى أنها عند سفرها من روما نصبوا لهـــا تمثالاً [1] في إحدى المحلات العمومية كما كانوا ينصبون التماثيل للآلهة .

هـــذا ما كانت عليه أمباريا من الشهرة والجمال . ولم يكن رولاند يعرفها إلا باسمها لفرط اشتهاره . غير أنـــه حين وقف القارب أمام قصرها الفخم وحين رأى عشرين خادماً يتسارعون إلى استقبالها ، وحين رأى أعمدة ذلك القصر وتماثيله البديعة ، علم أنه لم ينقذ غير تلك المحظية وأنه واقف الآن عنـــد قصرها الشهير .

وعنـد ذلك حاول أن يتراجع ، ولكن أمباريا أمسكت بيده وقالت له بلهجـة المتوسل : أبلغْ بكرمك يا سيدي حدّ النهاية وشرّفْ منزلي بحضورك ، أو أعتقد أنك ما أنقذتني إلا لتهينني !

فلم يجـــد رولاند بدأ من الدخول . ودخلت به أمباريا

١ – بقي هذا التمثال منصوباً الى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد كتبوا عليه: « هذا تمثال أمباريا المحظية الرومانية التي لم تقع العيون على أجمل منها».

فاجتازت فسحة رحيبة من الرخام ثم صعدت به سلماً وُضع على كل درجة من درجاته آنية بديعـــة للأزهار النادرة . حتى إذا انتهت من ذلك السلم مرّت ببضع قاعات تدهش الأنظار بجمال فرشها ، فرأى رولاند أن كل ما في هذا القصر يدلّ على التناهي بسلامة الذوق .

ودخلت به أمباريا إلى قـاعة انتثرت فيها الأزهار وعبقت روائحها وفرشت أرضها بالبسط الهنـــدية وعلقت في جدرانها رسوم من صنع مشاهير المصورين لا يوجد مثلها في بيوت الملوك. أما إطارات مرائيها فقد كانت من الذهب الخالص . وعلى الجملة فإن دافيليا عاشق هذه المحظية قد أنفق على هـــذا القصر نصف ثروته .

أما رولاند فإنه لبث واقفاً وقد شعرت أمباريا بأنه يحاول الإنصراف ، فأطلقت سراح خادماتها بإشارة وقالت له بصوت يضطرب : ألا تتفضل بالجلوس يا سيدي ؟ قال : إنك أصبحت الآن آمنة في منزلك ، فإذا لبثت بحضرتك طويلاً ذهبت فائدة تلك الخدمة التي قمت بها ، وأكون قد خدمت نفسي . قالت : كيف تقول ذلك يا سيدي ؟ ألعلّك تريد أن تقرأ في عيني ما يجول في قلبي الضعيف !

فأدرك رولاند أنهـــا ستقول أقوالاً لا سبيل الى اتقائها ، وقال : إني إذا التمست أن تأذني لي بالانصراف يا سيدتي فإنما ألتمس أيضاً أن تعتقدي بأن هذا اللقاء كان داعياً الى إعجابي بما

لقيته من شجاعتك في مواقف الخطر وإلى امتناني لما لقيته عندك
من حسن الضيافة .

فتصدّت أمباريا في سبيله وهي ترتعش وقالت له بصوت
مختنق ونبرات دلّت على ما يجول في نفسها المضطربة : رولاند
ألا ترى إذن أني احبك ؟ ألا ترى أني أعرض عليك كل ما
حواه قلبي من الحنوّ ؟ ألم ترَني منذ ثلاثة أشهر أقتفي أثرك
وأمشي معك كما يمشي ظلك ؟

— سيدتي ... هدّئي روعك .

— ألم تعلم لماذا برحت روما وتركت فيها قصوري الثلاثة ،
وشعرائي ، وجميع ذلك الشعب الذي كان يعبدني ؟ أتعلم لماذا
غادرت ذلك النعيم وأتيت إلى فينيسيا مع جان دافيليا ؟ ذلك
أني رأيتك في العام الماضي حين بعثتك فينيسيا سفيراً الى البابا .
ثم أتعلم لماذا بنيت هذا القصر على شاطىء الترعة الكبرى ؟ ذلك
لأني أستطيع من شرفاته أن أرى القارب الذي يمرُّ بك كل يوم .
ثم أتعلم لماذا أنفقت الملايين على رياش هذا القصر وتزيينه ؟ ذلك
لأجعله هيكل غرامنا . رولاند ... رولاند ... ما هذا
الاحتقار الذي يبدو من نظراتك ؟ إنك تكاد تقتلني بها .
فأجابها رولاند برفق قائلاً : إني لا أحتقرك ، ولكني أشفق
عليك . فهاج ثأرها وقالت :

— أتشفق عليّ ؟ كلا ، إني أؤثر احتقارك . ولكن لا ...
أشفق عليّ فإني أحمل على الإشفاق إذ لم يُصَبْ بشر بمثل ما

أصبت به من هذا الحب القاتل . نعم أشفق عليّ فإن الحب
يعذبني والغيرة تقطع قلبي ولا سيما حينما أفتكر بهذه الفتاة
ليونور التي ...

فصاح بها رولاند قائلاً : أيتها الشقية ...

وقد اصفرّ وجهه ورفع يده كأنه يريد أن يسحق بها ذلك الفم
الذي تجاسر على التجديف بمعبوده . غير أن يده قد سقطت إذ
عاد اليه رشده لفوره وعلم أنه لا يجدر به ضرب امرأة . وخرج
فجأة بعد أن ودّعها بصوت مختنق ، فكادت أمباريا تجنُّ
ليأسها بعد ما لقيته من احتقار رولاند ، فانطرحت على مقعد
وجملت تعضُّ مخدة كانت عليه كي تمنع صدرها من الانفجار .

وفيما هي على ذلك نظرت عرَضاً فرأت أمامها رجلاً مكتف
اليدين وقد وقف بين مصراعي الباب ينظر اليها . كان هذا
الرجل يناهز الأربعين من العمر وهو جميل الوجه طويل القامة
وقد تقلّد حساماً رصّعت قبضته بالحجارة الكريمة . فوثبت
أمباريا من موقفها وقالت : جان دافيليا !

ثم مشت اليه وقالت له بصوت يرتجف :

— أرأيت ؟

— نعم .

— أسمعت ؟

— كل شيء .

فضحكت ضحكاً كثيراً ولم تجب بشيء . أما دافيليا فإنه قال لها بلهجة خطيرة :

– إنك ستموتين فتأهبي للموت . ألم تقولي إنك لم تصحبي جان دافيليا إلى فينيسيا إلا لكي تجدي رولاند كانديانو فيها ؟ ويحٌ لي ولهذا القدر الذي عبث بي ! أيسفك أجدادي دماءهم في سبيل أوطانهم ويقتحمون الموت ويحضرون مائة معركة فيكتب اسمهم بحروف من الذهب في سجل الجمهورية ، ثم يكون آخر أبنائهم لعبة تعبث بها محظية غانية وتجعله هزءاً لدى أهل بلاده ؟ أأكون أنا آخر أبناء اولئك الأبطال ولا همّ لي إلا أن أنزع عنك لباس العار وألبسك ثوب مجدنا القديم وأجعلك من النبيلات بين قومي ، فتجازينني بما فعلت كي تقضي مرام نفسك السافلة ؟ ثم أنفق عليك أموالي التي جمعها أجدادي كي تبني قصراً تجعلينه هيكلاً لمن تحبين ؟

كانت أمباريا تسمع كلامه وهي غير مكترثة لما يقول حتى إذا انتهى الى كلمة الهيكل قاطعته قائلة :

– أتحسب أن هـذا الهيكل مجازيّ ؟ تعال وانظر . ثم خرجت من تلك القاعة مسرعة وقد تبعها دافيليا ، ففتحت باباً سرّياً ودخلت منه الى غرفة صغيرة لم يكن فيها شيء من الأثاث سوى هيكل من الرخام وُشّي بالذهب وعليه الشموع الموقدة. وفوق هذا الهيكل إطار كبير من الذهب المرصّع باليواقيت ،

وفي وسط هـذا الإطار صورة رولاند كانديانو من صنع أحد اولئك المصوّرين الذين أدهشوا العالم بهذا الفن الجميل .

فلما وصلت أمباريا إلى هذا الهيكل ركعت عند درجاته كما يركع المتعبدون عند هيكل الله . أما دافيليا فقد طاش رأسه لما رآه ، فجرّد خنجره وهجم عليها وهو يقول : اهبطي الى جهنم أيتها الأفعى فهناك تلقين معبودك ، وسأدفع جثتك الى الجلاد فيشوّهها قبل أن أجعلها طعماً للأسماك .

وعند ذلك رفع يده ولكنها انقضّت عليه بسرعة الصاعقة فقبضت على يده وعضّتها بقوة ضاعفها اليأس فسقط الخنجر من يده فأسرعت إلى التقاطه وأغمدته في صدر ذلك المنكود فسقط صريعاً تحت ذلك الهيكل دون أن يتفوه بحرف . أما أمباريا فإنها بعد أن طعنته تلك الطعنة النجلاء وقفت تتمعن بذلك الجسم الصريع ثم تراجعت إلى الباب .

وعند ذلك شعرت بيد قد وضعت على كتفها فالتفتت مذعورة وهي متأهبة لارتكاب جريمة ثانية ، فرأت رجلاً يبتسم لها ابتسام الأبالسة .

*

الخطبة

*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كانت سراي الدوج ، والد رولاند ، مزينة أعظم زينة احتفالاً بعقد خطبة رولاند على ليونور . وكان أهل فينيسيا قد خرجوا في تلك الليلة أيضاً من منازلهم كما فعلوا في الليلة السابقة ولكنهم لم يكونوا فرحين كما كانوا في تلك الليلة بل إنهم كانوا يتكلمون همساً وقد بدت عليهم علائم الإضطراب. ثم تماوجوا فجأة كما يتماوج الأوقيانوس ساعة العاصفة دون أن تعرف حقيقة أسباب هذا الهياج .

وكان الدوج نفسه واقفاً في سلم قاعات الاستقبال الكبرى يستقبل وفود الناس وهو بملابسه الحربية العسكرية ويتلقاهم بما فطر عليه من الأنس والبشاشة ، وبقربه زوجته الدوجة سيلفا وهي تبسم للقادمين ولكنها تتمعن في وجه كل قادم منهم كأنها تريد أن تقرأ في نفوسهم ما يجول فيها من الأفكار بشأن هناء ولدها أو شقائه .

وقد كان أول القادمين إلى هذه الحفلة بمبو[1] فهنأ والد رولاند

١ – كان بمبو في أول حوادث هذه الرواية كاتباً بسيطاً وراهباً عادياً =

وامه وقال : إني أتيتكم بقصيدة في الخطيبين لم ينسج الشعراء على منوالها بعد .

وكان جميع الذين حضروا الحفلة جاؤوا إليها بالملابس الرسمية ولكن من غريب أمرهم أنهم كانوا يتقلدون سيوفهم وقد تسربلوا بدروع أخفوها تحت ملابسهم حتى أن النساء على ابتسامهن الدائم كانت تبدو عليهن علائم الرعب ، ذلك أنها انتشرت إشاعة مآلها أن الشعب سيثور خلال هذه الحفلة ولم يعلم أحد مصدر هذه الإشاعة .

أما ليونور ورولاند فقد كانا جالسين في القاعة الكبرى وقد أشرق وجهاهما بنور البشر فكانا يبتسمان للمهنئين وقد شغلا بغرامهما عن الانتباه إلى اضطراب الناس .

وكان دندولو ، والد ليونور ، هو أول من كتب تاريخ فينيسيا من النبلاء ، واقفاً بقرب بنته وقد بدا اضطراب نفسه في عينيه بأشد ما بدا في عيون الناس .

وعند ذلك قدم ألتياري الذي تقدم لنا وصفه في الفصل السابق فصافح رولاند وقال له بلهجة تكلف فيها الإخلاص

= وشويعراً أو نصف شاعر ، كما يقول الافرنج، ثم ارتقى بدهائه ونفاقه إلى أن صار كردينالاً . وقد عثروا بعد وفاته على كثير من الرسائل الغرامية أشهرها عشر رسائل كتبها إلى لوكريسيا بورجيا وبعض قصائد تعد من سقط المتاع .

الشديد : أهنئك يا رولاند وأرجو لك أرغد عيش . فأجابه رولاند قائلاً : أشكرك أيها الصديق وأتفاءل بدعائك خير فأل فإن دعاء المخلصين مستجاب .

وجاء في أثره بمبو فقال له رولاند : أهذا أنت أيضاً أيها الصديق ؟ إني أشكرك وأثني على شعرك . فانحنى بمبو وشكره لثنائه ثم تظاهر بالإنذهال وقال : كيف جلست يا سيدي في هذا الموضع في مثل هذه الحفلة المباركة؟ أم ترَ ما وراء الكرسي؟

فالتفت رولاند إلى الجدار وراء كرسيه والتفتت ليونور مذعورة ، وكان قد علق على هذا الجدار رسوم حكام فينيسيا فاتفق جلوس الخطيبين وراء صورة الدوج مارينو فلورينا وقد كتب تحتها :

« هذا رسم الدوج مارينو الذي قطع رأسه لآثامه » .

وقبل أن يقرأ الخطيبان هذه الكتابة كان بمبو قد توارى بين الجماهير فاصفرّ وجه ليونور وقالت بصوت يضطرب: رباه، ما هذا الاتفاق فلقد تشاءمت منه ! قال : لا تجزعي أيتها الحبيبة فإن بمبو لا يريد غير المزاح وتأهبي للساعة المباركة فهوذا أبي وامي يدنوان منا لعقد الخطبة .

*

وفي تلك الساعة أقبل عدد عظيم من الحراس ووقفوا وهم

مسلحون عند جميع الأبواب فساد السكون في تلك القاعة الكبرى ثم تقدم رجل يتبعه جنديان فدنا من رولاند وقال :

— أنا فوسكاري رئيس المفتشين في مجلس العشرة أصرح بأنه يوجد هنا خائن متمرد متآمر أتيت كي أقبض عليه لسلامة الجمهورية .

فاضطرب الناس لهذه الشكوى وغضب والد رولاند غضباً شديداً فالتفت إلى فوسكاري وقال :

— أتحدث مثل هذه الفضيحة في مثل هذه الحفلة وفي سراي الدوج ؟ إن هذا لعظيم يا فوسكاري ، ومهما يكن من أمر هذا المتهم فهو ضيفي . وقسماً بمسامير الصليب الدامية إني لا أدع الناس يقولون بأن كانديانو أخلّ بشروط الضيافة .

فأجال فوسكاري نظراً هادئاً بين الدوج وسائر الحاضرين وقال :

— يا سيدي الدوج ويا جميع الحاضرين ، إعلموا أنه منذ ستة أعوام وشي إليّ بالأسقف بيزاني في ساعة أشد خطورة من هذه الساعة وكان البحارة على وشك الثورة فلو ترددت ساعة لثار ثائرهم . وكان ذلك اليوم يوم عيد عظيم والساعة ساعة الصلاة الكبرى ، فذهبت إلى كنيسة سانت مارك ومشيت إلى الهيكل حين كان الأسقف يبارك الشعب فانتزعته من الهيكل وهو ساعتئذ في ضيافة الله وقبضت عليه كما تعلمون .

فاضطرب جميع الحاضرين حتى ألتياري فقد اصفرّ وجهه ما خلا بمبو فقد كان يراقب هذه الحادثة بملء السكينة وقد دنا من ألتياري وهمس في أذنه بعض كلمات . وعاد فوسكاري إلى الحديث فقال : إذن فاعلم يا سيدي الدوج أن ما فعلته في بيت الله يجوز أن أفعله في بيتك لا سيا وان منصبك يقضي عليك بالمحافظة على تأييد النظام .

فنظر الدوج إلى ما حواليه فرأى نحو ألفين من المدعوين إلى هذه الحفلة وقد أطرقوا برؤوسهم وكلهم يتوقعون قرب انقضاض الصاعقة . وسمع قعقعة السلاح من الخارج فشعر بعجزه عن المقاومة وسأل فوسكاري بصوت مختنق قائلاً : من هو هذا المتهم ؟

فأجابه فوسكاري قائلاً : رولاند كانديانو !

فصاحت ام رولاند وخطيبته صيحتين منكرتين وأسرعتا إلى الوقوف بين فوسكاري وبين رولاند ولسان حالها يقول : تعالوا انتزعوه منا إذا كنتم تجسرون .

و كذلك الدوج فإنه صاح صيحة تشبه الأنين وقال : ولدي. تقول إن ولدي يؤامر ويخون ؟

– إن الوشاية صريحة يا سيدي الدوج .

– ولكنها كذب ونفاق .

ثم انتزع التاج عن رأسه فألقاه إلى الأرض وقال: لا أدعكم تذهبون بولدي إلا متى استحال ذهب هذا التاج إلى أغلال من الحديد . وهاج الحضور هياجاً عظيماً ، وجرّد الدوج حسامه الطويل ، فدنا ألتياري من رولاند وقال له :

– إعلم أيها الصديق أن أعداء أبيك قد فعلوا هذه الفعلة المنكرة كي يحملوه على اليأس وإتيان أمر يعود عليه بالسقوط فسلّم نفسك يا رولاند وأنا أضمن لك السلامة وإنهاء هذه المشكلة بعد ساعة على خير .

فأثر كلامه على رولاند وعلى امه وخطيبته لما يعلمونه من نفوذ ألتياري في مجلس العشرة ولصداقته مع رولاند . فصافحه رولاند شاكراً وقال له : إن تنبّهك وبعد نظرك قد أنقذا أبي فلا أنسى جميلك وسيكون بيني وبينك عهد إخاء أبدي .

ثم تركه وسار مسرعاً إلى أبيه وهو قد امتشق حسامه ليدافع به عن ولده ويدعو الناس إلى نصرته . فلما رآه أبوه قادماً إليه استحال غضبه إلى يأس ففتح ذراعيه وضمه إلى صدره بينما كان فوسكاري ينظر إلى رولاند بملء السكينة وبينما كان اولئك المدعوون مطرقي الرؤوس خجلاً لإحجامهم عن مساعدة الدوج . وجعل رولاند يكلم أباه همساً فلم يعلم أحد ما كان يقول ، حتى إذا فرغ من حديثه التفت الدوج إلى فوسكاري وقال له :

– إن ولدي بريء وهو يريد أن تظهر براءته أمام المجلس ، فقم بواجبك كما نقوم نحن بواجباتنا وليلتئم المجلس في الحال .

قال فوسكاري : إن المجلس ينتظر . فارتعش الدوج وقد علم أن كل شيء قد تهيأ من قبل لمحاكمة ولده ، فمَن الذي أراد أن يضربه هذه الضربة القاضية ؟

وعند ذلك نظر إلى المحيطين به نظرة هائلة دلت على مبلغ يأسه وقال : الويل لذلك الواشي السافل فسأبحث عنه وسأظفر به ولا ينجو من انتقامي . ثم التفت إلى ولده وقال له بصوت مرتفع :

– سر يا بني فقد طلبت إليّ أن أنتظر ساعة وسأنتظر ساعة كما سألت .

فقال رولاند لفوسكاري :

– هوذا حسامي يا فوسكاري أودعك إياه وأنا مستعد للمثول أمام المحكمة . فأشار رئيس المفتشين فأقبل اثنا عشر جندياً ودنا قائدهم منه وحاول أن يقبض على رولاند ، ولكنه لم يمد إليه يده للقبض عليه حتى صفعه صفعة ألقته على الأرض .

فاضطرب جميع الحاضرين ونهض القائد دون أن يفوه بكلمة ، فالتفت رولاند إلى فوسكاري وقال له :

لنتفق يا حضرة المفتش كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فإني

غير ذاهب إلى المجلس الأعلى إلا بمحض إرادتي ، فأصدر أمرك إلى جنودك بالابتعاد عني وعجّل بإصدار هذا الأمر .

فنظر فوسكاري إلى رولاند نظرة الفاحص فرآه جديراً بمقاومة فرقة وأنه قد يثير المدينة بأسرها فلم يجد بداً من التساهل وقال له : حسناً ، ليكن ما تريد فتفضل واتبعني ، قال : بل إني أتقدمك .

ونادته خطيبته قائلة : رولاند ... فالتفت رولاند فرأى خطيبته صفراء الوجه وهي متوكئة على كتف أمه كي لا تسقط ، ورأى الحب الصادق يتألق في عينيها . ثم رأى أمه وقد تجهم وجهها باليأس وأنه لم يبقَ لها من دلائل الحياة غير اضطراب شفتيها . ورأى أباه يحيط به النبلاء وهم سكوت وجوم .

وعند ذلك نادته ليونور أيضاً قائلة : رولاند ! فبذل جهداً عنيفاً كي لا ينثني عن عزمه وذكر ما قاله ألتياري فخشي على أبيه وأجاب خطيبته قائلاً :

– ساعة واحدة يا ليونور ... ساعة واحدة يا أبي ويا أمي .

ثم سار إلى جهة الباب أمام الجنود يتبعه فوسكاري في مقدمة جنده !

مجلس العشرة

*

كانت قاعة مجلس العشرة ملاصقة لقاعة المفتشين . وكان

رجال هاتين القاعتين يتهددون الحكام والحكام يتهددونهم بحيث كانت هذه المجالس تشبه الكلاليب ، فإذا كانت القوة في جانب الحاكم قبض بهذه الكلاليب على رقاب المجلس ، وإذا فاز المجلس عليه قبض بها على رقاب الحاكم وأمثاله من النبلاء .

فلما دخل فوسكاري إلى قاعة مجلس العشرة جلس على كرسي بإزاء عشرة كراسي كان أعضاؤها جالسين عليها ما خلا كرسياً كان خالياً وهو كرسي دافيليا الذي طعنته أمباريا بخنجرها كما تقدم في الفصل السابق .

وقد دخل فوسكاري وحده دون أن يكون معه رولاند وهو سر من أسرار التفتيش الهائلة في ذلك العهد التي لا بد لنا من كشفها قريباً لنقفو أثر خطيب ليونور .

أما الأعضاء التسعة الباقون الذين يتألف منهم هذا المجلس السرّي فقد كانوا في مجالسهم وقد جلسوا على كراسيهم وعلائم العسف بادية على وجوههم ولكنهم لا يأتون بأية حركة كأنهم تماثيل .

فوقف فوسكاري وقال لهم : إنكم تعرفون أيها السادة منذ عهد بعيد تلك الدهاليز التي يجب أن نقود اليها رولاند كانديانو .

فأشار أكثر الأعضاء برؤوسهم إشارة مصادقة فقال : لقد ظهرت اليوم خيانة رولاند ظهور الشمس بما كان يظهره الشعب حوالى قصره من الاعتراض علينا والتشيع له ، أليس كذلك ؟

فصادق بعض الأعضاء هذه المرة دون بعض فقال فوسكاري :

إن رولاند كانديانو أيها السادة قد أثار البحارة وأهاج الشعب ، فإذا لم نسرع في تنفيذ مقاصدنا بلغ منا ما يريده .

فقال أحد رجال المجلس : لنقترع . فأجابه أحدهم : ولكننا لا نستطيع الاقتراع ، فإن واحداً من الأعضاء لم يحضر وهو دافيليا .

فابتسم فوسكاري وقال : إنكم ستعلمون السبب في غياب هذا العضو . ولكن قبل أن أخبركم عن السبب في غياب دافيليا . . .

فقاطعه أحدهم قائلاً :

— أظن أن السبب في غيابه كونه من أصدقاء رولاند .

قال : قبل أن نبحث في شأن دافيليا يجب أن ننتهي من تقرير المعاملات الرسمية التي يجب أن نعامل بها رولاند .

وعند ذلك نهض عن كرسيه وذهب إلى باب يقابل الباب الذي دخل منه ففتحه فانكشف عن قاعة الشهود . على أنه لم يكن ثمة شهود ولكن النظام كان يقضي بإعداد هذه القاعة .

وقد وقف في بابها عندما فتحها وصاح بأعلى صوته قائلاً :

— ليدخل إلى هنا الذي وشى برولاند كانديانو ويبسط أقواله لدى المجلس حسب ما يوحي اليه الضمير والذمة .

قال هذا القول وصبر هنيهة ثم عاد إلى مجلسه . فلما جلس على كرسيه رأى ملامح الذهول قد ارتسمت على وجوه القضاة وأنهم ينظرون إلى باب الشهود ، فالتفت ودهش نفس دهشتهم . . . ذلك أنه رأى امرأة واقفة بين مصراعي ذلك الباب ، وأن تلك المرأة كانت الحظية أمباريا .

أما أمباريا فإنها دخلت وهي خافقة الصدر مضطربة الأعضاء لتنازع العوامل في فؤادها، فاصفرّ وجه ألتياري ودهش القضاة لهذه الزيارة التي لم يكونوا يتوقعونها . وعند ذلك قال لها فوسكاري :

– أهو أنت التي وشيت برولاند كانديانو ؟ قالت : نعم .

قال : إذن تكلمي وقولي ما رأته عيناك وسمعته أذناك دون خوف .

وقال أحد الأعضاء وهو الذي أشار إلى صداقة رولاند ودافيليا: تكلمي بحرية يا سيدتي ولكن تمعّني فيما ستقولينه قبل أن تقوليه واعلمي أن كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند .

فوافق أكثر الأعضاء على قوله وارتعشت أمباريا وزاد اصفرار وجهها فوضعت يدها على صدرها كأنها تريد تسكين خفقانه فقد كانت تلك العاصفة الثائرة في قلبها هائلة وذلك أنها قضت ليلها ونهارها على أحرّ من جمر الغضا وعلمت كل ما جرى في قصر الدوج ساعة الاحتفال بعقد الخطبة فخرجت من منزلها وهي شبه مجنونة لا تعلم ماذا تفعل. وهي لا تعلم كذلك إذا كان مجيئها إلى مجلس التفتيش بسبب حبها الشديد لرولاند أو بسبب غيرتها العمياء عليه .

ورنّت في أذنيها كلمات ذلك القاضي حين قال لها : « إن كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند » . فارتجفت أعصابها وقالت في نفسها :

– ويل لي مما صنعت ! أيسقط مثل هذا الرأس الجميل تحت

سيف الجلاد وأكون أنا الساعية في قتل رجل يحييني بابتسامة !؟

وهاج تأثرها في تلك اللحظة على أولئك القضاة حين خطر لها أنهم سيحكمون عليه بالإعدام فقالت في نفسها : كلا إن ذلك هائل مخيف ، ويجب أن أشي بنفسي وأروي لأولئك القضاة حقيقة ما جرى بيني وبين بيبو وألتياري ، ذينك الشقيين اللذين اغتنما فرصة هياج غيرتي فحملاني على الوشاية برولاند ... نعم ، لا بد لي من إنقاذه ولو أودى ذلك بحياتي .

أما فوسكاري فقد عيل صبره لسكوتها فقال لها : ولكن تكلمي يا سيدتي فإننا ننتظر . وكاد ألتياري يجنّ من رعبه فقد كان يراقب أمباريا وقد قرأ في عينيها ما ينبىء بعزمها على إنقاذ رولاند .

وأما أمباريا فإنها رفعت رأسها وارتجفت شفتاها وضبطت عنان نفسها فقالت :

– إني سأخبركم بالحقيقة . نعم سأقول لكم الحقيقة بجملتها مهما كانت هائلة !

فسقط ألتياري على كرسيه واهي القوى كأنه أصيب بضربة شديدة على رأسه . واندفعت أمباريا في الحديث فقالت : نعم إنكم ستقفون على الحقيقة بجملتها فاسمعوا ...

وعند ذلك فتح باب القاعة فجأة وظهرت منه ليونور فوقف الكلام بين شفتي أمباريا ونظرت إلى ليونور نظرات غريبة تشفُّ عن كره لا تصفه الأقلام . أما فوسكاري فإنه استاء لدخول الفتاة دون استئذان فقال :

— مَن يجسر على الدخول ؟

فأسرعت ليونور حتى وصلت إلى وسط القاعة وقالت للقضاة بصوت يضطرب :

— أسألكم العفو أيها السادة فإني قادمة للدفاع عنه وحاشاه أن يكون من المجرمين . وكانت الدموع تجول في عينيها فتزيد وجهها الجميل جمالاً ، ويزيد هذا الجمال أمباريا غيرة وحقداً ، فأثرت على القضاة خير تأثير . وتطاولت رؤوسهم كي يسمعوها ما خلا ألتياري فإنه بقي في محله وقد طاش رأسه من الرعب والغيرة حتى خطر له أن ينتحر لفوره .

أما ليونور فإنها اندفعت في حديثها فقالت : بماذا تتهمونه وماذا صنع ؟ إنه كان يرجو أن يعود بعد ساعة وقد مضت الساعة دون أن يعود . أيها السادة ، إني أرى بينكم من كان أصدق صديق له . وأنت يا سيدي ألتياري، وأنت يا سيدي موسنجي، إنه كان يحبكما أصدق حب وقد قاتل في سبيلكما ، وأنت يا سيدي كريماني ، ألم تصحبه مراراً إلى منزل أبي ؟ وأنت يا سيدي موساني ، ألم ينقذ ولدك ؟ إنكم جميعكم من أصحابه كما أرى ، فكيف تصدقون التهمة فيه وأنتم تعرفونه حق العرفان ؟ بل كيف ترتاح نفوسكم إلى الحكم عليه ؟ وإنما أقول الحكم عليه لأني أعلم يقيناً أنه لم يمثل أحد في مجلسكم وخرج حياً .

فقال لها فوسكاري : هدّئي روعك يا سيدتي . قالت : دعني أقول ما أشاء فإني ما أتيت إلا للدفاع عنه . وأنتم أيها

السادة ، إذا أردتم أن تحكموا عليه وتنتزعوه مني فانتزعوا قبل ذلك روحي من صدري لأنه روحي التي أحيا بها . وإنكم تعجبون كأنما يجول في خواطركم أن ابنة دندولو لا تعرف واجباتها ، فلا تعجبوا أيها السادة ، فإن أحد جدودي أنقذ الجمهورية وأنا أحاول إنقاذ زوجي ، فلا عجب من قدومي اليكم بل إن ذلك من حقي وإني أريد أن أعلم بماذا تتهمونه ومَن هذا الذي يتهمه ؟

فقالت أمباريا : أنا . فنظرت ليونور إلى تلك المحظية وقد ذعرت لِما سمعته منها فقالت لها : أنت يا سيدتي تتهمينه ومَن أنت ؟

فلم تجبها أمباريا بل تقدمت من مجلس القضاة وقالت : أيها السادة ، إنهم يسألون مَن أنا . فاعلموا أني أدعى أمباريا وأني أمتهن في فينيسيا نفس المهنة التي كنت أمتهنها في روما وهي تجارة الجمال ، أي أنني محظية !

فهزت ليونور رأسها ولم يؤثر عليها أن تكون واقفة في مجلس واحد مع مثل هذه المرأة ولم تفهم من كل ما سمعته منها سوى أنها هي التي وشت برولاند .

وعادت أمباريا الى الحديث فقالت : نعم أنا هي الواشية برولاند كانديانو . وهنا ابتسمت ابتساماً كادت تجنّ له ليونور وقالت لها : أهذا أنت ؟ أنت الواشية برولاند ؟ قالت : نعم يا سيدتي، إني أشكو رولاند بأنه يحاول قلب الحكومة الحاضرة بقتل رجال مجلس العشرة الواحد تلو الآخر .

وكانت التهمة شديدة هائلة وَجَفَتْ لهـا قلوب الأعضاء .
فاضطربت ليونور ومسحت العرق عن جبينها ثم قالت :
– لا تكفي الأقوال في مثل هذه التهم دون البراهين، فهاتي برهانك إن كنت صادقة . ثم التفتت الى القضاة وقالت :
– إنكم لا تصدقون هذه الأقوال دون شك ، فإنكم تعرفون رولاند . فقالت أمباريا : أي برهان تريدون وأنا قد فاجأت المؤامرة فرأيت بعيني وسمعت بأذني !
– سمعت ورأيت ؟ وأين كان ذلك ؟
– عندي ، في منزلي !
فهاج اليأس في صدر ليونور فوثبت الى أمباريا وقبضت على يديها وقالت :
– أتقولين عندك ؟ أكان رولاند أتى اليك ؟
– ولماذا تعجبين من ذلك يا سيدتي ؟ فإنه كان يأتي إليَّ كل ليلة بعد انتصاف الليل .
فشعرت تلك الفتاة أن الدم قد جمد في عروقها وأن سحابة كثيفة قد حجبت النور عن عينيها وأن قلبها يخرج من صدرها فقالت لأمباريا بلهجة يرقُّ لهـا قلب النمر المفترس : بربك يا سيدتي لا تعبثي بيأسي وقولي الحقيقة .. قولي يا سيدتي إن رولاند لم يكن يأتي الى عندك .
فأجابتها أمباريا ببرودة قائلة : لقد جرى كل ذلك عندي في منزلي . ثم قالت للقضاة : نعم. لقد بدأ رولاند كانديانو بتنفيذ مشروعه الهائل عندي ليـلة أمس وذلك بقتله أحد أعضاء

مجلسكم .
فاضطرب الأعضـاء اضطراباً عظيماً والتفتوا جميعهم الى كرسي دافيليا الخالي . وقال فوسكاري بصوت أجش :
– أقتل دافيليا ؟
فتراجعت ليونور مذعورة ويداهـا على صدغيها وعيناها تنظران إلى الخطيئة وقد شعرت بأنها أصيبت بعلة لا دواء لها ونكبت نكبة لم يبق سبيل لاتقائها. أما أمباريا فإنها استطردت في حديثها فقالت :
– بقي عليَّ أيها السادة أن أخبركم عن السبب الذي حمـل رولاند على قتل دافيليا . إن ذلك المنكود مصاب بجرح بالغ وهو يحتضر عندي الآن وسيموت غداً دون شك وها أنا أخبركم بما اتفق . إن رولاند فاجأه دافيليا عندي فجرد خنجره لفوره وطعنه بـه وجميعكم تعلمون أن بين عشاقي الكثيرين لم يكن أشد غيرة من رولاند .
فأنّت ليونور أنيناً مؤثراً أشفق له القضاة مـا خلا أمباريا فإنها ابتسمت ابتسام المنتقم وقد أصيبت بمثل ما أصيبت بـه ليونور ولكن عزاءها في تضحية حبيبها أنها تشفت بالانتقام من مزاحمتها فيه .
أما ليونور فإنها مشت إلى الباب وهي منسحقة النفس وقد بلغ منها اليأس أنهـا عزمت على أن تهيم وتسير إلى أقصى حدود الأرض هناك حيث تموت دون أن يراها أحد وحيث يموت معها الحب والرجاء .

وكان ألتياري ينظر إليها وهو يكاد يفترسها بنظراته وأمباريا تنظر إليها وهي تكاد تطير سروراً بشقائها ، حتى إذا وصلت إلى الباب فتحته وهمت بالخروج منه ثم تراجعت كأنما خطر لها رجاء جديد . ذلك أن أحد الحجاب دخل إلى القاعة من أحد أبوابها وصاح قائلاً :

يا حضرة القضاة ، هوذا النبيل السير جان دافيليا أقبل ليجلس في مجلسه بينكم . ولقد كان دافيليا نفسه ، وإنما حضر إلى المجلس وهو يحتضر بغية الانتقام من أمباريا ولإنقاذ رولاند .

فحمل نفسه وأعانه خدمه على الوصول إلى المجلس وهو يعلم يقيناً أنه قد يموت قبل أن يصل ولكن هي المروءة ثارت في صدره النبيل فبذل ما بذله من الجهد بغية إنقاذ البريء والانتقام من الواشي حتى إذا مات بعد ذلك مات قرير النفس مطمئن البال . وجلس في كرسيه واصفرار الموت باد في وجهه . فلما انصرف الحجاب وخلا المجلس نظر دافيليا إلى أمباريا نظرة قطعت أوصالها من الرعب .

وكان القضاة قد تسارعوا إلى رصيفهم لما رأوا عليه من دلائل الموت ولوثوقهم بأنه لم يحضر إلا لأمر خطير ، ما خلا ألتياري فإنه أيقن أن الساعة الرهيبة قد دنت فبقي في مجلسه وقد وضع يده على قبضة خنجره وتأهب للدفاع عن نفسه حتى الموت . أما ليونور فقد كان اضطرابها لا يوصف إذ لم تكن تعلم ما يريده دافيليا وإذا كان يثبت مقال أمباريا أم ينقضه .

وعند ذلك أشار دافيليا إشارة إلى رصفائه كأنه لا يستطيع

الكلام فتباعدوا عنه . وساد السكوت الرهيب في تلك القاعة فلم يسمع فيها غير ترديد أنفاس الجريح ، إلى أن بدأ فوسكاري الحديث فقال :

— يا جان دافيليا ، إن هذه المرأة تتهم رولاند كانديانو بأنه طعنك بخنجره ، فقل الآن ما أتيت تقوله لرصفائك .

فاقترب القضاة من دافيليا كي يستطيعوا سماع صوته الخافت وأطبقت ليونور عينيها وضمت يديها . وتأهبت أمباريا لانقضاض تلك الصاعقة على رأسها . وأسند دافيليا يديه إلى الكرسي وبدأ الحديث فقال : أعترف أن ...

وهنا انقطع عن الحديث وقد جحظت عيناه فقال له فوسكاري : تكلم أيها القاضي فإنك ستلاقي القاضي الكبير .. فبذل دافيليا كل ما يستطيع بذله من الجهد كي يستطيع الكلام ، ولكن الموت عقد لسانه فسقط على كرسيه وبقيت عيناه منفتحتين تتوعدان . فدنا منه فوسكاري وتفقده ثم قال : أيها السادة ، إن رصيفكم جان دافيليا قد مات .

فرفع القضاة قبعاتهم احتراماً لجلال الموت وأتم فوسكاري حديثه فقال : نعم ، لقد مات بعد أن قضى واجباته وأثبت أن هذه المرأة قالت لنا الحقيقة .

وعند ذلك خرجت ليونور وهي مطرقة الرأس ومشت ببطء مشي المجانين . وفي الوقت نفسه كانت ضوضاء الشعب تقترب من الأسماع كهزيم الرعد البعيد ، فقال فوسكاري :

— ستنظر أيها السادة غداً في العقاب الذي يجب أن نعاقب

بـه رولاند ، وأما اليوم فلنعمل على إخماد الفتنة وليقم كل منكم بما عهد إليه .

وعند ذلـك وثب ألتياري وخرج في أثر ليونور ثم خرج الجميع فلم يبقَ غير فوسكاري وهو ينظر نظرات منكرة إلى جهة دافيليا ويبتسم . وفيما هو على ذلك دخل إليه رجل فانحنى حتى كاد يبلغ الأرض وقال له : أتراني يا مولاي خدمت مجدك وأغراضك كما ينبغي ؟ قـال : نعم يا عبو لقد أحسنت وسنعمل يـداً واحدة . قال : عندما تصير حاكم فينيسيا وسيد ايطاليا العليا .

وعند ذلـك علت أصوات الهياج ودويّ البنادق فأسرع فوسكاري إلى الخروج من تلك القاعة .

العاصفة

*

عندمـا خرجت ليونور من قصر الدوج كانديانو لم ينتبه في البدء أحد لخروجها حتى أن أباهـا نفسه لم ينتبه إليها لانشغاله بهذه الحادثة وبحوادثه الخاصة فقد كان هـذا الرجل من أعاظم نبلاء فينيسيا ولكنه قد خسر ماله ، وهو شديد المطامع فكان

يطمع أن يكون من كبار رجال الدولة وأن يكون له قصر على شاطىء الترعة الكبرى ويرجو نيل هـذه الأمنية ولو بسفك الدماء .

وكان جمهور المدعوين قـد صبروا بملء السكينة إلى أن استبطأوا عودة رولاند فكثر القيـل بينهم واشتد هياجهم وعادت النساء إلى المنازل والتف هؤلاء النبلاء حول الدوج وهم يتكلمون همساً وقد ظهر صدق العزيمة على وجوههم .

أما والد رولاند فإنه لم يشترك معهم في حديث بـل كان شاخصاً إلى باب القاعة الأكبر ، فإن رولاند قـد خرج من هذا الباب وهو سيعود من هذا الباب .

ولبث على ذلك مـدة طويلة إلى أن فتح الباب فصاح صيحة فرح وفتح ذراعيه كي يستقبل ولده . ولكنه بـدلاً من أن يرى ولده رأى ليونور داخلة وهي شبه المجانين .

وفي تلـك الساعة أشتد هياج الشعب في ساحة سان مارك وبلغت أصواتهم إلى قصر الدوج فأجابهم النبلاء بمثل هذا النداء واستل الدوج حسامه فاقتدى به نحو مائة من المدعوين . وكان الشعب يصيح من الخارج : ليحيَ كانديانو .. لتحيّ الحرية !

فخرج بعض المدعوين إلى القاعـة وجعلوا يقولون : ليمت العصاة المتمردون . واشتد الهياج حوالي الدوج أما الدوج نفسه فإنه أسرع إلى ليونور وقال لها :

ـ أين ولدي وماذا جرى له ؟

فـلم تستطع ليونور أن تقول كلمة واحدة وسقطت مغمياً

عليها ولكنها لم تبلغ إلى الأرض فإن ألتياري تلقاها وحملها بين يديه فذهب بها إلى أبيها دندولو .

فاضطرب دندولو لأنه كان مسترسلاً إلى التفكير ولم يعلم شيئاً مما جرى وسأل ألتياري عما حدث لابنته وعما أصاب رولاند، فأجابه ألتياري قائلاً : لا تسألني عما حدث وانظر إلى ما حواليك تعلم ما جرى لرولاند . فالتفت دندولو فرأى كانديانو مشهراً حسامه وفي أثره نحو مائة مدعو قد اقتدوا به وهو يهز حسامه ويقول : ولدي .. ولدي .. ماذا فعلتم بولدي ؟ وعند ذلك قدم فوسكاري تتبعه فرقة من الجند فدنا منه وقال له :

— كانديانو ، إن ولدك قد خان وهو في سجن الجمهورية ! كانديانو ، إنك أيضاً من الخائنين ولم يعد لك لقب دوج ! كانديانو ، إني أقبض عليك باسم شرائعنا وبأمر مجلس العشرة .

ثم دنا منه يحاول القبض عليه فصاح والد رولاند قائلاً :

— إليّ يا رجالي .. إليّ أيها الأصدقاء .. ويحٌ للجبناء إنهم تخلوا عني بجملتهم وبتّ وحدي ، ولكني لا أموت موت الجبان !

وعند ذلك هجم بحسامه على فوسكاري ولكنه قبل أن يبلغ إليه كان الجنود قد أحاطوا به وأصابه واحد منهم بضربة على أعلى رأسه سقط على أثرها مغمياً عليه .

وكان دندولو لا يزال يسأل ألتياري عما حدث فقال له :

إن الثورة ناشبة يا دندولو وإنك في عداد المتهمين وكفى المجلس برهاناً على اتهامك أنك وددت تزويج بنتك بمثير هذه الفتنة .

فهلع قلب دندولو من الخوف وقال : ويحٌ لي ، إني لا بد

أن أصاب بما أصيب به رولاند وأبوه . فالتصق ألتياري به وقال له همساً : دندولو ، إني أريد بنتك !

وما أشد هذا التصريح بل ما أفظع هذا الغرام في تلك الساعة الهائلة والثورة ناشبة وليونور مغمي عليها بل إنها قد تكون في حالة خطرة وهو يحادث أباها بشأن زواجها !

فلزم دندولو الصمت ولكن عينيه كانتا تتكلمان عنه بلغة فهمها ألتياري فقال له :

حسناً ، فاذهبْ بابنتك إلى محل آمن وأنا أضمن لك السلامة من الأخطار بشرط أن تكون مسؤولاً لديّ عن بنتك . فظهرت على دندولو علائم التردد ولكنه أجال نظره بين الحاضرين فلم ير غير خناجر تلمع ووجوه تتجهم فأطرق برأسه وقال : سأكون مسؤولاً عنها .

ثم نظر إلى الفتاة نظرة فوز وجرّد حسامه وخرج وهو يصيح قائلاً : هلم بنا أيها الأسياد .. إتبعوني أيها الجنود ! فخرج الجميع في أثره وهم يصيحون: ليمت العصاة.. ليمت المتمردون.

*

أما ليونور فإنها صحت في تلك الساعة ووجدت نفسها بين ذراعي أبيها فقالت له : سر بي يا أبي إلى المنزل فلا أطيق البقاء لحظة في هذا المكان. قال : لقد أصبت يا ابنتي فلنهرب من هذا البيت الذي لم نلقَ فيه غير الشقاء . قالت : نعم نعم فأبعدني عنه جهد ما تستطيع .

فتأبط أبوهـــا ذراعها وسارت وإياه وأسنانها تصطك
فخرجت من ذلك المنزل الذي كانت تحسب نفسها فيه منذ بضع ساعات أسعد إمرأة في الوجود . ولكنها قبـــل أن تخرج من الباب الكبير لقيت أم رولاند راكضة إليها وهي تقول بلهجة الوالهة :

هلمي يا ابنتي فقد كنت خـــير كفوء له .. هلمي ننتقم له فإما ننتقم وإما نموت معاً . فنظرت إليها ليونور نظرات تائهة تشف عما خامر قلبها من اليأس وقالت لها : أنا ، أنا .. ابنتك؟

فظهر على والدة رولاند كأنها لم تسمع أو كأنها لم تفهم فإن هـــذه الأم المنكودة كانت تعتقد أن جميع الناس متوجعون لنكبتها ولا سيما خطيبة ولدها فإنها كانت واثقة من أنها تموت معها في سبيله . ولذلك لم تصدّق ما سمعته منها فأمسكت بيدها وقالت لها :

– تعالي يا ابنتي فإني وإياك نستطيع إثارة الشعب وهـدم السجن فلا تمضي ساعتان حتى تخلص رولاند.. خطيبك رولاند.

فضحكت الفتـــاة وكانت دموعها تسيل في الوقت نفسه وقالت : خطيبي ؟! أهو خطيبي ؟ إذهبي يـا سيدتي إلى الحظية أمباريا وسليها تخبرك من التي يحبها رولاند . ففهمت تلـك الأم المسكينة عند ذلك أن ليونور قد تخلت عن ولدها وقالت لهـا بلهجة قنوط :

– أأنت أيضاً ؟

ثم أفلتت من يدها وخرجت من الباب هائمـــة على وجهها

واختلطت بالثائرين ، فلما رأت ليونور ما كان من يأسها بسطت يديها وصاحت تقول بصوت مختنق : صبراً يا أماه فقد كذبت . قفي فإن قلبي لا يزال له مـا حييت .. صبراً فإني قادمة إليك لإنقاذه !

وعند ذلك همّت أن تندفع في أثرها ولكن أباها حال دونها فمادت إلى الإغماء . وهكذا أصيبت تلك العائلة في ساعة بأشد نكبات البشر وكل ذلك لطمع رجل وغيرة محظية .

النزول إلى جهنم

*

ولنعد الآن إلى رولاند ، فإنه حين ذهب مع فوسكاري سار تواً إلى مجلس العشرة . وقبل أن يصل إليه فتح فوسكاري باباً وقال لرولاند : ادخل إلى هنا وسندعوك بعد هنيهة . فتردد رولاند لحظة ثم دخل وكانت هذه المرة الأولى التي تردد فيها بحياته ، فلبث كل حياته نادماً يؤنّب نفسه لهذا التردد . ولمـا دخل أقفل الباب في أثره برفق فانقطعت الأصوات فشعر رولاند كأنه قد ابتعد مائة مرحلة عن الأرض المأهولة .

وقد نظر نظراً فاحصاً الى المكان الذي بات فيه فوجده

غرفة ضيقة ينفذ اليها نور ضعيف من مصباح معلق في السقف ، ولم يكن في هذه الغرفة شيء من الأثاث حتى أنها لم يكن فيها نافذة ينفذ منها النور ، فارتعش وقد شعر لفوره أنه وقع في الشرك المنصوب له . ولكنه تجلد ووقف ينتظر وهو شاخص الى ذلك الباب الذي دخل منه وفكره متجه الى الخارج أي الى الحياة ، وقد مرّت به الدقائق مرور الأجيال ، ثم مرّت به ساعة لم يجد بحياته أطول منها دون أن يأتيه أحد ، فجزع وحاول أن يفتح ذلك الباب ولكنه كان محكم الإقفال لا سبيل الى فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل يقول في نفسه : صبراً فلا بد أن يكون حدث حادث شغل القضاة عني ، ولا بد أن أكون مبالغاً بطول ما مرّ بي من الزمن .

وقد جعل عند ذلك يشغل نفسه بعدّ ما مرّ به من الدقائق وذلك بعدّ دقات قلبه ، ولكنه كان يشعر أن قلبه ينبض بسرعة بحيث لم يتمكن من ضبط الحساب . فاشتد به الجزع في ذلك المكان الضيق الذي كان يشبه القبر بضيقه وذلك السكون المخيف الذي كان مخيماً عليه ، فكتف يديه وعوّل على أن يصبر صبر الكرام .

ولكنه على ما عرف به من التجلد وقوة الجأش لم يتمكن من ضبط نفسه إلى أن جعل يذكر حبيبته فنسي موقفه واسترسل إلى مناجاتها ، وتمثلت له تلك الحديقة التي كانا يجلسان فيها فذكر آخر وقفة كانت لهما تحت الأرزة وكل ما دار بينهما من الحديث ،

حتى انه ذكر تغريد ذلك البلبل الشجي فكانت هذه المناجاة تشغله عما هو فيه .

ولم ينتبه لنفسه إلا حينما رأى أن ذلك المصباح المعلق بالسقف قد انطفأ فجأة وفتح الباب ، فرأى رولاند جسماً ضخماً يشبه حيواناً هائلاً بل خيّل له أنه يرى كثيراً من تلك الحيوانات الضارية ، ولم تكن تلك الحيوانات غير جنود مدرعة بالفولاذ وفي أيديها الحراب المسنونة .

فوقف رولاند في البدء منذهلاً في مكانه ثم هاج به الغضب فشتم شتماً قبيحاً وهجم على اولئك الجنود ، ولكنه لم يكد أن يهجم حتى صاح صيحة وارتدّ عن الجنود وهو دامي اليدين .

وكان عدد هؤلاء الجنود عشرين رجلاً وكلهم قد لبسوا خوذ الحديد في رؤوسهم والدروع في صدورهم وأرجلهم ، فجعلوا يتقدمون الى رولاند ببطء دون أن يقولوا كلمة ، وقد انقسموا الى أربعة أقسام وبيد كل منهم حربة مسنونة من جانبيها كالخنجر ، فأحدقوا به وصوّب كل منهم حربته اليه فكانوا يشبهون بمجموعهم ذلك الحيوان الهائل الذي مثله يوحنا اللاهوتي برؤياه وكانت حرابهم تشبه ألسنة الأفاعي .

وسكت رولاند لسكوتهم إذ لم يجد كلاماً يقوله ولم يجد من يصغي اليه . ولكنه كان من حين الى حين يحاول القبض على الحراب الدانية منه فيرتدّ عنها بجرح جديد ويتراجع منذعراً وهو يزبد من الغيظ .

وما زال يتراجع حتى بلغ الى الجدار وهو يعتقد أنه سيموت

هناك طعناً بتلك الحراب .

ولكنه حين استند الى ذلك الجدار شعر أنه انفتح وشعر أيضاً أن الحراب ما زالت تطارده وأنها قد بلغت الى عنقه ، فتراجع ودخل في رواق مظلم . ودخل اولئك الجنود في أثره الى ذلك الرواق وجعلوا يطاردونه بنفس الطريقة المتقدمة أي ببطء وسكينة دون أن يقولوا له كلمة أو يجيبوه على ما يقول .

فشعر المنكود أنه سيصاب بالجنون . ولم يمنعه عن الهجوم عليهم غير المحافظة بالسليقة على الحياة ، فإنه كان يعلم يقيناً أنه إذا هجم عليهم لا يلقى غير الموت من تلك الحراب المسنونة الحدّين .

وقد كان يسير الى الوراء وهو لا يعلم أين يسير ، وفي كل حين تعلق يده بحربة ويُصاب بجرح حتى انتهى الى السلم فنزل منه فدفعته الحراب الى رواق آخر أشد ظلاماً وضيقاً من الرواق السابق ، الى أن انتهى الى قبة عالية مضاءة فعرف المكان الذي هو فيه وتنهّد تنهّد القانطين وقال :

– أواه ! إنني في جسر التنهدات !

ذلك أنه علم أخيراً الى أين يريدون الذهاب به وعرف الى أين تؤدي تلك الطريق الجهنمية .

وعند ذلك دفعه الجنود حتى أدخلوه الى القبة وبلغ الى جسر التنهدات . وللفور ظهر جنود آخرون من الرواق فوجد رولاند نفسه بين الجنود وفي وسط الجسر وقد أحدقت به الحراب ووضعت في صدره ، فدفعوه الى مكان ضيق مبني

بالحجارة ، وهناك وضعت القيود الثقيلة في يديه ورجليه وعنقه وصدره بحيث لم يستطع أن يأتي بحركة .

ولما أتمّ اولئك الجنود مهمتهم الهائلة انصرفوا ساكتين وتواروا عن الأنظار .

فوقف رولاند ينظر الى ما حواليه وقد كاد الذعر يضلّ صوابه ، فرأى ذلك الكرسي الحجري الذي يُجلسون عليه مَن يحكمون عليهم ساعة التنفيذ . وهم لا يقيمونهم على ذلك الكرسي لقتلهم بل لتنفيذ عقاب أشد هولاً من القتل سيقف عليه القرّاء في حينه .

وبعد حين رأى رولاند ثلة من الجنود قادمة من أطراف الجسر فتقدموا حتى وصلوا الى ذلك الكرسي ، كرسي العذاب ، وهناك أجلسوا رجلاً جاؤوا به مغلول اليدين والرجلين وقد غُطي رأسه بغطاء أسود حجب وجهه عن الأبصار ، وقد أجلسوه فوق هذا الكرسي وأحكموا الوثاق ثم وقفوا وراءه كي يدعوا رولاند ينظر ما يفعلون . وعند ذلك صاح أحدهم قائلاً :

– إرفعوا الغطاء عن رأسه .

فرفع الجلاد الغطاء الأسود وصاح رولاند صيحة هائلة تمزق بها صدره وقال :

– أبي ... أبي ... إنه أبي !

وقد نسي رولاند حين رأى أباه في هذا الموقف أنه مقيّد مثله فبذل جهداً لا يبذله البشر كي يتخلص من قيوده حتى أن عروق يديه وصدغيه نفرت وكادت تتقطع .

ولكن جهده ذهب عبثاً فسقط على الأرض خـائر القوى واهن العزم . وكذلك كانديانو قد رأى ولده فأن" أنيناً لا يصفه قلم ولبث كل" من الأب والابن ينظر الى الآخر الى نهـاية الحادثة الهائلة وكل" منهما يود"ع الآخر بكلمات تقطع القلوب من الإشفاق.

وبعد هنيهة سمع صوت فوسكاري يقول : يا كانديانو ، إن المحكمة العـادلة رأفت بك وعفت عن قتلك . فارتعش رولاند وجعل ينظر الى زعيم المفتشين . أما والد رولاند فـإنه أجاب فوسكاري قائلا :

– بأي حق تحكم علي" هذه المحكمة العادلة دون أن تحاكمني وتسمع أقوالي ؟ أجابه فوسكاري قائلا :

– إن المحكـمة تعلم من أمرك فوق ما تعلمه أنت ، فتذاكر أعضاؤها بشأنك وحكموا عليك وقرروا الإبقـاء على حياتك . ولكن المجلس رأى أنه لا بد له من اتخاذ الاحتياطات اللازمة كي لا يدع لك سبيلا للعودة الى مـا كنت عليه فلا تستطيع أن تؤذي الجمهورية بشيء بعد الآن .

قال : إني لا أفهم ما تقول . فإنكم اجتمعتم بالسر كالجبناء واتفقتم على إلقائي في السجون المظلمة التي لا أخرج منها في قيد الحياة. فافعلوا ما تشاؤون ولكن احذروا لأنفسكم فإذا نجوتم من انتقام الناس لا تنجون من غضب الله فإن الأرض والسماء قد أنفتا مظالمكم . وبعـد ، فما الذي تلومونني فيه ؟ ألأني احترمت حرية الشعب ولم أوافقكم في تضحية هـذا الشعب المظلوم على هيا كل أطماعكم وأغراضكم ؟

ولكن لا بأس فاصنعوا بي ما أنتم صانعون ، أما ولدي فأي ذنب جنـاه وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر بعد ؟ فإذا بقي في قلوبكم ذرّة من عطف الإنسان فاشفقوا على صبـاه وارحموا خطيئته تلك الفتاة النبيلة التي تبكيه . هذا كل ما ألتمسه منكم له إذ لا ألتمس شيئاً لنفسي ، وعلى هـذا الشرط أوافق بملء الرضى على أن أصرف حياتي سجيناً في آبارکم العميقة المظلمة .

فأجابه فوسكاري قائلا : كانديانو ، إنك بعـد ساعة تصبح حراً .

فصاح رولاند صيحة فرح ونظر الى أبيه والدموع تجول في عينيه وقال :

– أبي ، إنك ستصبح حراً بعد ساعة فليجزِ الله فوسكاري خيراً .

فابتسم رئيس مجلس التفتيش دون أن يجيب . أمـا والد رولاند فإنه ارتعش وقال :

– كلا إنهم لا يفعلون ذلك... كلا إنهم لا يُقدمون على هذا الأمر الفظيع .

ذلك لأن المنكود كان يعلم معنى هـذه « الحرية » التي يُنعم بها مجلس العشرة ويمنعونه بها عن إيذاء الجمهورية .

أما فوسكاري فإنه التفت الى الجلاد وقال له : أيها الجلاد ، إفعل واجباتك . فاضطرب رولاند وقال في نفسه : رباه ، أي شأن بقي للجلاد ما زالوا يريدون إطلاق سراح أبي ؟

ثم صاح صيحة منكرة وقال : ويحكم ماذا تصنعون ؟ رباه

ما هــذا الأمر الهائل ؟ رحماكم اشفقوا على أبي ! يا ويلكم من الموقف الأخير ! إلينا .. إلينا .. كلا ، كلا .. العفو .. العفو ، الرحمة .

فقال له أبوه بصوت يتهدج : رولاند ، رولاند ، يا بني ، لا تنظر .

ولكن رولاند لم يمتثل لأبيه ولبث ينظر فرأى .. يا ويلهم ! إنه رأى كل شيء ... إنه رأى ، وقد وقف شعر رأسه وسال عرق النزع من جبينه ، كل ذلك العقاب الى النهاية !

وذلك أنه حين أمر فوسكاري الجلاد ذلك الأمر الهائل دنا الجلاد من ذلك الشيخ ووضع على وجهه قناعاً من المعدن ، وكان في أعلى ذلك القناع ، أي في المكان الذي يقابل العينين ، رأسان حادّان من الفولاذ . فوضع الجلاد يده اليسرى على رأس والد رولاند كي يسنده ، وبينما كان رولاند يلتمس العفو عن أبيه ضغط ذلك الجلاد بيده اليمنى على القنــاع الحديدي فنشب الفولاذ في عيني ذلك الشيخ المنكود .

وعنــد ذلك سمع صوت شهيق وصوت أنين . أما الشهيق فكان من رولاند إذ أغمي عليه . وأما الأنين فكان من أبيه إذ سُملت عينــاه وبات أعمى لا يستطيع إيذاء تلك الجمهورية العاتية . وقد أجريت هــذه العملية بمهارة بحيث لم يَسِلْ من العينين غير القليل من الدماء . ولكن البؤبؤين اللذين نشب فيهما الفولاذ بقيا منفتحين فكان منظرهما هائلا .

وقد كاد هذا الشيخ المسكين يجنُّ من ألمه ، فجعل يسير في

هذه الغرفة فيعثر بكل ما فيها ولا يقف لألمه واضطرابه ، إلى أن أمسك به اثنان من الجنود وخرجا به من ذلك المكان المخيف الى أحد الأرصفة .

وكان هناك قارب كبير ينتظر فنقلا الأعمى اليه واجتازا به مسافة طويلة على ذلك القارب ، حتى إذا وصلا به الى الشاطىء كانت مركبة تنتظر هناك فنقلاه اليها وسارت به تلك المركبة تنهب الأرض ساعات طويــلة حتى وصلت الى مدخل قرية فوقفت. وعند ذلك شعر كانديانو أنهم أنزلوه من المركبة وأنهم علقوا في رقبته كيساً ووضعوا عصا في يده .

ثم سمع صوت رجل يقول له : إنك تجد يا سيدي في هذا الكيس خبزاً وعشرة ريالات لنفقاتك الأولية . وأنت الآن في مدخل قرية فادخل اليها وستجد فيها دون شك من أهل المروءة والإحسان مَن ينشَط الى العنــاية بك ، فاذهب يا سيدي ، واستعن بالله .

وعند ذلك عادت المركبة بالجنديين ، فوقف الشيخ التعس حائراً والهاً يصغي الى صوت المركبة إلى أن انقطع الصوت ، فأطرق برأسه الى الأرض وجعلت الدموع تسيل من عينيه اللتين لا نظر فيهما .

*

أما رولاند فقد سقط مغمياً عليه كما تقدم ، حين رأى تنفيذ العقاب الهائل بأبيه ، وقد صبر فوسكاري برجاله إلى أن استفاق من إغمائه فناداه قائلاً :

– رولاند كانديانو ، أتسمعني ؟

فقال رولاند : مَن هذا الذي يدعونني ؟ أهذا أنت يا أبي ؟

قال : كلا يا رولاند، بل أنا فوسكاري رئيس مجلس التفتيش وقد أتيت لأبلغك قرار مجلس العشرة فأصغِ إليّ . فأصيب رولاند بذهول وتمثلت له ليونور فابتسم وقال : انظر يا أبي إلى خطيبتي فهل ترى أجمل منها ؟ فقال فوسكاري :

– رولاند ، إن الثورة التي أثرتها بالإشتراك مع أبيك قد أطفئت جذوتها بهمة رجالنا وبفضل الله ، وكان من العدل أن تعاقب بمثل ما عوقب به أبوك غير أن المجلس قد عفا عنك بإلحاح ألتياري واكتفى بأن يحكم عليك بالسجن المؤبد .

فظهر على رولاند كأنه لم يفهم كلام فوسكاري وجعل يلعب بحديد قيوده وقد بدت عليه علائم الإنذهال فكان كالأطفال . فقال فوسكاري لرجاله : سيروا به . فقالوا : يجب أن نبقي عليه هذه القيود ؟ قال : كلا ، لا فائدة من ذلك .

– في أيّ سجن تريد أن تضعه ؟

– في السجن السابع عشر .

وكانت قلوب هؤلاء الجنود فظة كأنها قدّت من الحجر الصلد . غير أنهم لم يتمالكوا عن الارتعاش حين عرفوا الموضع الذي سيسجن فيه رولاند . وعند ذلك فكوا قيوده وساروا به دون أن يدافع أو يفوه بكلمة . غير أنه حين اجتازوا جسر التنهدات وبلغوا به إلى السجون الكائنة في الطبقة الثالثة تحت الأرض ارتجف وقال : ما هذا البرد الشديد ؟

فلم يردوا عليه وجعلوا ينزلون به فكلما نزلوا طبقة تألم وشكا البرد فلم يحفلوا بشكواه وواصلوا النزول فإنهم ألِفوا جميع أنواع التعذيب الإنساني فأغلقت أبواب الرحمة في قلوبهم . وكانوا كلما توغلوا في النزول اشتد البرد وكثرت روائح العفونة إلى أن بلغوا المكان الذي يسيرون إليه فأفلتوا ذراعيه وانصرفوا ، فسمع رولاند صوت إقفال باب عظيم من الحديد وكانت هذه البئر التي نزل إليها سجنه الرهيب الذي يدعونه السجن السابع عشر . وقد محي اسمه من سفر الأحياء وذهب صوابه فبات من المجانين بحيث لم يعد يتألم في نفسه ولا يشعر إلا بألمه الجسماني .

أما هذا السجن فقد كان بئراً متسعة بنيت جدرانها من الحجارة الضخمة وقد وضع فيها سرير من الحجارة ووضع بقربه إبريق وقطعة من الخبز الأسود . ولم يكن يسمع فيها غير هدير ماء الترعة الكبرى ولا سبيل لنفاذ النور إليها فإذا سمع السجين غير هدير الماء فإنما يسمع من حين إلى حين أنين الأسرى أمثاله المسجونين بجواره .

اللص

*

لقد تركنا أم رولاند مندفعة بين الجماهير بعد أن يئست من

خطيبة ولدها وقد اختلطت بالثائرين وجعلت تصيح صياحاً لا يسمعه أحد لشدة أصوات الثائرين ودويّ البنادق ، وقد سارت بالسليقة إلى حيث كانت تسمع الناس يتادون قائلين : « ليحيَ رولاند كانديانو » ، فلقيت هناك نحو عشرين رجلاً قد تمزّقت ملابسهم واسودت وجوههم من الغبـــار وهم يقاومون الجنود وبينهم رجل هائل الخلقة طويل القامة كان يظهر أنـــه زعيم أولئك الثائرين .

وفيما هو على ذلك دنا منه رجل اخترق إليه الجماهير وقال له : لم يبقَ فائدة من مواصلة الصياح فقد انتهى كل شيء ، وأخذ الناس يهربون من كل مكان ، فكفى يا سكالا برينو .

فنظر سكالا برينو إلى مـا حواليه نظرة دموية فرأى أن الجنود قـــد تغلبوا على الثائرين وأن الرجال يلقون أسلحتهم والنساء يصحن صياح الرعد فسأل الرجل الذي كلمه قائلاً :

– ماذا جرى لمولاي رولاند ؟ قال : كن مطمئناً يا سكالا برينو ، فقد نال بفضلك كل ما يريده .

– إذن يجب أن ننصرف ؟

– نعم دون شك .. ولكن انتظر قليلا ، أترى هذه المرأة التي تتقدم ؟

– نعم .

– أعرفتها ؟

– كلا .

– إني أعطيك غـداً مائة ريال إذا قتلتها . ولك الخيار بين

أن تقتلها بالخنجر أو تغرقها في الترعة .

فقال سكالا برينو في نفسه : إني تعودت قتل الرجل بعشرة ريالات وهذه إمرأة يدفعون لي اجرة قتلها مائة ريال ، فكيف لا أقبل ؟

وعند ذلك انقضّ على هـــذه المرأة وكانت سيلفيا والدة رولاند فضربهـــا على جبهتها فأغمي عليها ثم اختطفها بمساعدة رجاله وأسرع بها إلى قارب فوضعها فيه وسار بهـــا بغية قتلها وهو لا يعلم أنها والدة رولاند الذي كان يعتقد أنه يخدمه أجلّ خدمة بالهتاف له بين الجماهير ولا يعلم أنه قـــد قضى عليه القضاء المبرم بهذا الهتاف وأثبت عليه أنه مثير الفتنة .

وقد أخذت السكينة تعود تباعاً إلى المدينة وأخفت ظلمات الليل جثث القتلى في ساحة سانت مارك .

*

في هـــذه الليلة نفسها كان نور ينبعث من غرفة حقيرة على شاطىء البحيرات وذلـك في الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل أي في نفس الوقت الذي ألقي به رولاند في سجنه الهائل .

ففي هذه الغرفة الصغيرة كانت إمرأة نائمة على سرير حقير وقـــد عصبت جبهتها الدامية ، وفي مقدمة السرير فتاة لابسة ملابس تدل على أنها من عامة الناس تنظر إلى هذه المرأة نظرات إشفاق .

وفي إحـدى زوايا تلك الغرفة رجل عظيم الجثة كان متربعاً

فيها ينظر أيضاً إلى هـذه المرأة فقد كانت والدة رولاند وكانت
الفتاة تقيم في ذلك المنزل . أما الرجل فإنه كان سكالا برينو .
ولمّا بلغت الساعة الرابعة وانبثق الفجر قـام سكالا برينو إلى
المصباح فأطفأه وعند ذلك تحركت سيلفيا في سريرها فدنا اللص
منها ووقف مع الفتاة يتأملان وجهها ثم قال لها همساً :

— ماذا ترين يا جوانا ؟ فإن هذا الجرح الذي أصيبت بـه في
جبهتها غير خطر بل إنه سيندمل سريعاً وفوق ذلك فإن جراح
الرأس غير خطرة ولولا ذلك لكانت من أهـل المقابر . فهزت
الفتاة رأسها وقالت :

— ليست جراح الرأس الخطرة بـل جراح القلب ، فقد
أصيبت هذه المنكودة بجرح لا يندمل كما علمت من حديثها حين
كانت تهذي هذيان المحموم .

فارتعش سكالا برينو وحوّل نظره عنها ثم جعـل يمشي في
تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يتهدد ويتوعد بقبضتيه . وقـد
صحت أم رولاند لوقع خطواتـه فنادته وسألته أن يقترب منها
فامتثل اللص ودنا منهـا فقالت له : إني أعرفك فأنت الذي
أنقذتني ، والآن أسألك أن تتكلم وتخبرني بكل مـا جرى فإني
أحب أن أقف على كل شيء. فإنك أنت الذي أنقذتني حين أصبت
بتلك الضربة في جبهتي .

قال: هو ذاك يا سيدتي فاعلمي الآن ماذا جرى فإني لا أزال
أراك كما رأيتك في تلك الساعة وقد خرجت من القصر فكنت
هائلة حتى أني خفتك وأنا لم أخف أحداً في حياتي . ثم امتزجت

بنا وجعلت تقولين أقوالاً لا أزال أذكرها إلى الآن وأرتعش لها.
وقد جرى ذلك حـين بدأت الجنود تطلق بنادقها على الشعب
الثائر . وعند ذلـك هجم عليك رجال مسلحون بغية قتلك
فدافعت عنك وحملتك مع رجالي فجئت بك إلى هنا .

كان يقول هذا القول بصوت يضطرب لأنه كان يكذب
إذ لم يجد بداً من الكذب فقالت له : إذن لقد فـاز الجنود على
الشعب . قال : نعم يا سيدتي ، وقـد قتل مائة رجل في ساحة
سانت مارك وغرق مثلهم في الترعة الكبرى وجرح نحو مائـة
شخص وتفرق الناس وقد هلعت قلوبهم من الخوف فلم يعد يسمع
لهم حسّ . قالت : إذن لم يستطع أن يدخل إلى القصر ؟

— كلا يا سيدتي ، ولكن لماذا تفتكرين بهذه الامور ومَن
أنت يا سيدتي ؟ وأين منزلك فأنقلك اليه ؟ فقـالت له سيلفيا
كأنها لم تفهم كلامه: ولكن مَن الذي أثار هذه الثورة ؟ فأجابها
بصوت منخفض قائلا : لا أعلم يا سيدتي ، وكل ما أعلمه أنهم
أعطوني عشرين ريالاً وأعطوا كل واحد من رجالي ريالين كي
نصيح : « ليحيَ رولاند كانديانو » ونطلق بنادقنا في الهواء .
ولو علمت قصدهم لمّا امتثلت لهم. أتعلمين يا سيدتي ما يقولون ؟

— ماذا يقولون ؟

— إنهم يقولون وا أسفاه ، إن رولاند كانديانو لم يحكم عليه
ويسجن إلا بسبب هتافنا. فإذا كانت هذه الأقوال صادقة وكان
رولاند في السجن لا أجد عزاءً لنفسي بغير الموت .

— إن ذلك قد حدث يا بنيّ .

– كيف عرفت ذلك ؟

– عرفت ذلك لأني رأيتهم يقبضون عليه أمامي، أسمعت ؟ وقد عرفته لأني رأيت جميع أصدقائه قد تخلّوا عنه .. إذن أنت هو أيّها الشقي الذي تظاهرت بالثورة وهتفت له كي يتّهم بها . فانتظر .

وعند ذلك نهضت من سريرها وهي تزيد من الغيظ فتراجع اللص مذعوراً لِمَا رآه من غضبها وقال لها : ولكن مَن أنت يا سيدتي ؟ فمشت إليه وهي تقول : يا ويحكَ أنا أمه ...

فركع سكالا برينو وسجد أمامها حتى التصقت جبهته بالأرض وقال بصوت خنقته العبرات : أنت أمه وأنا الذي دعوتهم يقبضون عليه ؟! أقتليني يا سيدتي .. أقتليني فلا أطيق الحياة بعد الآن .

فوقفت أم رولاند مندهلة مما سمعت ورأت ونظر إليها اللص فقال : إعلمي يا سيدتي أني قتلت كثيراً من أكارم الناس بمهنتي فإن خنجري معدّ لنصرة العاجز أو الجبان الذي لا يستطيع الانتقام . وقد سرقت أيضاً ودخلت إلى القصور فنهبتها ، فإن القتل والسرقة مهنتي كما قلت لك ، غير أني في كل ما فعلت لم أشعر بأني ارتكبت جريمة غير الآن . فقالت له سيلفيا بلهجة جافية : أوضح ما تقول !

– إن ابنك .. سيدي رولاند .

– تكلم .

– لقد دفعوا إليّ مرة مالاً كي أقوده إلى كمين فحاربته

فانتصر عليّ وكان بوسعه أن يقتلني كما كان يفعل كل رجل سواه ولكنه لم يقتلني بل عفا عني .

– واأسفاه عليك يا ولدي النبيل !

– ومنذ ذلك العهد أثار في نفسي عواطف لم أكن أعرفها من قبل ، وليس ذلك لأنه صفح عني وأبقى على حياتي فلا قيمة للحياة عندي ، ولكنك لو سمعته يقول لي : « إنك لم تخف فعفوت عنك ! » لقد قال لي هذا القول دون احتقار أو كره وأنا ما تعوّدت أن أعامَل بغير الكره والاحتقار فغيّرت لهجتي وكلّ مناهجي وشعرت بأني أصبحت إنساناً بعد أن كنت شراً من الحيوانات الضارية .

ثم نهض وجعل يسير في الغرفة بأقدام مضطربة ويقول بصوت منقطع :

– ويحٌ لنفسي ! إني بدلاً من أن أكافئه عن إحسانه إليّ كنت السبب في القبض عليه .. نعم ، إني لم أكن عالماً بحقيقة ما فعلت ولكن كان يجب عليّ أن أعلم .. نعم هذه هي الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها في حياتي ولم أعدّ نفسي مجرماً من قبل فقد كنت من بني الآثام .

أقتليني يا سيدتي إذا راق لك فإني لا أستحق الإشفاق ! ما بالك ترددين ؟ إعلمي أني ارتكبت جناية أفظع من الجناية المتقدمة ، فإنك أنت والدة الذي صفح عني تتوهمين بأني حاولت إنقاذك ولكن الحقيقة هي أني أنا الذي هجمت عليك واختطفتك لأنهم وعدوني بأن يدفعوا لي مائة ريال إذا قتلتك .

– تقتلني أنا ؟

– نعم أنت والدة رولاند ! أعرفت مقدار جريمتي الآن ؟

– ولماذا لم تقتلني ؟

– لا أعلم . فإني حين اجتزت بك الترعة حاولت مراراً كثيرة أن ألقيك فيها ، وهنا في هذه الغرفة خطر لي أيضاً أن أقتلك ، ولكني لم أستطع فقد كنت مغمياً عليك وعيناك مطبقتان فوجدت بالهجوم عليك صعوبة لا أجدها بالهجوم على عشرة رجال مسلحين .. أرى أنك تفتكرين يا سيدتي وبماذا .. ألست تقولين في نفسك إني لص سفاك لا أستحق الرحمة ؟

– كلا ، بل إني مشفقة عليك !

– أنت تشفقين عليّ ؟

– بل أصفح عنك .

– رباه ! إنها تشفق عليّ وتعفو عني فإني نصبت الشرك لولدها فانتصر عليّ وعفا بعد المقدرة ، واستأجروني لقتل أمه فأشفقت عليّ وصفحت عني ، فكيف يصاب هؤلاء الناس بمثل ما أصيبوا به من النكبات ؟

أذكر مرة أني كنت على وشك الموت فجاءني كاهن فعرّفني وذكر لي أهوال جهنم فلم أخف . وبعد ذلك كنت أراقب السماء أحياناً راجياً أن أرى فيها وجه الله . فإذا كانت الأبالسة موجودة فكيف أبقت على أمثالي؟ وإذا كان الله على ما يصفون فكيف يدع مثل هؤلاء الناس يبكون ويشقون ويتعذبون ؟

كان يقول هذا القول ودموعه تسيل ولعلّ هذه أول مرة

بكى فيها مدة حياته . فدنت سيلفيا فأخذت يده وقالت: ماذا تُدعى ؟

– سكالا برينو .

– حسناً ، أتريد يا سكالا برينو أن تكفّر عن سيئاتك بإصلاح ما أفسدته ؟

– ماذا تريدين يا سيدتي ؟

– أريد أن تساعدني على إنقاذ ولدي .

– إني أسفك آخر نقطة من دمي في هذا السبيل .

– أتريد أن تكون لي إلى أن يطلق سراح رولاند ؟. أتريد أن تكون خاضعاً لكل إشارة تصدر مني ولكل كلمة تخرج من فمي فتقتل كل من أرشدك إلى قتله فلا تكون لنفسك بل تكون لي وتكون السلاح الهائل الذي أنتقم به ؟ تمعّن قبل أن تجيب لأني سأعهد إليك بمهمات هائلة .

فبسط اللص يده كأنه يحلف يميناً مقدسة وقال : إني منذ الآن آلة في يدك تديرينها كما تشائين بل إني عبدك الخاضع فعليك أن تأمري وعليّ أن أطيع . ومهما تكن أغراضك هائلة فإن إرادتي في تنفيذها ستكون أشدّ هولاً فقولي يا سيدتي بمن تريدين أن أبدأ فإني عبدك منذ الآن .

فأجابته أم رولاند بصوت أبحّ قائلة: أريد أن تبدأ بليونور دندولو .

*

كانت ليونور في خلال الثمانية الأيام الأولى للقبض على رولاند قد أصيبت بحمّى شديدة وقفت فيها بين الموت والحياة إلى أن تغلّب صباها على تلك الحمى ونجت من أخطار الموت فكان أبوها يسهر عليها كلّ ليلة وهو يخاف في كل حين أن يفاجئها الموت .

وإن أباها على شدة مطامعه كان يحبها حباً عظيماً فيبكي لنكبتها بكاءً صادقاً ويعذّب عذاب أبٍ حنون يرى ولده صريعاً بين يديه ولا يستطيع إنقاذه من الموت ولو بافتدائه بنفسه ، فلما نجت ابنته من الخطر فرح فرحاً لا تصفه الأقلام .

ولم يزره ألتياري في خلال هذا الأسبوع بل كان يكتفي بالطواف حول منزله في جزيرة أوليفيو ويطرق بابه عشرين مرة في النهار والليل فيسأل عن صحة الفتاة فيعود قانطاً أو راجياً حسب ما يعلمه من أنبائها .

فلما وثق دندولو من سلامة ابنته عادت إليه مطامعه فقال في نفسه : إن ليونور لا بدّ لها أن تنسى مع الأيام حادثتها الماضية وتعود إلى الحب الذي يدفعها صباها إليه فأجعل هذا الحب مفتاح ثروتي .

ومضى على ذلك شهران كانت ليونور فيها بدور النقاهة

تجلس كل ليلة تحت تلك الأرزة الكبرى في حديقة منزل أبيها ولا تؤثر مجلساً على هذا المجلس .

ولم تكن تذرف دمعة ولكنها كانت دائمة التفكير فإذا التقت بأبيها حاولت أن تصرّح عما تفتكر به ولكنها لم تكن تجسر . إلى أن كانت جالسة معه ليلة وقد ملأ الهمّ قلبها حتى لم تعد تطيق احتماله فسألها أبوها حسب عادته قائلاً : بماذا تفتكرين يا ابنتي؟ فترددت هنيهة ثم قالت؟ أبي، إني أفتكر به وأحب أن أعرف ما جرى لتلك الأسرة فإن ذلك يلطّف أحزاني . قال: سلي يا ابنتي ما تشائين .

— ماذا جرى لأبيه ؟

— إنه برح فينيسيا ولم يعلم أحد أمره .

— وأمه ؟

— سافرت أيضاً .

فترددت أيضاً هنيهة ثم قالت بصوت خافت :

— وهو ؟

— رولاند كانديانو ؟

فارتعشت ليونور لهذا الاسم واصفرّ وجهها فقد خيّل لها حين سماعه أن رولاند قد ظهر لها وأنه لم يحدث شيء لها وأنها تنبّهت من حلم .

وعند ذلك دقت الساعة مشيرة إلى انتصاف الليل فسمعت تلك الدقات المتوالية وهي مطرقة الرأس وقالت : هوذا نصف الليل، هي ذي تلك الساعة التي كان يتركني فيها ليذهب إليها..

إلى تلك التي يحبها ويغار عليها !

فلما سمع أبوها قولها رأى أنه قد دنت الساعة التي يجب أن يتم فيها تلك الخطة التي رسمها له ألتياري فقال : لا تفتكري يا ابنتي بهذا الرجل فقد برح فينيسيا. وقد سافر هذا العقوق الناكر الجميل دون أن يراك ودون أن يرى ألتياري، ذلك الرجل النبيل الذي دافع عنه أجمل دفاع في مجلس العشرة حتى حملهم على العفو عنه وإطلاق سراحه . فانسي يا ابنتي هذا الرجل وأمه وأباه فما هم من أهل الخير والصلاح .

قالت : أهو سافر أيضاً ؟ قال : نعم، فإنه حين فشل بإثارة الفتنة قُبض عليه ولم تكوني قد أصبحت امرأته بعد بفضل الله الذي أشكره ما حييت لظهور مؤامرة هذا الرجل قبل فوات الأوان. وبعد أسره بثلاثة أيام تمكن ألتياري من إطلاق سراحه بعد أن أقسم يميناً محرجة أن لا يحاول الإساءة الى الجمهورية بشيء . وبعد أن أقسم هذه اليمين لا يعلم أحد مصيره الى الآن .

– إذن لقد سافر ؟

فمضى أبوها في حديثه فقال : ويقولون إن هذه المرأة التي أحبها محظية فاسدة الأخلاق وإنها هي التي أثارت في نفسه هذه المطامع فإنها رومانية ما جاءت الى فينيسيا كما يقال إلا للاستعانة بجمالها على إثارة الفتن فيها . وعلى الجملة فليس هو بمذنب ولا يجب أن تُلقى تبعة الجريمة إلا عليها فإن هذه المرأة ...

فقاطعته ليونور قائلة :

– بربك كفى ! ألا ترى أن كلامك يقطع قلبي ؟

ثم انقلب رأسها الى الوراء وأصيبت بنوبة عصبية كادت تقضي عليها . فهلع قلب أبيها من الخوف وحمل رأسها بين يديه وقد أشفق عليها إشفاقاً عظيماً وكاد يقول لها : عودي يا ابنتي الى رشدك فانه يعبدك ولا يحب سواك وإنه الآن في ظلمات السجن شهيد حبك ...

ولكنه قبل أن يقول لها هذا القول نظر وهي بين يديه فرأى ألتياري واقفاً أمامه وقد وضع إصبعه على فمه وجعل يتهدده بنظراته .

فأنَّ دندولو أنين الموجع وقال : ويحٌ لنفسي ، إني سائر في طريق الجريمة .

*

وفي اليوم التالي ظهر على ليونور وكأنها قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فانها لم تعد تشكو وانقطعت عن البكاء وعادت الى أعمالها البيتية ، ولم يرَها أحد بعد ذلك تجلس تحت الأرزة الكبرى ، ولم تعد تذكر رولاند ولا حوادث خطيبها ، فكانت تستقبل زوار أبيها حسب عادتها وبينهم ألتياري الذي كان يكثر تردده تِباعاً اليهم حتى بات يزورهم كل يوم .

الأم

*

تقدم لنا القول إن سيلفيا والدة رولاند قد اختلت بكالا

برينو ، وقد طالت هذه الخلوة مدة طويلة فكانت سيلفيا تتكلم بصوت منخفض وسكالا برينو يصغي اليها أتم الإصغاء ويجيب من حين الى حين بكلمة أو بإشارة .

وقد سمعنا تلك الأم تقول لذلك اللص إنه يجب أن نبدأ بالانتقام من ليونور ،ذلك لأنها باتت تكرهها في ذلك الحين كرهاً قاتلاً فانها كانت تعتقد أنه إذا تخلّت الأرض والسماء عن رولاند وهجره أصحابه ومريدوه ، فان خطيبته لا تتخلى عنه لما كانت تعلمه من تبادل الحب بينهما، فان رولاند لم يكن يقول جملة حتى تتخللها كلمة ليونور ، ولم يبحث في موضوع إلا كانت ليونور نقطة دائرة البحث فيه . وكذلك ليونور . فكيف استحال هذا الحب بعد نكبة رولاند؟

إذن لقد كانت كاذبة مخادعة أفاكة أحبته في أيام الرخاء وتخلّت عنه في ساعة الشدة !

ومن أين لتلك الأم المنكودة أن تعلم ما يجول في نفس تلك الفتاة الطاهرة؟ بل أين لها أن تعلم تلك المكيدة التي كادوها لولدها فاتهموه بحب تلك المومس ؟

ولذلك كانت كلما خطرت ليونور في بالها هاجت أحقادها عليها وتبيّن الكره في عينيها . وعندما قالت كل ما تريد قوله لسكالا برينو وأيقنت أنه فهم كل مقاصدها قالت له : إذهب وافعل كل ما قلته لك ، ولكن لا تضربها أنت فاني أحب أن تكون من يدي تلك الضربة القاضية . فاذهب وأحضرها إليّ فستبدأ بها . إذهب وعُد إليّ سريعاً بما سألتك أن تأتيني به من

الأنباء . قال : سأعود اليك بعد ساعتين بما تطلبين .

ثم تركها وانصرف . فأقامت أمّ رولاند في زاوية من الغرفة وغطت وجهها ورأسها بقناع كثيف كي تحجب عنها النور كأنها تريد أن تطابق بين الظلمات وظلمات نفسها القانطة . وبعد ساعتين لم يعد سكالا برينو كما وعد ، وحان الظهر دون أن يحضر . وعند ذلك دخلت اليها جوانا وقالت :

— ألا تريدين أن تأكلي قليلاً يا سيدتي ؟ قالت : أشكرك يا ابنتي فلا أجد شهية للطعام . قالت : إذن ألا تريدين أن أغيّر رباط جبهتك ؟ قالت : لا حاجة بي الى ذلك فانه لا يؤلمني .

فخرجت جوانا وهي تقول : مسكينة هذه المرأة فاني أذوب إشفاقاً عليها .

ومضى ذلك النهار دون أن يعود سكالا برينو ، ثم مضى اليوم التالي والذي تلاه وهو غائب . وقد صبرت سيلفيا أربعة أيام دون أن تعلم شيئاً من أخبار هذا الرجل ، فبدأ اليأس يخامر قلبها .

ولم تكن تفتكر في خلال هذه الأيام الأربعة إلا بالانتقام لولدها أو بإنقاذه . وكان خاطر الانتقام قد تغلّب عليها وهي معتمدة فيه على سكالا برينو ، فكانت تعدّ غيابه ضربة قاضية على أمانيها إذ لم يبقَ لها من الأعوان غير جوانا ، وماذا عسى تفيدها هذه الفتاة وهي لا تتجاوز أربعة عشر عاماً ؟

فبعد أن أطالت التفكير في وسائل الانتقام وأيقنت من عجزها عنه جعلت تبكي وجعل الانتقام يزول تباعاً من قلبها

ويحلُّ محله حبها لولدهـا حتى بات شغلها الشاغل ، وامّحى كل أثر للانتقام ولم تعد تفتكر إلا بوسائل إنقاذه .

ولكن أنّى لها ذلك وهي قد سمعت بأذنها خبر عزل زوجها وأنه لم يعد حاكم فينيسيا ، ورأت بعينيها أن النبلاء بجملتهم قد تخلّوا عن نصرتهم لخوفهم العاقبة بحيث لم يبقَ لها من معين غير الدموع والرجاء والاستعطاف .

ورأتها جوانا خارجة في صباح يوم من المنزل فقالت لها : الى أين تذهبين يا سيدتي ؟ فلم تجبها وأشارت لهـا إشارة استدلّت منها الفتاة على مبلغ يأسها وأنها لا تعود .

أما سيلفيا فإنها كانت بعـد ساعة قرب منزل فوسكاري رئيس مجلس التفتيش وقد وقفت هناك تنتظر قدوم هذا الرجل. فمضى النهـار دون أن تراه فلم تجد بداً من العودة في الليل الى تلك الغرفة الحقيرة عند الرصيف. فلما رأتها جوانا داخلة صاحت صيحة فرح ، ولكن سيلفيا لم تنتبه اليها لأنها كانت منشغلة بما هي فيه عن كل ما سواه في الوجود .

وفي اليوم التالي ذهبت أيضاً الى موضعها في الأمس عند منزل فوسكاري ، وكذلك في اليوم التالي بحيث باتت تبرح الغرفة كل يوم فتقيم خارجها كل النهار ولا تعود اليها إلا عند هبوط الليل .

وكان النـاس يرون تلك المرأة تقف كل يوم قرب منزل فوسكاري وهي مبرقعة بالسواد فيقتربون منها حتى إذا عرفوا أنها امرأة الدوج حاكم فينيسيا السابق ابتعدوا عنهـا خائفين ، لأن كل من يتودد لهذه العائلة المحكوم عليها يعتبر شريكاً لهـا

بالعصيان .

ولبثت على ذلك خمسة عشر يوماً الى أن أتيح لهـا أن ترى فوسكاري ، فتقدمت منه وقالت : فوسكاري ، إني أتيت اليك متوسلة . فأظهر فوسكاري علائم الضجر ، فضمّت يديها وقالت له : إني أتيتك ملتمسة فاسمع يا فوسكاري رجاء أمٍّ تتوسل اليك أن تردّ لها ولدها . فوسكاري ، إنك لست من أهل الشر وإنك قادر على إخراج ولدي من سجنه بكلمة تخرج من شفتيك . فأجابها بجفـاء : إن ولدك قد حكم عليه مجلس العشرة فلا أستطيع المداخلة بشأنه على الإطلاق .

ثم تركها وهو يحـاول أن يركب القارب ، فركضت اليه والهة حتى اضطرّ أن يقف بالرغم عمّا فطر عليه من القسوة . وعند ذلك قالت له كل ما يمكن أن تقوله أمٌّ في مثل موقفها من الكلام المؤثر الحنون ، حتى إذا فرغت من حديثهـا التفت فوسكاري الى جنديين كانا يصحبانه وقال لهما : أبعدا عني هذه المرأة ولا تدعاها بعد الآن تقرب من القصر .

فأبعدهـا الجنديان بمنتهى العنف بينما كان فوسكاري يرقب القارب ، فسارت تلك المنكودة وهي لا تعي ليأسها . وفي اليوم التالي نظرت صدفة في المرآة فرأت أن شعرها قد شاب بجملته وبات ناصع البياض وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها وشحب لونها بحيث لو رآها من كان يعرفها من قبلُ لما عرف أنها الدوجة سيلفيا امرأة الحاكم السابق ، تلك المرأة التي كانت تفتن النـاس بأدبها وكرم أخلاقها .

على أنها إذا كانت قد يئست من فوسكاري فلم تيأس بعد من أولئك النبلاء ذوي النفوذ ، فذهبت اليهم الواحد تلو الآخر فكان بعضهم يرفضون طلب مقابلتها وبعضهم يشيرون عليها بالخروج من فينيسيا . فلم تدع أحداً من اولئك الأعيان الذين كانوا يتزلفون اليها بالأمس حتى ذهبت اليه والتمست مساعدته فلم تظفر بمساعدة أحد .

وبينما كانت ذات ليلة تطوف باحثة عن مساعد جديد لقيت ذلك الرجل الذي دلّ عليها سكالا برينو يوم الثورة ودفع له مائة ريال كي يقتلها وهو بيبو . فلما رآها بيبو عرفها فنظر الى ما حواليه وقد خطر له أن يلقيها في الترعة ، ولكنه رأى رجلين يسيران الهوينا في الطريق فانثنى عن هذا العزم . أما سيلفيا فقد ذكرت أن هذا الرجل كان يتردد الى منزلها وقد أكل مراراً على مائدتها وكانت تعلم أنه من أصدقاء ولدها فدنت منه وحكت له أمرها ، حتى إذا فرغت من قص حكايتها تظاهر هذا المنافق بالحزن الشديد حتى لقد تظاهر أنه يمسح دموعه ثم قال لها بلهجة المشفق :

— إنك تعجبين يا سيدتي كيف أنك لم تجدي مَن يسعى لإنقاذ ولدك بين أصدقائه الكثيرين ، ولكنهم لم يمتنعوا عن ذلك لسبب وجيه . وأنا أعجب كيف أنهم لم يجسروا على إخبارك بهذا السبب ، أما أنا فإني رقيق الشعور وقد أثّر عليّ حزنك تأثيراً عظيماً حتى عزمت على إخبارك بالحقيقة ، لأنه لا يروق لي أن أرى امرأة في مقامك الرفيع تطوف على الأبواب وتتوسل

الى الناس وتسألهم رأفة مستحيلة . وإنما أقول « مستحيلة » يا سيدتي لأن ما يريده أصدقاء ولدك وما تريدينه أنت يستحيل على مجلس التفتيش وعلى مجلس العشرة تنفيذه .

قالت : أعرف ذلك وأأسفاه ! فإن الشرائع تحول دون تحقيق رجائي ، ولكن ...

فهزّ بيبو رأسه وقال : ليس هذا الذي أعنيه يا سيدتي .

قالت : إذن ماذا تعني ؟ قال : أعني يا سيدتي أنه لا يمكن إطلاق سراح الأموات !

فسقطت سيلفيا على ركبتيها وخرج من صدرها صوت يشبه صوت الحيوان عند الذبح ، إذ لم تستطع أن تقول كلمة أو تذرف دمعة .

ثم نهضت وسارت في ظلام الليل ، فكان الناس ينظرون اليها كما ينظرون الى الأشباح الخارجة من القبور . ومنذ ذلك الحين لم تعد تقف عند باب قصر رئيس المفتشين ولم يعد يراها النبلاء ولم يعرف أحد من الناس مصيرها ما خلا تلك الفتاة المدعوة جوانا .

الحقد

*

لقد دنا الزمن الذي يجب علينا أن نزيح الستار فيه عن مقاصد

ببو فنعلم كيف أنه يحقد على رولاند هذا الحقد ، وأي مأرب له
في وضع هذه الخطة التي قضت على رولاند وأسرته ، وكيف أنه
على ضعفه وهو في ذلك العهد راهبٌ بسيط تمكن من استخدام
مثل فوسكاري وألتياري وأمباريا للتنكيل برولاند .

ولأجل ذلك يكفي أن نسمع أقواله من فمه ، فإن هذا
الشقي بعد أن ضرب والدته سيلفيا هذه الضربة الأخيرة جعل
يحدّث نفسه فيقول :

إذن ، لقد تم لي الآن ما أريد . فإن المسيو رولاند سجين في
أعمق الآبار ، وهذا حقيقي فما أنا من الحالمين . وكذلك أبوه
الأبله ، فقد سملت عيناه ولم يعد يستطيع قضاء أمر . وهذه أمه
فقد سحقتُها سحقاً ، فباتت تلك العائلة ووجودها شبه العدم .
ويحٌ لهذا الأبله ألتياري ! إنه أراد أن يقتل رولاند بالخنجر
وكاد يفعل لولا أن تداخلت في أمره ودبّرت هذه المكيدة .
والآن يا سيدي رولاند كانديانو .. إنك على عمق ثلاثين قدماً
في جوف الأرض تتعذب كما عذّبتني بأقوالك عني ! أتذكر يا
سيدي رولاند حين كنت تقول « إن ببو يكلّفك كثيراً من
النفقات ؟ أتذكر حين كنت تجعلني هزءاً في عيون النساء إذ
كنت تنظم الأشعار في قبح وجهي كي تضحكهن عليّ ؟ نعم إني
قبيح المنظر وضيع النسب أحرق الأرض غيظاً حين أوازن بيني
وبينك ، ولكن هذا التهكم وهذا الهزء قد كلّفاك ما هو أعظم
من الحياة .

أتذكر حين كنت تقول : مسكين ببو ، إني أشفق عليه

فأدعوه إلى مائدتي كي أتسلى بمنظره وأحسن إليه بمالي فإني من
الأغنياء وهو فقير ، وأنا ابن حاكم فينيسيا وهو من عامة الشعب .
فلا بدع إذا تبرعت عليه بالصدقات ومتى ضجرت منه تخليت
عنه !

مهلاً يا سيدي رولاند فسترى ما يكون من ببو المسكين
حين أجمل في عيون النساء بعد قبحي ، وحين أتصدق على الناس
بعد أن كانوا يحسنون إليّ ، وحين يشير إليّ الجميع بالرهبة
والاحترام بعد أن كانوا يشيرون إليّ بالهزء كما علّمتهم .

مهلاً يا سيدي رولاند فستصلك أنبائي وأنت في جوف
الأرض حين أكون قد بلغت أعلى قمة من المجد .

ثم ضحك ضحكة هائلة وتوارى في جنح الظلام .

السجن السابع عشر

*

مضى على ذلك ثلاثة أشهر ورولاند لا يزال في سجنه الرهيب
وكان لا يزال ضائع الرشد بحيث أنه لم يكن يعلم أين هو ولا
ماذا أصابه من الكوارث . فقد كان مما رأى من نكبة أبيه
شبهَ حالم لا يزعجه شيء في ذلك السجن غير البرد حتى أنه ألف

هذا البرد تِباعاً فلم يعد يشعر به شعوره الأول. وفوق ذلك فإن حارس السجن رآه مرة يرتعد من البرد فأعطاه دثاراً فصار يلتف به كلما نام فوق سريره الحجري .

فبعد أن مضى ثلاثة أشهر شعر يوماً وهو يأكل أن صوابه قد عاد إليه فوضع يده على جبهته ثم ألقى قطعة الخبز التي كان يأكلها وقال : ما هذا الخبز العفن الجاف ؟ وقد نظر إلى ما حواليه فوقف فجأة ومشى بضع خطوات وهو يقول :

– ماذا أعمل هنا وأين أنا ؟

ولم يكن ذلك غير لحظة فعاوده الذهول وعاد إلى الأكل . غير أنه بعد بضعة أيام دخل السجان إليه وبحث في ذلك الظلام الحالك عن رولاند في سريره الحجري فلم يجده فنظر في جوانب تلك البئر بعينيه المعوّدتين على الظلمة فرأى بريق عينَي السجين ثم سمع منه زئيراً يشبه زئير الأسود ورآه قد وثب هاجماً عليه فأسرع وخرج من الباب وأحكم إقفاله وهو يقول : يظهر أنه قد عاد إلى الهياج بعد السكون !

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب وجده مقفلاً فجعل يضربه بيديه ورجليه ويحاول فتحه دون أن يستطيع ، فارتد صاخباً ساخطاً وهو يقول : ويحٌ لأولئك الجبناء ، إنهم اغتنموا فرصة إغمائي فحملوني إلى هذا السجن .

وقد عاد إليه كل صوابه في تلك الساعة فعرف بعد البحث أنه سجين في بئر ، وأنه في ذلك السجن الذي لم يخرج منه أحد حياً ، وأنه سيدفن في هذا القبر ولا يرى ليونور قبل الموت ولا

يرى أمه ولا يرى فينيسيا وتُرَعها وقواربها الخفيفة ، ولا يرى سماء إيطاليا الزرقاء !

عاد إليه كل صوابه فعرف تلك الحقيقة الهائلة وتمنّى أن لا يكون قد عاد إليه الصواب ، فأقام بقية ذلك اليوم وهو في أشد حالات الهياج يتمثل له موقفه فيثب الى الباب ويعود عنه دامي اليدين مفجوع الرأس واهي القوى فيستريح هنيهة ثم يعود الى ما كان عليه إذ لم يكن يريد التصديق أن مثله يكون في مثل هذا السجن .

وقد فعل ذلك عدة مرات حتى أيقن أن فتح الباب محال ، فعاد الى مجلسه الحجري ووضع رأسه بين يديه وجعل يتمعّن في أمره فانتبه بعد هنيهة الى أن شعره قد طال حتى بلغ كتفيه وأن أظافره قد طالت كثيراً وأن لحيته كادت تبلغ صدره وأن ثيابه قد بليت لكثرة احتكاكها بالحجارة ، ولم يكن رشده قد عاد اليه قبل ذلك اليوم فعلم بعد الإمعان أنه كان مدةً طويلة في حالة غير طبيعية .

وفي اليوم التالي دخل اليه السجّان وهو مسلح بخنجر طويل فرآه هادئاً مطرقاً مفكراً فقال في نفسه : لقد عادت اليه السكينة أو عاد اليه الذهول . وعند ذلك ناداه فلم يجبه . وكرر النداء ، فلما رآه لم يجب ترك له الخبز والماء وانصرف عنه وهو يتوجع لمصابه .

ومضى على ذلك شهر لقي رولاند في خلاله أشد ما يلقاه القانطون حتى أنه لقد خطر له أن يهدم جدران البئر عليه وعلى

من يحاوره ويحرسه كما فعل شمشون . ولكن أنّى له ذلك وقد
بُنيت هذه البئر على أمتن الدعائم ؟ فكان يهيج ثم يهدأ إلى أن
وهنت عزيمته وبدأ دور الانحطاط .

وقد خطر له بعد أن بقي على هذه الحالة ستة أشهر خاطرٌ
أعاد الى قلبه شيئاً من الرجاء ، وهو أن مجلس العشرة لم يحاكمه
لأنه كان مصاباً بالشذوذ في فكره ، فإذا تمكن من إقناع حرّاس
السجن بأن صوابه قد عاد اليه فلا بد للمجلس أن يحاكمه ويُطلق
سراحه لأنه ليس من المذنبين ولم يأتِ أمراً يستوجب السجن ،
لا سيما وأن له بين أعضاء المجلس أصدقاء مخلصين كالتياري !
فجعل منذ ذلك الحين يحادث كلّ سجّان يدخل اليه باللطف
والمجاملة حتى إنه كان يروي لهم النكات المضحكة فأنسوا به
وجعلوا يدخلون الى محبسه بالطعام بعد أن كانوا يُدخلونه من
نافذة صغيرة .

وقد دخل اليه أحد اولئك الحرّاس يوماً فقال له : أرى
أن السكينة قد عاودتك بعد ذلك الهياج . قال : نعم ، فقد
كنت مصاباً بنوبة تذهلني وقد ذهبت بحمد الله !

– إذن لقد وجبت مكافأتك !

فاتّقدت عينا رولاند ببارق من الرجاء وقال: بماذا تكافئوني
وكيف ؟

– بتعزية رجال الدين ... فقد أذن لأحد الكهنة أن يزورك
ويعزّيك عما أنت فيه .

– متى يحضر هذا الكاهن ؟

– في هذا اليوم ، وهي منّة لم ينلها سواك . فإن كثيرين من
المسجونين هنا يموتون دون أن يتلقوا بركات الكنيسة .

ثم تركه الحارس وانصرف ، وبعد هنيهة فُتح الباب ودخل
كاهن قد غطى رأسه فاستقبله رولاند بملء الارتياح وقال له :
أشكرك يا سيدي الكاهن لتفضلك بزيارتي بعد أن تخلى عني
الجميع . قال : لا تشكرني يا ابني بل اشكر الله .

– دع الله يا سيدي الآن حيث هو وحدثني عن الذين أحبهم.

– أيها المسكين ، أبلغ منك اليأس أن تنكر فضل الله ؟

– إن الله لا يهمّ بي الآن فلا يشغلك أني لا أهتمّ به ، وإذا
كان في صدرك قلب يخفق وفي عروقك دم إنسان فأجبني .

فقال له الكاهن بلهجة غريبة : لا شك يا ابني أنك تعذبت
كثيراً . فقال رولاند : نعم ، وكيف لا أتعذب وأنا أدفن حياً
في هذا القبر الذي أموت فيه كل يوم ألف ميتة ؟ فظهر على
الكاهن كأنه يلتهم كلام رولاند وقال له : يا ابني ، إني أرثي
لحالك . فارتعش رولاند لصوت هذا الكاهن كأنه قد سمعه من
قبل ولكنه لم يحفل بذلك فمضى في حديثه فقال :

– لعلك تشفق عليّ يا سيدي متى عرفت حقيقة أمري ،
فتصوّر يا سيدي أن أباك وأمك وخطيبتك وكل الذين تحبهم لا
يبعدون عنك غير بضعة أمتار وراء هذه الجدران المظلمة وأنك
تعلم أنهم يبكونك بدموع من الدماء ، ولا تستطيع أن تراهم ولا
أن يروك . وأفظع من كل ما لقيت أنهم ألقوني في هذا السجن
الرهيب دون أن أعلم السبب ودون أن يحاكموني ، فإذا أمكن

مثولي أمـام مجلس العشرة نجوت دون شك فإن لي بين أعضائه كثيراً من الأصدقاء مثل ألتياري ... وسواه .

– ألتياري ؟

– نعم . ألعلك تعرفه ، قل .

– كلا .

– لا بأس ، فإنك تذهب إليه وتخبره بمـا سمعت ورأيت أليس كذلك ؟ إنهم يعتقدون أني شاذ يا سيدي الكاهن وهـذا الذي منعهم دون شك عن محاكمتي . ولكنك أنت من رجال الله والمروءة وقد رأيت أني عاديّ بحيث تستطيع إخبارهم بأمري وأنهم يقدرون على محاكمتي .

– إطمئن يا سيدي فسأخبرهم .

فأسرع رولاند إلى يد الكاهن فقبّلها وقال له : ليبارككَ الله يا سيدي ، فقل لي اسمك .

– إني من خدم الله وهذا هو اسمي واطمئنّ يا ابني فسأبدأ اليوم فعل ما يجب فعله . وعند ذلك حاول الكاهن أن ينصرف فقال له رولاند : أتوسّل اليك يا أبي أن تمكث قليلاً فقد أعدت الى قلبي الرجاء .

– لم يأذنوا لي يا ابني إلا بدقائق معدودة وقد انقضت .

– أوّاه ! فإني كنت أريد ... وهنـا بُحّ صوته ولم يخرج الكلام من شفتيه ، فقال له الكاهن : ما الذي تريده يا بني ؟

– أريد أن تحدثني عن ليونور .

– لا أعرفها ، فإني كاهن بسيط .

– في أية كنيسة تخدم ؟

– في كنيسة سانت فورموز .

فصاح رولاند صيحة فرح وقال : إنهـا تقيم على مسافة خطوتين من هذه الكنيسة وهي ليونور ابنة دندولو .

– إذن سأذهب اليها ... وسأقول لهـا ... ولكن الوقت أزف وهذا السجّان قد أتى للبحث عني .

– متى تعود إليّ ؟ إنك تعود قريباً أليس كذلك ؟

– نعم سأعود اليك بعد بضعة أيام فتعرف مني كل ما تريد عرفانه . فأراد رولاند أن يقول له بعض كلمـات تشفُّ عن شكره ولكنه لم يجد كلمة يقولها فشكره بعينيه وأغنت هـذه النظرات عن ألف شكر .

أما هذا الكاهن فإنه حين خرج من الغرفة وصعد في السلم أزاح ذلك القناع عن رأسه فانكشف عن وجه بمبو وهو يبتسم ابتسام الأبالسة ويقول : لقد سمعتهم يقولون إن أشد ما يعذّب به الأسرى امتزاج الرجاء واليأس في قلوبهم .

نجاة دندولو

*

لندع الآن جهنم وساكنيها ولنصعد إلى عالم الأحياء فنرى ما

صنع الدهر بأبطال هذه الرواية الذين يتوق القرّاء الى معرفة أخبارهم .

مضى ثلاثة أعوام على هذه الثورة التي أخمد جذوتها جنود ألتياري وامّحت آثار أحزانها من النفوس ما خلا نفوس الذين قُتل لهم في هذه الثورة أب أو أخ أو حبيب ، فإنهم كانوا يرددون أخبار هذه النكبة همساً في الآذان .

وكان فوسكاري قد بلغ مراده فانتُخِب دوجاً بدلاً عن والد رولاند وحكم بإلقاء الرعب في القلوب عملاً بالقاعدة السياسية العقيمة المشهورة ، وهي إذا خيف الحاكم خيرٌ من أن يُحَبّ . وقد اشترك أيضاً بملء المهارة في الأحكام العليا مع ألتياري وسواه بحيث زاد نفوذه وقوته العسكرية .

أما بمبو فإنه ارتقى الى درجة كاهن ولبث على علاقته مع الدوج بحيث كان يخلو أكثر الأحيان خلوات سرية مع فوسكاري .

وأما أمباريا فإنها بعد أن قبضوا على رولاند وزجّوه في سجنه العميق برحت فينيسيا الى فلورنسا كما كانوا يقولون ، ثم عادت فجأة الى ذلك القصر الذي وهبها إياه دافيليا وعادت الى فتنة أهل فينيسيا بجمالها الفتان . ولكنها خصصت جانباً من ذلك القصر لإقامة فتاة فيه تبلغ من العمر زهاء اثني عشر عاماً. وكانت هذه الفتاة تشبه أمباريا شبهاً عجيباً كما أن أمباريا كانت تحبها بملء جوارحها . فهل نسيت أمباريا رولاند ؟ وهل ندمت على تلك الجريمة الهائلة التي دفعها اليها بمبو وغيرتها ؟ وما الذي

حملها على أن تعود الى فينيسيا ؟ ذلك ما سنبسطه الى القرّاء دون شك في مقامه .

*

ولقد مضت تلك الأعوام الثلاثة وغيّرت الأيام أحوالها وبدّلت شقاءها وأفراحها ودفع بعضها بعضاً كما تدفع موجة البحر موجة .

ففي إحدى ليالي شهر أيلول أتمّت ليونور أشغالها البيتية في منزلهم الكائن في جزيرة أوليفيو وجاءت الى أبيها كي تودّعه قبل الرقاد ، فأخذ دندولو يدها بين يديه وقال لها إجلسي قليلاً يا ابنتي بجانبي . فامتثلت ليونور لأبيها وجلست وهي غير عالمة بما سيقوله لها .

كانت ليونور لا تزال على جمالها الساحر ولم يرَها أحد منذ ذلك العهد قد تنهدت أو ذرفت دمعة أو استرسلت الى التفكير ، غير أن تلك الفتاة التي كانوا يلقبونها « عذراء الفقراء » كان يظهر للناس أنها اعتزلت الناس بجملتهم وعاشت عيشة راهبات الأديرة .

وجعل أبوها يتمعن في وجهها تمعناً خاصاً على غير عادته ويدها بين يديه فقال لها : ما ليدك باردة يا ابنتي ؟ قالت : ذلك لأن الطقس بارد في هذا العام كما يظهر .

فسكت أبوها وسكتت هي فإنها لم تكن تتكلم إلا حين يوجهون اليها السؤال . ثم قال لها : أتعلمين يا ابنتي بما أفتكر الآن ؟

– إني أنتظر يا أبي أن تقول لي .

– إني أفتكر أنك بلغت عشرين عاماً يا ليونور وهذا السن سن الزواج حسب عادتنا .

– إنك حادثتني يا أبي مراراً بشأن الزواج بألتياري ، ألست تريد الآن أيضاً أن تعود الى البحث في شأن هذا الزواج ؟ إذن لنبحث فيه إذا كنت تريد ، وأما أمر صباي فدعه الآن فليس لي شباب ولا كهولة ولنبحث في فوائدك الخاصة دون فوائدي .

– إنك مخطئة يا ابنتي ، فلا شاغل لي غير هنائك .

– إذا كان ذلك يا أبي فإن المشكلة سهل حلها، فإن هنائي الوحيد أن أقيم في هذا المنزل الذي ربيت فيه وأن أموت فيه حين تدنو ساعتي الأخيرة .

– إذن أنت لا تريدين الزواج من ألتياري ؟

– ولا بسواه يا أبي !

– أتأبين الزواج على الإطلاق ؟

– نعم !

– وإذا قلت لك إن سعادتي موقوفة على هذا الزواج ؟

– أنا أعلم يا أبي أنك أصبحت فقيراً وضعيفاً وأن ألتياري غني قوي وأنه يحبني وأنه اقترح عليك أن يشتريني بالثمن الذي تعينه مها غلا ، أليس كذلك يا أبي ؟

– ليونور ، إنك شديدة القسوة !

– لماذا تريد تضحيتي على مذبح أغراضك ؟ ولماذا لا تريد

أن تعيش كما نحن عائشان ؟ إنك شديد المطامع، ولكن لا تمسّ قلبي بيد مطامعك فإنك تسحقه سحق الزجاج .

– إنك مخطئة يا ابنتي ، فإني لا أريد تزويجك لتحقيق مطامعي بل لصيانة حياتي .

– حياتك ؟

– نعم حياتي! فاعلمي إذن الحقيقة الهائلة... إني متّهم منذ ثلاثة أعوام بأني من الثائرين ، وهم لم يُبقوا عليّ إلى الآن إلا بفضل ألتياريْ وبما بذله من الجهد في سبيل الدفاع عني . فإذا تزوجتِ به نجوتُ من كيده فلا يجسر أحد بعد ذلك على اتهامي . وإذا أبيتِ هذا الزواج قضي عليّ القضاء المبرم .

والآن فإن حرّيتي وحياتي بيدك ، وأنا لا أستشفع في ذلك قلبك فإني لا أعلم ما جرى لهذا القلب بل لا أعلم ما جرى لك حين أراك مقطبة الجبين تنظرين إليّ هذه النظرات القاسية وتكلمينني بهذا الجفاء . على أني لا أقول لك شيئاً فوق ما قلت، فإذا قبضوا عليّ بعد أسبوع وألقوني في إحدى تلك الآبار الهائلة واجتزتُ بدوري جسر التنهدات، تقول الناس : إن هذا الشيخ المنكود لم يقتله غير ابنته .

ثم خرج وهو يضطرب فلبثت ليونور جالسة على كرسيها وهي مصابة بأشد من اضطرابه .

وفي اليوم التالي لقيها أبوها لا تزال جالسة على نفس الكرسي الذي كانت عليه أمس وهي جامدة كالأصنام وقد بلغ منها اليأس أقصى حدوده . فدنا منها ولمس كتفها وقال : ليونور !

فتنهدت وقد انذهلت ذهولاً عظيماً لطلوع النهار فإنها أقامت كل ليلتها على ذلك الكرسي دون أن تنتبه . فلما رأت أباها واقفاً أمامها وهو يرتجف قالت له :

— قل لألتياري إني رضيت أن أكون إمرأته .

فصاح دندولو صيحة فرح عظيمة وأخذ يد ابنته وحاول أن يضمها إلى صدره، ولكن ليونور أفلتت منه وذهبت إلى غرفتها فأقفلت بابها من الداخل ومشت إلى سريرها . غير أنها لم تتمكن من الوصول إليه فسقطت على الأرض مغمياً عليها صريعة اليأس.

أهوال تحت البحر

*

انتظر رولاند عودة الكاهن مدة طويلة دون أن يعود فندم لأنه أبى أن يسمع عظاته الدينية وحسب أنه حقد عليه فآلى على نفسه أن يرضيه حين يعود . وقد أقام أسبوعين ينتظر وهو كل ما سمع وقع أقدام أسرع إلى الباب ووقف مصغياً .

وكان مثال ليونور لا يفارقه خلال هذه المدة فإنها كانت تتمثل له في كل سبيل فيناجيها وتناجيه كما كانا يفعلان حين خلوتها تحت تلك الأرزة الكبرى فيتعزّى بقربها الوهمي على ما

هو فيه . على أنه كان كل ما طالت مدة غياب الكاهن يشتدّ قلقه ويعود إلى ما كان عليه من اليأس ، إلى أن كبر عليه الأمر يوماً فسأل السجان قائلاً : أتعلم أيها الصديق كم مضى على زيارة ذلك الكاهن لي ؟ قال : نحو عام !

ثم أنّ أنيناً مزعجاً وانطرح على سريره الحجري ! فقال السجان في نفسه ، لقد عاد إلى اليأس ، ورجائي أن لا يعود إلى غضبه القديم فإنه لا يطاق !

وقد لقي هذا التعس المنكود أشد ما يلقاه أهل القنوط وعاد إلى العنف والغضب حتى انقطع السجان عن زيارته وجعل يحادثه من الشباك . وكان يشتد استياؤه حين يحضرون الطعام إذ يعلم يقيناً أنهم لا يريدون قتله وهو لا يريد غير الموت . ولم يكن يعيش في خلال هذا العذاب إلا بغرامه فإنه كان يذكر اسم ليونور ألف مرّة في اليوم ولا يرى في تلك الظلمات المحدقة به غير وجهها . وقد ساعده على احتمال هذه النكبات قوة أعضائه فقد كان يلقب برولاند القوي .

وفيما هو يجول يوماً في سجنه كما يجول الأسد في قفصه عثرت رجله بقطعة من الفخار فتذكر أنه مرّة في إبان غضبه كسر الإبريق الذي كان يحضره له السجان فأحضر السجان له بدلاً منه وترك بقايا الإبريق القديم . وقد جرحت هذه القطعة رجله إذ كان حافي القدمين فإن الحذاء الذي كان يلبسه يوم حفلة خطبته قد أخنت عليه الأيام كما أخنت على ملابسه، ولو لم يعطه السجان ذلك الدثار لمات من البرد دون شك . وتربّع رولاند على سريره

وجعل يمسح بدثاره الدم الذي سال من رجله .

وفيما هو على ذلك سمع صوت غناء فجعل يصغي إصغاء شديداً ، وارتاحت نفسه إلى ذلك الصوت لا لأنه صوت غناء بل لأنه صوت بشر وقد طال حنينه إلى صوت الناس . وعلم بعد الإصغاء أن هذا الصوت لم يكن واحداً بل كان جملة أصوات رخيمة نسائية فأيقن أنها أصوات نساء يتنزهن في قارب وهن ينشدن نشيداً غرامياً انكمشتْ له نفسه فإنه سمع هذا النشيد وفهم كلامه فعلم أنه قصيدة له كان قد نظمها قبل سجنه لخطيبته ليونور فانتشرت وذاعت بين الناس على كل شفة ولسان . واشتدّ به اليأس وجزع جزعاً شديداً فقال :

وأسفاه ! إني حين كنت حرّاً ونظمتُ تحت السماء المرصعة بالنجوم هذا الشعر الجميل الذي أوحاه إليّ الغرام أكان يدور في خَلَد أحد من الناس أني سأسمع هذا الشعر نفسه وأنا سجين على عمق ثلاثين قدماً من بطن الأرض !!

ويحٌ لهذه القصيدة فإنها بعد أن كانت صوت الحياة أصبحت لديّ صوت الموت ، فإن كل شيء في الوجود يحيا خارج هذا القبر أما أنا فأموت فيه !

وعند ذلك جعل يسير في تلك البئر ذهاباً وإياباً وهو لا يشعر بجرح رجله ويقول: لا بدّ لي من الخروج من هذا الضريح!

وكانت هذه أول مرّة خطر له فيها خاطر الفرار .

ولكنْ كيف يمكنه نزع هذا الحجر العظيم الذي ختموا به ضريحه ؟ فإن ذلك كان يبدو له مستحيلاً في بدء الأمر لأنه على

عمق ثلاثين قدماً في جوف الأرض وجدران البئر الموجود فيها كثيفة وباب سجنه من خشب السنديان المصفح بالحديد ومركز الحراس على مقربة من هذا الباب .

وجلس فوق سريره الحجري وتاه في مهامه التفكير وفيما هو على ذلك شعر بألم رجله قد عاوده فصاح صيحة فرح وأسرع إلى بقايا الإبريق المكسور فجمعها كلها وجاء بها فخبأها تحت سريره كأنها كنز عظيم لأن هذه البقايا المحدودة الأطراف كان يرجو أن تكون آلاته للخلاص .

*

ولم يبدأ لفوره بالعمل بل إنه جعل يفتكر بمشروعه العظيم بضعة أيام حتى استقر رأيه على أن النجاة ممكنة له بالصبر الطويل . وذلك أنه كان يعرف أحوال السجون ويعلم أن هذه البئر المقيم فيها مبنية تحت سطح البحر وأن الأمواج تلتطم في أعلاها فإذا انتزع حجراً من جدران البئر انكشف عن جدار آخر يتصل أعلاه بجسر التنهدات المشرف على البحر ، فلا يبقى عليه إلا أن يفتح هذا الباب ويتسلق ذلك الجدار ويثب منه إلى المياه من فوق الجسر فينجو .

إن المشروع كان سهلاً معقولاً ولكنْ أين له أن ينتزع هذا الحجر الضخم وليس لديه من الآلات غير أظافره وقطع الإبريق ؟ على أنه لم يقنط . وبدأ في اليوم التالي العمل فأخذ إحدى قطع الإبريق وجعل يزيح بها الطين اللاصق بالحجر .

وأقام على ذلك مدة طويلة وهو كلما أخرج شيئاً من التراب حمله وفرشه في سجنه وتحت سريره. وكان يخرج له مع التراب بعض قطع من الحجارة الصوانية الصلدة فيستخدمها للحفر بدلاً من قطع الإبريق .

ولكنه كان يعمل كالعامل في حلمه ، فإن ثخانة الحجر لم تكن تقل عن خمسة أقدام وهو يضطر إلى إخفاء التراب الذي كان يزيله وإخفاء صوت حفره عن الحراس .

وأما إخفاء التراب فقد تقدم لنا أنه كان يخفيه تحت سريره ويفرشه على الأرض . وأما إخفاء صوت الحفر فقد عمد فيه إلى الحيلة بإبعاد الحراس وذلك أنه كان يوهم حارسه أنه عاد إلى الجنون فإذا سمع وقع خطواته جعل يزمجر ويصيح مغضباً ناقماً حتى إذا دنا منه الحارس صاح به صيحة منكرة وهجم عليه هجوم المنتقم فلا يجد الحارس بداً من الفرار بحيث بات يضع له طعامه في النافذة ، وهو لا يحضر غير مرة في كل يومين بحيث أمن رولاند مراقبته وجعل يشتغل آمناً مطمئناً في مهمته الصعبة التي لا يخطر الإقدام عليها لأحد في بال .

ولا نطيل وصف ما لقيه هذا المنكود من العناء حرصاً على صبر القارىء . ولكننا نقول إنه بعد شغل ستة أعوام وكان معظمها عملاً إذ لم يكن ينام غير خمس ساعات في اليوم ، تمكن من نزع هذا الحجر فتنفّس الصعداء ومدّ رأسه من ذلك الباب الذي فتحه وهو يرجو أن يجد منه ما كان يطمع فيه .

ولكنه ، وا أسفاه ، لم يجد ذلك الجدار الذي كان يعدّه

طريق الخلاص ، بل وجد فوق ذلك الحجر الذي انتزعه حجراً آخر فعلم أنه سجن فوق سجنه وقبر آخر فوق قبره . فارتدّ قانطاً مصعوقاً لرجوعه بالخيبة بعد صبر ستة أعوام .

وأقام يومين وهو مطرق يفتكر بما قاساه من العناء وكيف أنه كان يغرس أظافره بالحجارة حتى تتكسر وتسيل دماؤه ، وكيف أنه مضطرّ إلى أن يعود إلى العمل أعواماً طويلة أيضاً ، وكيف غلط بحسابه وهو من العارفين بهندسة هذه السجون ، إلى غير ذلك من هذه الأفكار، فيشتدّ به اليأس حتى يعزم على الانتحار . ثم يعاوده الرجاء فيرجع عن عزمه وقد انحطت قواه . وقد تتمثل له ليونور فتشدّ قواه ويذكر أعداءه فيهيج في صدره الانتقام وتعود إلى نفسه العظيمة تلك الهمة الشماء .

وما زال على ذلك إلى أن خطر له أن يفتح ذلك السجن الجديد ويدخل إلى قبر آخر وليفعل الله ما يشاء ، فقد يكون ذلك القبر الجديد باباً للحرية وسبيلاً إلى الحياة .

وعند ذلك عاد إلى ذلك المنفرج الذي انكشف له حين أزال الحجر وتسلق أعلاه ، أي إلى ذلك السجن الجديد الذي ظهر له وأخذ يعالج أكبر حجر فيه إلى أن تمكن بعد شهرين من إزالة الحجر .

فتقلد بيده صوانة تشبه الخنجر ومدّ رأسه من ذلك المنفرج فظهر له رجل كان ينظر إليه نظرات تشف عن الرعب ، فرفع رولاند الحجر بكتفه وقد عزم على الدخول إلى هذا السجن الجديد فإما يَقتل أو يُقتل .

لقاء في أعماق الأرض

*

عندما رفع رولاند الحجر بكتفه دفعه إلى داخل السجن عند قدمي ذلك السجين . أما السجين فإنه لبث واقفاً في مكانه وقد أخذ منه الرعب فقال له رولاند بصوت أجشّ : من أنت؟ فلم يجبه الرجل لفوره و كانت هيئته تدل على التوحش ، فتمعن برولاند قليلاً ثم تنهّد تنهداً عميقاً وقال :

— سجين ؟

فبدت ملامح البشر على رولاند وجعل يتفرس بهذا الرجل الذي لم يكن قاضياً ولا جلاداً ولا سجاناً بل كان سجيناً مثله وقد يكون أيضاً ضحية مثله فقال له: كم بقي لك في هذا السجن؟ قال : لا أعلم .

فحنّ رولاند عليه وبسط له يده ولكن الرجل ابتعد مذعراً فقال له رولاند : إني سجين مثلك ، ولقد لقيت من الشقاء نفس ما لقيته ، فكيف لا تصافح تلك اليد التي أمدّها إليك وتقبل ذلك الإخاء الذي أعرضه عليك ؟ قال : أتعلم من أنا أيها الرجل الذي يطلب إخائي ؟ إني كنت من كبار المجرمين

الذين ترتعد لذكرهم الإنسانية ، فقد سرقت وقتلت وارتكبت جميع الآثام ، وعندما كنت من سكان الأرض كانت النساء تخيف أبناءها باسمي فيرتعدون كما يرتعدون لاسم إبليس ، بل كان حراس السجون أنفسهم يخافونني ويحسبونني وحشاً مفترساً فلا يدخلون إلى سجني إلا وهم مسلحون بخناجرهم . وعلى الجملة فقد كنت لصاً سفاكاً سفاحاً يهرب مني الناس أين كنت .

أما أنت فقد يكون لك من يبكيك خلافاً لي فلا أب لي ولا أمّ ولا أخ ولا عائلة ، فإذا نكبت وشقيت وجعت وبردت فلا أحد يحزن لحالي ويعلم أمري . وهذه يدي الملطخة بدم جرائمي فصافحها إذا كنت تجسر .

وعند ذلك بسط له يداً وتجف فصافحه رولاند وقد سالت دمعة من عينيه فقال له الرجل : إذن لم تخف مني ؟

— كلا ، بل أشفقت عليك !

— ولا ترفض موالاتي ؟

— إنك ترى .

— ومع ذلك فقد قلت لك إني من زعماء اللصوص .

— إنك سجين مثلي وسأحاول أن أعزّيك ، فإن وجودك وحده يعزّيني .

— اسكت ... اسكت فإن صوتك يؤثر بي أبلغ تأثير .

— مسكين ! ألعلك شقيت أكثر من شقائي ؟

— كلا ، بل لأنك تكلمني برفق وحنان !

ثم وضع رأسه بين يديه واسترسل الى البكاء فجعل رولاند

ينظر اليه ويقول في نفسه : كلا ! إنه لم يلقَ مثل شقائي إذ لا يزال في عينيه دموع ! ثم قال له :

– صبراً أيها الصديق ولا تجزع فقد تمكنت وحدي من نقب الأرض والوصول اليك ، فإذا كنا اثنين يشتغلان فقد نهتدي الى طريق الخلاص .

– ماذا تقول ؟

– أقول إننا إذا عملنا يداً واحدة فقد يتيسر لنا الخروج من هذا السجن .

– كيف ذلك ؟

فأخذه رولاند بيده وأراه ذلك المنفرج الذي حفره فاندهش الرجل وقال له : كيف توصلت الى ذلك ؟ قال : إني بدأت الحفر بقطعة إبريق محطم ثم بما كنت أجده بين التراب والأخشاب من الحجارة والمسامير ، فأنت ترى أن الأمر بسيط . فنظر اليه الرجل نظرة إعجاب ، ومضى رولاند في حديثه فقال : ولكني أخطأت في الحساب ، ولا بد لي من معاودة الحفر . فهزّ الرجل رأسه وقال له : إلى أين ترجو أن تصل بعد الحفر ؟

– إلى الترعة .

– ذلك محال .

فسال العرق البارد من جبين رولاند وقال : كيف تقول محال ؟ ألعلك عارف بهندسة السجن ؟

– أصغِ إليّ أيها الرفيق فإني لست هنا إلا منذ بضعة أيام .

– أين كنت قبل ذلك ؟

– كنت في سجن غير هذا يشرف على الترعة من نافذة حديدية فرأيت جميع الضواحي ومراي الدوج وجسر التنهدات والترعة . وأنا أيضاً خطر لي أن أحتال على حديد النافذة وألقي بنفسي الى الترعة من ذلك العلوّ ، ولكني رجعت بعد الإمعان عن هذا العزم .

– لماذا ؟... لماذا ؟

– لأن الحراس يحرسون الترعة دائماً فلا يكاد السجين يصل اليها حتى يُصلوه بنار بنادقهم .

– ولكن في الليل .

– وكذلك في الليل ، فإن الحراسة فيه تكون أشدّ . وقد راقبت ذلك حين دخولي الى السجن وعلمت أنهم يبالغون هذه المبالغة بالحراسة لحرصهم على رجل خطير مسجون ولخوفهم من فراره . فثِقْ أيها الرفيق أن من يدخل الى هذا السجن لا يخرج منه حياً .

فأيقن رولاند أنه هو ذلك السجين الخطير الذي يحرص عليه مجلس العشرة هذا الحرص . ومضى الرجل في حديثه فقال : ومع ذلك فلو سلمنا جدلاً أن الفرار ممكن فذلك لك لا لي .

– لماذا ؟

– لأنهم سيحكمون عليّ بالإعدام ، وأنت تعجب كيف أقول لك هذا القول بملء السكينة ، وذلك لأني أؤثر الموت ألف مرة على هذه الحياة الشقية . أما الآن فإن المجلس ملتئم والقضاة يتداولون بأمري وسيأتي السجان ويقول لي إن الجلاد ينتظرني .

– الجلاد ؟

– نعم ! فإني منذ خمسة عشر يوماً هاج غضبي على حارس سجني فضربته ضربة شديدة لم تقتله ولكنهم اعتبروا أني حاولت قتله فنقلوني الى هذا السجن وقالوا لي إنه معدّ للمحكوم عليهم بالإعدام .

– صبراً أيها الصديق وتشجّع فقد يبقون عليك .

– كلا ! فإنهم يقتلونني هذه المرة .

– كيف تقول هذه المرة ؟

– نعم ، فانهم عفوا عني يوم قبضوا عليّ في حين أنهم كانوا قد عيّنوا جائزة لمن يقتلني .

– إذن كيف صفحوا عنك ؟

– لأني خدمت مجلس العشرة كما يظهر خدمة جليلة ، ويا ويحي من هذه الخدمة ! فاني حين أفتكر بها أعتبر أنها أعظم جريمة ارتكبتها في حياتي !

– ما هي هذه الخدمة ؟

– أية فائدة من ذلك ؟ فقد قُضي الأمر وسأقتل دون شك .

– لا بأس ، فأرجو أن تخبرني لماذا تعدّ خدمتك لمجلس العشرة أعظم ذنب ارتكبته .

– لأنه بسبب هذه الخدمة أصيبت عائلة بأسرها بضربة قاضية وهي بريئة مما اتهمت به براءة الذئب من دم ابن يعقوب . ولكن دعني بالله أموت دون أن أحيي هذه التذكارات التي تذوب لها نفسي فقد أموت بسلام إذا تمكنت من نسيانها .

– ولكن أتوسل اليك أن تخبرني بكل ذلك .

– إذن ليكن ما تريد ، فقد أشفقت عليّ منذ ساعة فملت اليك وسمعت صوتك الحنون فبكيت ، وفوق ذلك فإن إساءتي إلى هذه العائلة لا يكفيها عقاب الموت وسأجعل تذكارها في ساعتي الأخيرة عقاباً أشد . فاعلم إذن أنه كان يوجد في فينيسيا عائلة سعيدة يحسدها الناس لهنائها ووجاهتها وكان أبو هذه العائلة الدوج ...

فارتعش رولاند وأصغى أتم الإصغاء ، فقال السجين :

– وكان للدوج والدوجة ولد شاب فتن الناس بأدبه وشعره وظرفه وقوته ودعة أخلاقه ، وقد أحبّ هذا الفتى فتاة نبيلة مثله وأحبته هي حب عبادة ... ولكن ما لي أراك تضطرب أيها الصديق وأنا لم أبدأ حكايتي بعد ؟

– امض في حديثك .

فوضع السجين إصبعه على فمه وقال له : اسكت . ثم أصغى هنيهة وقال : أسرع بالاختفاء فقد أتى حارس السجن.. ووثب رولاند إلى الحجر الذي نزعه ورفعه من موضعه ، ونزل وهو يقول : سأعود اليك .

وعند ذلك فُتح الباب ، وكان السجين قد بسط رداءه فوق الحجر كي لا يظهر منه أثر ، فدخل حارس السجن يصحبه اثنا عشر جندياً يتقدمهم قاض بالملابس الحمراء ، فدنا القاضي من السجين وقال له : قف واسمع تلاوة حكم مجلس العشرة .

فوقف السجين وتلا عليه القاضي صورة الحكم بسرعة عظيمة

ولكنه فهم أنهم حكموا عليه بقطع الرأس فقال :

– حسناً ، فمتى تريدون تنفيذ الحكم ؟

– كيف ذلك ؟ ألم تفهم ما تلوناه عليك ؟ إن المحكمة أذنت لك بالحياة إلى الغد كي تلتمس عفو الله ، فهل تريد أن نحضر لك كاهناً ؟

– ماذا أصنع بكاهنكم ؟

– إنا نرسله اليك فأصغ إلى صلواته والتمس منه عفو الله عنك .

– لا . أقسم بالله بل أقسم بالأبالسة أنه إذا وصل إليّ هـذا الكاهن خنقته وقتلته شر قتل .

وإنمـا رفض الكاهن لأنه تذكـّر مـا قاله له رولاند أنه سيعود اليه .

فقال له القاضي : ذلك إليك ، فمتْ أيها الشقي إذن موت الكلاب . وأنت أيها الجلاد إبدأ بواجباتك .

فدنا منه الجلاد عند ذلك وألبسه في رأسه كيساً أسود يصل إلى ركبتيه وهو كيس شفاف دون أن يغلّ يديه فانهم لا يفعلون ذلك إلا ساعة الإعدام. فارتعد السجين حين أحسّ بهذا الكيس ووقف بعد خروج الجميع من عنده مضطرباً قلقاً ، فانه على شدة توقه إلى الموت جزع منه حين شعر باقترابه ، فتنهّد تنهداً طويلاً وقال : أقُضي عليّ بالموت ؟

وذلك أنه لم يكن يخشى الموت حين كان باقياً له رجاء بالحياة فلما انقطع الرجاء ذهبت الجرأة واشتدّ الجزع وباتت تلك الحياة

التي كان يجدها شقية في السجن حياة غبطة وهنـاء في عينيه .

وجلس على سريره ووضع رأسه بين يديه وتاه في عالم الخيـال وظلمات اليأس . وفيما هو كذلك شعر أن يداً قـد وُضعت على كتفه فاهتزّ اهتزازاً عنيفاً والتفت فرأى رولاند فقـال له : أهذا أنت ؟

فوقف رولاند ينظر اليه نظرات تتقد فارتعش لهذه النظرات ونزع الكيس الذي ألبسه إياه الجلاد فطرحه في زاوية السجن وقال لرولاند : إنك ترى يا سيدي بأني سأموت .

– متى ؟

– غداً صباحاً .

وكان شديد الاضطراب كثير الهلع غير أن السكينة جعلت تعود اليه تباعاً .

فقـال له رولاند : إذن ستموت ؟ قال : نعم ، فلماذا تنظر إليّ هذه النظرات ؟ فلم يجبه رولاند على سؤاله وقـال له : إنك كنت بدأت بأن تقص عليّ حكاية . . .

– حكاية ؟

– نعم ، حكاية تلك العائلة التي كانت سعيدة والتي نُكبت وتفرّقت بسببك .

– نعم ، نعم .

– إن الأب سملوا عينيه ، أليس كذلك ؟ والأم ماتت من الحزن والولد زجّ في أعمـاق السجون ، وخطيبته . . . قل . . . ماذا جرى لخطيبته ؟

فذعر الرجل وقال له : أرى أنك عارف بأسرار هـــذه الحكاية فمن أنت ؟ نعم ، مَن أنت ؟

- بل قل أنت مَن تكون ؟

- أنا سكالا برينو اللص الشهير .

فجعل رولاند يبحث في ذاكرته وهو يردد اسم سكالا برينو ثم قال : ماذا تفيد الأسماء الآن ؟ فقل لي بماذا أساء اليك الدوج كانديانو فأعنت عليه مجلس العشرة حتى ضربه هـــذه الضربة ؟ وبمَ أساءت اليك امرأته سيلفيا وخطيبة ولده ليونور ؟ قل أيها الشقي ! وبماذا أسأت اليك أنا ؟ ثم قبض على يده وضغط عليها حتى أوشك أن يسحقها .

أما سكالا برينو فـــإنه كان ينظر إلى رولاند وهو يكلمه باندهال ، ثم تحوّل الإندهال إلى رعب ثم إلى يأس حتى إذا قال جملته الأخيرة شهق شهقة وسالت الدموع من عينيه وجثـا على ركبته وقرع الأرض بجبهته وهو يبكي وينتحب ويقول :

- لقد عرفتك الآن ! فأنت مولاي رولاند ! أوّاه ما أشد شقائي فإني لم أرَكَ إلا في ساعتي الأخيرة . فتأثر رولاند لبكائه وتحوّل غضبه إلى شفقة فقال له برفق : إنهض . قال : إني أرى يا مولاي من نبرات صوتك أنك تعفو عني أيضاً ، فلماذا خلق لك هذا القلب الكريم ؟ ولماذا لم تقتلني عنـــد جزيرة أوليفو حين غلبتني وأشهرت عليّ خنجرك ؟

فعرف رولاند عنـد ذلك سكالا برينو وذكر تلك الحادثة القديمة التي جرت له معه قبل حفلة خطبته بيوم ، فقـــال له :

أخبرني بكل شيء ولا تقل غير الحقيقة . قال : إن المرء لا يكذب يا مولاي في ساعة موته ، وفوق ذلك فإني أقسم لك أني ندمت وأن ندامتي كانت صادقة .

- أندمت حقيقة ؟

- نعم لقد ندمت بعد فوات الأوان ، وقد بدأ تاريخ توبتي حين قلت لي « إنك لم تخف ولذلك أعفو عنك » ، فلم أكن أودّ إلا أن أسفك دمي في سبيل خدمتك . ألا تذكر يا سيدي أني حاولت أن أكلمك ساعة عفوت عني وأبسط لك الحقيقـــة ، فأبيتَ سماعي ؟

فوضع رولاند يده على جبهته وقال : نعم ، لقـد ذكرت ، فماذا كنت تريد أن تقول لي ؟

- كنت أريد أن أقول لك إن المرأة التي أنقذتها ...

- الخطيبة ؟

- نعم ، إنها هي التي استأجرتنا كي نكمن لك ونقبض عليك دون أن نسيء اليك .

- أتمّ حديثك ...

- إن هذه المرأة أرادت دون شك أن تعلم كيف تنفذ أمرها فوقفت في موقفها . ورأى رجالي ما كان عليها من الحلى الثمينة فطمعوا بها وهجموا عليها فاستغاثت وأنت تعرف البقية . ولكن الذي لا تعرفه يا مولاي هو ما حدث بعد ذهابك ، أي في اليوم التالي وهو يوم خطبتك ، ألا تذكر ذلك اليوم ؟

فوضع رولاند يده على صدره كأنه خشي أن تنتزع هـــذه

الذكرى قلبه وقال : نعم أذكر . قال : إنه في تلك الليلة بعد أن ذهبتُ مع الحطبة لقيني رجل فقال لي : «إنك تدعى سكالا برينو وإنك محكوم عليك بالإعدام وقد وضعت الحكومة جائزة لمن يقتلك ، فهل تريد أن تنال عفواً تاماً وأن تكسب فوق ذلك مالاً كثيراً ؟ قلت : ماذا تريد أن أصنع مقابل ذلك ؟ قال : لا شيء سوى أن تذهب غداً إلى ساحة سانت مارك مع من تستطيع حشدهم من رجالك فتصيحوا بأعلى أصواتكم و ليحيَ رولاند كانديانو » . فقلت : إذا كنت لا تريد مني إلا أن أهتف لهذا الرجل فإني أهتف له كل حين ولو لم أكتسب شيئاً . قال : إذن لقد اتفقنا .

فقال له رولاند : من هو هذا الرجل ؟

– إني لم أعرفه يا مولاي .

– وماذا جرى بعد ذلك !

– إنه نقدني ما وعدني به من المال ثم قال لي : يحسن بكم غداً أن تحضروا مسلحين بالبنادق ، فإذا أقبل الجنود لصياحكم وحاولوا منعكم عن الهتاف فاستقبلوهم بإطلاق البنادق . قلت : إذن تريد أن تثير معركة ، وسأثيرها فإني أحب المعارك .

وعند ذلك هزّ سكالا برينو رأسه وبدت عليه علائم الحزن الشديد فقال : إن هذا الذنب ذنبي الوحيد يا سيدي ، فإن المعركة ثارت بين الشعب والجنود بفضل صياحي فتغلب الجند على الشعب . وفي اليوم التالي اتصل بنا نبأ القبض عليك ... ولكن ليس هذا كل شيء .

فمسح رولاند العرق عن جبينه وقال : أتمّ حديثك . قال : إنه في نفس تلك الليلة التي نشبتْ فيها المعركة جاءني الرجل نفسه الذي أغراني بالهتاف لـك فدلّني على إمرأة وقال لي : « اختطف هذه المرأة واقتلها » .

فاختطفتُ المرأة يا مولاي ولكني لم أقتلها لسبب لا أعلمه وما كان أشدّ سروري حين عرفتُ من هي .

– من هي ؟

– إنها كانت أمك يا مولاي .

– أمي ؟!

– نعم أمك ! فإنها كانت قد جاءت إلى ساحة سانت مارك كي تحض الشعب على إنقاذك ... .

فشهق رولاند شهقة كادت تودي بحياته وقال: وارحمتاه لك يا أماه كم شقيت من أجلي !

قال سكالا برينو : إنها شقيت يا سيدي إلى حد أسالت فيه دموعي ، أنا الذي لم أبكِ في حياتي والذي كان يلقبني اللصوص بالرجل الصخري .

وقد حاول سكالا برينو أن يتمّ حديثه ولكن رولاند وضع يده على فمه وقال له : أسكت واصبر . ذلك أنه شعر بأن قلبه ينفطر . ولم تسل الدموع من عينيه فإنها ذهبت منذ عهد بعيد . ولكنه شعر أنه يبكي في داخل نفسه وأن الدموع تسقط كسقوط الرصاص الذائب على قلبه .

وأقام نحو نصف ساعة يتألم لهذا الحزن الجديد ثم شعر بأن

هذا الحزن أخذ يزول تباعاً ويحلّ محله الحقد وحب الانتقام فالتفت إلى سكالا برينو بعد إطراقه وقال له : لقد قلت لي إن أمّي كانت تحاول إنقاذي .

– نعم ، ولكن الجنود تغلبوا على الشعب كما قلت لك وقد انتهت أمك عندي في منزلي فلما عرفتْ حقيقة أمري سألتني إذا كنت أريد مساعدتها في إنقاذك ، فقلت إني أسفك آخر نقطة من دمي في هذا السبيل .

فمدّ رولاند يده إليه فصافحه وقال له : إنك رجل .

فصافحه سكالا برينو وقال له وهو يبكي : إنك بكرمك يا سيدي ستجعلني آسف على الحياة .

ثم أطرق برأسه إلى الأرض وقال : وبعد أن اتفقت مع أمك برحت المنزل لأنفذ أول أمر أصدرته إليّ . فلما بلغت منعطفاً ضيقاً هاجمني فجأة نحو عشرين جندياً فقلبوني إلى الأرض وأحكموا وثاقي وحملوني إلى السجن . وهنا قالوا لي إنهم عفوا عن قتلي بسبب الخدمة التي خدمتهم بها ليلة حفلة خطبتك ، وبعد ذلك لم يقولوا لي شيئاً . والآن يا سيدي ... إنهم سيقطعون رأسي بعد بضع ساعات . ولكني أموت قرير العين ناعم البال لأن أمك صفحت عني ولأنك صفحت عني وقلت إنني رجل !

وسكت الاثنان بعد ذلك وكان كلاهما يفتكران بأمر واحد كشجرتين اقتلعتهما رياح العاصفة فوقعتا جنباً إلى جنب إلى حيث جرفتهما السيول وهذا التيّار الجارف ينتهي بهما إلى اوقيانوس اللانهاية ، أي إلى العدم ، أي إلى الموت ! نعم ، فإن

الموت كان في تلك الساعة بغية الاثنين ، فإن سكالا برينو لم يعد يرهب الموت بعد ذلك الصفح ، وكذلك رولاند فإنه بات يشتهي الموت بعد ما علمه من سكالا برينو وقد عوّل على الانتحار بعد ما اتضح له أن كل ما عمله في سبيل الفرار ذهب سدى وأن هذا الفرار بات مستحيلاً وأنه قُدّر عليه أن يفارق ليونور وأباه وأمّه إلى الأبد !

ونظر بعين الخيال نظرة سريعة إلى تلك الأعوام التي سيمكثها في ظلمات سجنه كما ينظر من يسقط من قمة جبل عالٍ إلى الهاوية التي سيهبط فيها .

ورأى نفسه أنه في مقتبل الشباب وأنه لا يزال قوياً بحيث أنه يستطيع أن يعيش أيضاً ثلاثين عاماً بالرغم مما يلقاه في هذه الأعوام التي سيموت فيها ألف مرة لا سيما ان ليونور ستناديه فيها بصوت خافت نداء القانطات ولا يستطيع أن يلبي نداءها!

رأى كل ذلك ورأى أنه لا ينقذه من عذاب الجسد والنفس غير الموت ، فابتسم لهذا الموت وارتاح إلى استقباله وعادت اليه السكينة .

ولما صحّت عزيمته على الموت جعل يفتكر بطريقة الوصول اليه فخطر له ثلاث طرق إحداها أن يمتنع عن الطعام فيموت جوعاً ، والثانية أن يضرب رأسه ضربة شديدة بحجر سجنه فينفلق ، والثالثة أن يطعن قلبه بذلك الحجر الصواني الذي عالجه حتى صار كالخنجر فيموت ويستريح .

ولكن تمثّل له أن هذه الضربات قد لا تكون قاضية فكم

يكون عذابه بها إذا لم تجهز عليه ، وأن الانتحار بالجوع قد
يتغلب فيه عذاب ذلك الجوع على الإرادة فيهجم على الخبز الذي
كان يمتنع عنه . فكانت هذه الأفكار تجول في مخيلته فيرى أن
الموت غير سهل ويقول: رباه ماذا أصنع ؟ وفيما هو على ذلك سمع
سكالا برينو يتمتم قائلاً :

— هي هنيهة تمضي فيأتي الجلاد !

فاهتز رولاند حين سمع قوله وخطر له خاطر غريب
فجائي.. فالتفت إلى سكالا برينو وقال له وهو يبتسم: إطمئنّ
يا سكالا برينو فانك لا تموت !

رعود وعواصف

*

أما سكالا برينو فانه نظر إليه نظرة انذهال لا توصف فقد
ظهر له رولاند في تلك الساعة شبه ذلك الملاك الذي كانوا
يحدّثونه عنه في أيام حداثته ، فقال : ألا أموت ؟ قال : كلا !
قال سكالا برينو : ولكن إحذر يا مولاي فانّ اليأس بعد
الرجاء هائل في مثل هذا الموقف لا تحمله النفوس. قال : إنهض
واتبعني .

فامتثل وتبعه وسار به إلى ذلك المنفذ الذي يؤدي إلى
سجنه فأزاح الحجر وقال له : إنزل الى سجني تأمن فيه الموت.
فتراجع سكالا برينو متذعراً دون أن يجيب . فقال له رولاند:

— انه قد يمر بك في السجن أعوام كثيرة دون أن يعرفوا
أمرك واذا عرفوك فانهم يعرضون دون شك عن قتلك اذ أنهم
يكونون قد قتلوني بذلك . قال : ويحٌ لنفسي ! أأشتري الحياة
بهذا الثمن ؟ اني أوثر الموت ألف مرة في كل يوم على أن أرضى
بهذه التضحية الهائلة .

— وأنا قلت لك اني أريد وقد قلتَ مرة لأمّي انك تبذل
كل عزيز في خدمتها، فهل تأبى أن تعاملني بما عاملتَ به أمّي؟

— مولاي ، اني ما خدمت أمك الا من أجلك على أني لا
أود الموت الا لإنقاذك ! فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

— أصغ اليّ ، فانك لا تعذّب في سجنك غير عذاب جسماني
فتتألم من البرد وتتوجع من الجوع وتشكو من الوحدة والسكوت
والضجر من الظلمات . أما أنا فان أنواع هذا العذاب تعدّ نعيماً
بالقياس الى عذابي ! فانّ نفسي تلقى من ألم الاضطراب فوق ما
يلقى جسمك من البرد ، وإن توجّع نفسي يزيد على توجّعك من
الجوع ، وإن تلك الوحدة وذلك السكون في ضميري أشدّ عليّ
من سكون القبر ، وإن هذه الظلمات المحدقة بسجنك تعدّ نوراً
بالقياس الى تلك الظلمات المحيطة بفؤادي .

— مولاي ...

— ولكن ألا ترى.. ألا تعلم أن الموت خير منقذ لي اذا كنت

تريد انقاذي كما تقول ؟ وأنت اذا أبيت أن تخدمني هذه الخدمة لقيتُ عناء آخر بالبحث عن وسيلة للانتحار .

فاضطرب سكالا برينو وصاح صيحة حزن مؤثرة إذ أيقن من صحة عزيمة رولاند وعلم أنه لا يستطيع خدمته إلا بمساعدته على الموت فقال : رباه ! إن هذا هائل لا يُطاق .

– أمَا وعدتَ أمي بالطاعة والامتثال لأجلي ؟

– نعم ، نعم .

– إذن إمتثل لي وأطعني .

– مولاي عفوك !

قال : قلت لك امتثل . ثم دفعه بعنف الى المنفذ ، فنزل سكالا برينو بالرغم عنه وبسط يديه شأن المتوسل . ولكن رولاند وضع الحجر فوق المنفذ فتوارى سكالا برينو في تلك الظلمات وهو يصيح بصوت مختنق : أستودعك الله .. الى اللقاء !

فلم يجبه رولاند ، وصبر هنيهة الى أن وثق من أن سكالا برينو لا يحاول الصعود فأسرع الى ذلك الكيس الأسود فالتقطه عن الأرض ولبسه في رأسه وأقام ينتظر .

*

في تلك الساعة سمع رولاند دوياً عظيماً وصل الى مسمعه من محل بعيد. وفي تلك الساعة بينما كان ينتظر الموت ويقاسي عذاب النزع تمثّل له خيال أبيه وأمه ورسمٌ ملأ قلبه وضميره فمحا كل تلك الرسوم وهو رسم ليونور ، فلم يكن يلفظ غير اسمها وكانت

هذه اللفظة تخرج من فمه شبه قبلة تسكره حباً وتنسيه موقفه الخطير .

وعند ذلك اشتدّ ذلك الدويّ الذي كان يسمعه وتلاه صوت أعظم اهتزّت له أركان السجن . فعلم رولاند هذه المرة أن هذا الدويّ دويّ الرعد وأن ذلك الصوت القاصف كان صوت الصاعقة وأن الصواعق تثور خارج سجنه الرهيب وهي صواعق هائلة يتفق حدوثها أحياناً في فينيسيا فتكون أشدّ العواصف هولاً بحيث تتحطم القوارب وتتهدم المنازل وتظلم السماء في رابعة النهار فلا تستنير الأرض إلا ببرقها الخاطف ، وتجول الصاعقة في ذلك الأفق إلى أن تسقط في مقرّها النهائي !

وطال زمن هذه الأنواء ، غير أن رولاند لم يعد يسمع هزيم الرعود فقد انتقل بالخيال الى حديقة جزيرة أوليفو وجلس عند تلك الأرزة الكبرى تحت تلك السماء المرصّعة بالنجوم ونسي نزعه الأخير فلم يخطر له غير قبلة ليونور الاولى .

غير أن دويّ الرعود كان يصل إلى أذنيه بالرغم عنه فيقطع عليه هذه التصورات العذبة . ثم سمع أصواتاً قريبة منه وهي وقع أقدام كثيرة ، فلم تكن غير هنيهة حتى فُتح الباب ودخل السجان والجنود والجلاد فدنا منه أحدهم وقال له : هل أنت مستعد ؟ قال : نعم . فأحاط به الحراس وجعل كاهن يتمتم قربه بصلواته ومشى الجلاد أمامه .

وعند ذلك دوت العاصفة دوياً اهتزّت له جدران السجن كأنما الصاعقة قد انقضّت عليه .

ورأى رولاند من خلال الكيس الأسود الشفاف أولئك الجنود من حوله وقد رسموا علامة الصليب على وجوههم كأنهم يريدون بها اتقاء العاصفة وانبعثت رائحة كبريتية في أروقة السجن فامتزجت بما هناك من روائح العفونة .

وكان رولاند قد اجتاز عتبة ذلك السجن فاجتاز به الحراس بضع خطوات فوصلوا إلى سلّم وجعلوا يصعدون عليه بينما كانت السماء لا تزال تنذر الأرض برعودها وصواعقها .

وعند ذلك تنفس رولاند تنفساً طويلاً وقد أسكره هذا الهواء الجديد الذي كان يتنشقه لاعتقاده أنه هواء الموت .

*

في تلك الساعة نفسها رُفع الحجر الموصل بين سجن رولاند وسجن سكالا برينو وظهر منه رأس سكالا برينو وقد جحظت عيناه ووقف شعر رأسه وحدّق بذلك الباب الذي خرج منه رولاند فبرقت عيناه ببارق الرجاء ، وذلك لأنه وجد ذلك الباب مفتوحاً فإن الحراس لم يقفلوه حين خروجهم منه إذ لم يبقَ فيه سجين يريدون الحرص عليه !

جسر التنهدات

*

كانت الساعة في ذلك الحين قد بلغت السابعة من الصباح أي

أن الأرض كانت قد استنارت بالشمس منذ ساعة. غير أن السماء كانت مظلمة فلم تكن الأرض تستنير إلا بنور ضعيف كنور الشفق . ولكن السماء كانت تنفتح من حين إلى حين وتخرج من جوفها تلك البروق الخاطفة فتضيء بها فينيسيا .

وكانت العادة في فينيسيا أنهم يعدمون المجرمين في السجن فيقطعون رؤوسهم فوق جسر التنهدات وتسيل دماؤهم إلى الترعة إلا حين كانوا يريدون إرهاب الأهالي فيعدمونهم علناً وينصبون المقصلة في ساحة سانت مارك . ولا بد للمحكوم عليه أن يجتاز جسر التنهدات للبلوغ إلى ساحة الإعدام .

وقد تقدّم لنا وصف هذا الجسر فإنه شبه ناووس كان يصل بين السجون وبين سراي الحاكم وبه قبّة بُنيت بناء غير متين بحيث لم يكن هذا الجسر غير رواق من أروقة السجن .

وقد وضعوا في الجهة المطلّة منه على البحر نافذة لها قضبان رفيعة من الحديد وكانوا يأذنون للمحكوم عليه أن يقف هنيهة فيها قبل إعدامه ويودّع فينيسيا الوداع الأخير .

ففي يوم أمس كانوا قد أعلنوا في شوارع فينيسيا وكنائسها أن اللص الشقي سكالا برينو سيقطعون رأسه في ساحة سانت مارك . ولكن تلك الساحة بقيت خالية في ذلك اليوم وكذلك الشوارع فقد كانت مقفرة ، وذلك أن عناصر الطبيعة حين تثور المعارك بينها يخيّل للإنسان أنه تجري أمور لا يجب أن يراها ، وأن اقتتال الغيوم في السماء قد يعود وبالاً عليه إذا هو تجاسر وحضر تلك المعارك .

والحقيقـــة أن الناس كانوا مشغولين بما أصابهم من غضب الصواعق عن مشاهدة ذلك المحكوم عليه بالموت ، فإنهـا كانت قد أحرقت كثيراً من البيوت . وكان بعضهم يأنفون أن يروا تنفيــذ الإعدام بالمجرمين لاعتقادهم أن أولئك المجرمين أبرياء لا محالة ، لما كانوا يعلمونه من جَور مجلس العشرة ، ثم لاعتقادهم أن الإنسان لا يحقّ له أن يقتل الإنسان ، فإننـا نؤاخذ القاتل لقتله ونعدُّ جريمته من أفظع الجرائم ،فكيف يجدر بنا أن نعاقبه وأن نرتكب نفس جريمته ؟ وإذا قتلناه لقتله سواه ، ألا نكون ارتكبنا جريمة القتل ؟

ولذلك كان فريق من أولئك النـاس ينكرون على الحكومة المعاقبَة بالقتل ولو كان من باب الإرهـاب فإن للإرهاب طرقاً كثيرة غير سفك الدماء كالتشهير وتضييق السجون والأعمـال الشاقة إلى غير ذلك مما يخافه أهل الشر أكثر مما يخافون القتل .

وعلى الجملة فإن بقاء أهل فينيسيا لم يكن لتفلسف في ذلك اليوم بل كان لغضب الطبيعة ولخوفهم من صواعقها .

ففي تلك الساعة كان رولاند يصعد على السلم وقــد تقدّمه الجلاد وهو يحمل فأسه على كتفه وسار كاهن على يساره وجعل يصلي ، ومشى الحراس من خلفه وهم مدجّجون بالسلاح . فكان كلما صعد درجة تنشّق هواءً جديداً لم يستنشقه منذ ستة أعوام فيشتدّ وتنتعش قواه . وقد سكن اضطراب أفكاره حين أيقن من دنوّ الساعة الأخيرة وخلاصه من العذاب .

فلما انتهوا من ذلك السلم التفت إليه الكاهن وقال :

— إنك ستسمع القدّاس يا بنيّ وتتناول القربان !

فارتعد رولاند إذ لا بدّ له أن يكشف الغطاء عن رأسه حين مناولة القربان فيفتضح أمره إذ يعرفونه ، فضمّ قبضتيه وعوّل على أن يموت في تلك الساعة فلا يعودون به إلى سجنه القديم .

وكان رجل يسير مع الكاهن فقال له : إن حفــلة القدّاس تمنعنا عن حفلة الإعدام لفوات الوقت ولاضطراب الجو، ألا ترى أن هذه العواصف كل حين في ازدياد ؟

وفي تلك اللحظة أبرقت السماء ودوّت دوياً هائلاً كان خير جواب مؤيد لقول الرجل ، فاصفرّ وجه الكاهن وقال :

— إذن أسرعوا فـإني أستبدل القداس بالصلاة البسيطة والقربان بالبركة . فوافقه الرجل واطمأنّ بال رولاند ليقينه من أنه سيموت .

وعند ذلك سار الموكب إلى جسر التنهدات وأوقفوا رولاند عند تلك النافذة المطلة على البحر لكي يودع فينيسيا الوداع الأخير حسب العادة التي كانوا مصطلحين عليهـا . وفي تلك الساعة أبرقت السماء برقاً متصلاً استنارت به ظلمات المكان بنور متألق وصاح أحد الحاضرين قائلاً : لقد أخطأتم ، فليس هـذا الرجل بسكالا بربنو !

فوقف الحراس مذعورين ودنا الجلاد من رولاند كي ينزع عن رأسه الغطاء الأسود فهاج يأس رولاند ومزّق ذلك الكيس قبل أن تصل إليه يد الجلاد وقال بلهجة وحشية مخاطباً الجلاد: إنك تريد قطع رأس فاقطع رأسي .

فأرعبت هذه الحادثة ودويُّ الرعود جميعَ الحاضرين حتى الجلاد نفسه إذ لم يكن بينهم مَن يعرف هذا الرجل أو يعلم كيف أتى .

أما رولاند فإنه اغتنم فرصة اضطرابهم وذهولهم فدفع عنه الحراس بعنف شديد ووقف عند تلك النافذة وهو يحاول أن يموت ولكنه لا يموت إعداماً بيد الجلاد بل نهباً على شفار السيوف وفي كل حال لا يعود حياً إلى سجنه .

ولما رأى ما كان من ذهول الجنود جعل يستحثهم ويحضهم على قتله فيقول : أيها الجنود ، ما بالكم تضطربون ؟ أليس من العار عليكم أن تهلع قلوبكم وأنتم عشرون على واحد ؟ فصاح قائدهم : قائلاً : إقبضوا عليه دون أن تقتلوه .

فهجم عليه اثنان من أولئك الجنود فاستقبلهما رولاند بقهقهة عالية ، ولم تكن غير لحظة حتى كان الجنديان صريعين على الأرض. فهجم عليه الجميع وصاح القائد بهم يقول : إقبضوا عليه ولا تقتلوه . ولكن صوته لم يُسمع فقد دوت السماء دوياً هائلاً في تلك اللحظة اهتزّت له أركان الجسر كأنما الأرض قد زلزلت زلزالها ، وتهدّم جانب من قبة الجسر وانتشرت رائحة الكبريت وثار الدخان من جميع الجهات ، فذعر الجميع وجعل بعضهم يقولون :

— ليهرب مَن يستطيع الفرار .

وعند ذلك حدثت حادثة أخرى زادت رعب الجنود وهي أنهم رأوا رجلاً قادماً من طرف الجسر وهو رجل عظيم الجثة

هائل الخلقة عاري الصدر واليدين ممزّق الملابس يحمل بين يديه حجراً ضخماً رفعه إلى فوق رأسه ... وقد وصل إلى الموكب وعيناه تقدحان ناراً فكان أشد هولاً من تلك الصاعقة المنقضّة من السماء .

وكان هذا الرجل سكالا بربنو. فلما وصل إلى قيد خطوتين من الموكب ألقى على الجنود حجره الهائل بقوة عظيمة فتراكض الجنود مذعورين وقد فلق الحجر رؤوس بعضهم ، ثم أسرع إلى ذلك الحجر فالتقطه وحمله بين يديه وهو لا يستطيع أربعة رجال حمله وأطلقه من يديه على حديد النافذة المطلة على الترعة فتحطم وفتح منفذاً في تلك النافذة .

وبينما كان الجنود مذعورين وبعضهم يتحفزون لمعاودة الكرّة على الرجلين أمسك سكالا بربنو رولاند ووثب الاثنان من النافذة إلى الترعة . وعند ذلك أسرع القائد إلى جمع جنده وأمرهم أن يطلقوا بنادقهم من النافذة . فأطلق الجنود بنادقهم فلم يصب رصاصهم غير الماء، ثم اضطروا إلى الرجوع وقد كادت تعمى عيونهم من الدخان ، فإن الصاعقة كانت قد انقضّت على سراي الحاكم فنشبت فيها النار وملأ دخانها الفضاء .

ولم يبقَ غير الجلاد ، فإنه أطلّ من النافذة فلم يرَ غير اضطراب الأمواج السوداء وتراقُص القوارب فوقها والتطام بعضها ببعض ، ثم لم يعد يرى شيئاً لتكاثف الدخان ، فارتدّ عن النافذة وهو يقول : إنهما إذا نجَوَا من غضب الأرض فلن ينجوَا من غضب السماء .

المجرمون في مراكز القيادة

*

أمـا رولاند فإنه شعر أنه غاص في الماء حتى بلغت رجلاه الأرض، وقد أعاد اليه هول هذا الموقف سكينته وعرف بسرعة التصوُّر ما يجب أن يفعل ، فكان أول ما خطر له أنه لا يجب الظهور فوق سطح الماء حذراً من رصاص البنادق ، فجعل يسبح تحت الماء مبتعداً عن جسر التنهدات نحو نصف دقيقـة ، فشعر أنه لم يبقَ له بـــد من التنفس وصعد إلى سطح الماء واختبأ بين قاربين أخفياه عن العيون . وتنفس تنفساً طويلاً وجعـل ينظر إلى تلك السماء التي كانت تتوهج ببروقها فيجد بذلك لذة لم يشعر بمثلها فيما مضى به من أدوار الحياة .

وعند ذلك ظهر سكالا برينو أمامه فـلم يقل أحدهما كلمة لرفيقه فإن الأفكار قد ازدحمت في رأسيهما حتى أنهما لم يجـدا كلاماً يعبر عنها .

ثم غطس رولاند في الماء فاقتدى بـه سكالا برينو وما زالا يسبحان تحت المـاء ولا يصعدان إلى سطحه إلا للتنفس حتى اجتازا مسافة عظيمة في الترعة وتوارت السجون عن أنظارهما .

وعند ذلك صعد سكالا برينو إلى قـارب وصعد رولاند في أثره وسار بها في عرض الترعة فجعل سكالا برينو يجذف وأقام

رولاند في القارب وقد أطلق لتصوراته العنان وتمثلت له ليونور بملء جلالها وجمالها فـلم يعد يكترث لتلك الأمطار التي كانت تنهلّ كأفواه القِرَب ، فوضع الخطة التي يجب أن ينهجها وهي: أنه يذهب تواً إلى جزيرة أوليفو فيظهر نفسه لدندولو ثم لليونور ثم يسافر بهـا من فينيسيا فيجد أمّه وأباه ويذهبون جميعهم إلى ميلانو أو إلى فلورنسا فيعيشون أهنأ عيش وينسون بحلاوة هذا الاجتماع مرارة الماضي .

وإنما اقتصرت خطة رولاند على هذا الحد لأنه لم يكن يحقد على أحد في تلك الساعة إذ كان يجهل أعداءه ويعتقد أنه كان ضحية وشاية كاذبة .

غير أنه تمثّل له عند ذلك عقاب أبيه فاتّقد الانتقام في قلبه كما كانت تتقد السماء ببروقها وعزم قبل سفره من فينيسيا أن ينتقم لأبيه من فوسكاري لأنـــه هو الذي تلا عليه ذلك الحكم الجـائر دون أن تتحرك عواطفه بأواصر الشفقة وصلات الوداد السابق .

وبعد هنيهة قـال له سكالا برينو : لقد وصلنا يا سيدي .

فالتفت رولاند فرأى أن سكالا برينو قـد رسا بالقارب عند شاطىء حي من أحياء الفقراء فتذكر أنه طاف مرّة في هـذا الحي وسمع غناء نسائه ، فحاول أن يبتسم لهذه الذكرى ولكنه لم يستطع فقال في نفسه : إني نسيت عادة الابتسام دون شك .

ونزل من ذلك القارب مع رفيقه وبعد هنيهة وقف بـه سكالا برينو عند منزل حقير وقرع بابه ففتحت لهما فتاة ذعرت

لمنظرهما فقالت : من أنتما وماذا تريدان فليس في هذا المنزل ما يطمع فيه. فقال لها سكالا برينو: كيف ؟ ألم تعرفيني يا جوانا؟ ألعلّي تغيرت كثيراً ؟

فنظرت إليه جوانا محدقة ثم صاحت بصوت يضطرب قائلة: رباه ! أيمكن أن يكون هو ؟ قال : لندخل الآن . ثم دخل مع رولاند إلى ذلك المنزل الذي كان كل ما فيه يدل على الفقر .

أما جوانا فقد كانت لابسة في عنقها عقداً من الزجاج الملون وقد وقفت مضطربة وهي تشير بيد ترتجف إلى قطعة من الورق موضوعة على المائدة. فانتبه رولاند لإشارتها ودنا من تلك الورقة فقالت له جوانا : إني انتزعتها أمس عن جدران الكنيسة .

أما هذه الورقة فقد كانت صورة إعلان الحكم على سكالا برينو بالإعدام ، وقد قرأ رولاند تاريخها فوجد أنه في ٤ تموز سنة ١٥١٥ فقال : أبقيتَ ستة أعوام في ذلك السجن الرهيب؟

نعم ، إنه أقام ستة أعوام في سجنه يقاسي أشد أنواع العذاب وقد دهش دهشاً عظيماً إذ كان يعتقد أنه لم يقم فيه غير عامين .. وذلك أن جهل المواقيت في مثل هذه الشؤون يختلف عند الناس باختلاف أخلاقهم ، فإن بعضهم يحسبون الساعات أياماً والأيام أعواماً ، وبعضهم يحسبون الأوقات على عكس الطريقة المتقدمة ، وذلك عندما يشغلهم عذاب أجسامهم كما اتفق لرولاند ، فيصابون بما يشبه الذهول وتكثر تصوراتهم فلا ينتبهون لمرور الأزمان .

وكان يوجد على تلك المائدة مرآة فنظر رولاند وجهه فيها

وارتدّ مذعوراً فإنه لم يعرف نفسه لفرط تغيّره ، فقد تجعّد جبينه وبرزت وجنتاه واصفرّ وجهه وغارت عيناه ! فوضع المرآة في موضعها وعاد إلى قراءة إعلان الإعدام فوجد في ذيله هذه التواقيع :

دندولو رئيس مجلس التفتيش . فوسكاري دوج فينيسيا . ألتياري القائد العام . عبو كردينال وأسقف فينيسيا بنعمة الله.

فلم يفه رولاند بكلمة وأخذ كرسياً فجلس عليه وأسند يديه إلى المائدة ورأسه فوقها وقد تمثّلت له هذه الأسماء الأربعة كأنها كتبت بحروف من نار وخيّل له أن المحكوم عليه بالإعدام لم يكن سكالا برينو بل رولاند كانديانو ابن الدوج .

جوانا

*

وكان سكالا برينو قد رأى أيضاً هذا الإعلان فهز كتفيه ولم يكترث له وكان أول ما فعله أنه عانق جوانا فقبّل وجنتيها وقال لها : إنك لم تكوني تتوقعين أن تريني في هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ فسالت دموع الفتاة وقالت : إني كنت أصلي من أجلك .

– ألم تنسيني يا جوانا ؟ ألم تلعنيني مع اللاعنين ؟
– أأنا أنساك وألعنك ؟ ألست أنت الذي ربيتني منذ حداثتي فكنت أبي وأخي وعائلتي ؟ لقد كنت لدى كل الناس لصاً سفاكاً وأما لديّ فلم تكن غير الأخ الأكبر الحنون !
– هو ذاك يا ابنتي ، فإن حنوّي عليك أشدّ من حنوّ الآباء !
وكانت جوانا جالسة على ركبته وهي تنظر إليه والدموع تسيل من عينيها فقالت له :
– ولكن كيف خرجت من السجن ؟ ألعلهم عفوا عنك ؟
قال : كلا ، بل عفوت عن نفسي !
– ماذا تعني بذلك ؟
– أعني به أني هربت ، فإذا علم الجلاد والجواسيس ومجلس العشرة أني هنا لا تمضي ساعة حتى يقطع رأسي في ساحة سانت مارك .
فارتعدت جوانا ووثبت إلى النافذة كي ترى إذا كان يوجد أحد من الرقباء ثم ذهبت إلى الباب فأحكمت إقفاله وعادت إلى سكالا برينو وقالت له : إنك هربت في نفس اليوم الذي كانوا .. ربّاه إني لا أجسر أن أتمّ جملتي .. ولكن كيف استطعت الفرار ؟
– لا تسأليني فإني أنا نفسي لا أعلم ولكنني أكاد أموت جوعاً .
فأشارت جوانا إلى حيث كان رولاند وقالت لسكالا برينو: وهذا الرجل من هو ؟ قال : أسكتي ، دعيه في شأنه وأتيني بما

عندك من الطعام .
وكان هذا البيت مؤلفاً من غرفتين إحداهما للمنام وهي الغرفة التي كان فيها رولاند والثانية للطعام وهي التي كانت فيها جوانا مع سكالا برينو .
فأحضرت له ما طلب وجلس يلتهم ذلك الطعام إلتهاماً وهو يتغزل بين كل لقمة ولقمة بذلك الخبز الأبيض الذي لم يأكله منذ ستة أعوام . حتى إذا فرغ من طعامه جعل يتمعّن بوجه جوانا . ورأى لأول مرة آثار ذلك التبرّج الذي كان منحصراً بعقد الزجاج فتنهّد تنهداً طويلاً وقال :
– ما أحلى الحياة ! فإني أحسب نفسي حالماً وأكاد أن لا أصدق بأني جالس على هذه المائدة أنظر إلى وجه جوانا الجميل بعد أن كنت في ذلك السجن الضيق .. ولكن سجني لا يذكر بإزاء تلك البئر التي كان مسجوناً فيها ...
– من هو ؟
– أسكتي ، فهو يقول لك اسمه إذا أراد . أما أنا فإني عبده ! ولكنك قد كبرت يا جوانا وغاب كل جمالك حتى لقد يقال عنك إنك بتّ ميالة إلى التبرّج والزينة خلافاً لما كنت عليه من قبل .
فاصفرّ وجه جوانا وعاد سكالا برينو إلى الحديث فقال : ما هذه الربطة الحمراء في شعرك ؟ وما هذا العقد في عنقك ؟
فأرخت جوانا عينيها إلى الأرض . فجعل سكالا برينو يتمعن فيها، ولا بد لنا هنا أن نقول إنه لم يكن يحب هذه الفتاة

غير حب طهارة فانه لقيها طفلة مجهولة فالتقطها ورباها وكان يحبها كما يحب الرجل بنته وهي تحبه هذا الحب .

وعند ذلك قال لها : إنك لم تجيبي على سؤالي ، فهل لك عشيق ؟ فقالت بصوت مختنق : كلا !

– إذن ما هذا الذي أراه ؟ قولي كل شيء .

فاصفرّ وجه الفتاة وجعلت تبكي . فقال بصوت أجش: لقد فهمت الآن أيتها المنكودة، فقد انقطعت عنك الموارد بعد غيابي فاضطررت إلى الارتزاق من هذه المهنة الهائلة! فقالت له بصوت خنقته العبرات :

– اذن أنت لا تحتقرني ؟

– أحتقرك؟ ومن أنا في هذا الوجود كي يحق لي أن أحتقرك؟ إبكي أيتها العزيزة فان البكاء يعزّيك . أمّا وقد عدت اليك فستعودين الى ما كنت عليه من العفاف .

فهزت الفتاة رأسها وقالت : اني لم أصب بذلك الشقاء الا بعد ذهاب تلك المرأة الصالحة . فارتعش سكالا برينو وقال :

– أية امرأة تعنين ؟

– تذكّر ، فإني أعني بها تلك المرأة التي أتيت بها في تلك الليلة ، ليلة الثورة ، أي تلك الليلة التي رأيتك تبكي فيها أمامها. ألم تذكر ؟

– نعم ، نعم .

– أتعلم من هي ، انها امرأة الدوج كانديانو وأمّ ذلك الفتى المنكود الذي قبضوا عليه يوم خطبته .

– نعم أعلم ، فاسكتي .

– مسكينة هذه المرأة !

– ماذا أصابها ؟

– انها ماتت ؟

فاصفرّ وجه سكالا برينو وقال : ماتت ؟

وعند ذلك فتح باب الغرفة التي كان فيها رولاند ودخل رولاند وهو مصفر الوجه ولكن آثار السكينة كانت بادية عليه فدنا من جوانا وقال لها : أخبريني كيف ماتت أمي .

– أمك ؟ أمي أمك ؟ اذن أنت ...

– أنا رولاند كانديانو يا ابنتي . وما زلت عرفت كيف ماتت فاني أحب أن أعلم منك كيف كان موتها . فارتعشت الفتاة وقالت له : انك تسألني أن أخبرك بأمر هائل !

– أهو هائل الى هذا الحد ؟

– نعم !

– لا بأس ، أخبريني بكل ما تعرفينه اذ يجب على الإبن أن يعرف كيف ماتت أمه !

– اذن أنت تريد يا سيدي ؟...

– نعم أريد أن أعلم كل شيء بالتفصيل .

– من أين تريد أن أبدأ الحديث ؟

– من حين خرج سكالا برينو من هذا المنزل بأمر أمي دون أن يعود إليه .

– إذن فاعلم يا سيدي أن مدام سيلفيا انتظرت عودة سكالا

برينو حيناً وقد علمت بعد شهر أنهم قبضوا عليه فيئست ، وبكيت أنا ولكن ماذا تفيد دموعي ؟

ولم تكن مدام سيلفيا تبكي ولكن حزنها الساكت كان يقطع قلبي ، فإنها كانت تخرج في صباح كل يوم فلا تعود إلا في المساء ، وكنت أتبعها على مسافة بعيدة كي أعينها عند اقتضاء الحاجة ، فإن الناس كانوا ينظرون اليها نظرات تشفُّ عن الخوف . فقال رولاند : إذن لم يشفق عليها أحد ؟ فأطرقت برأسها وقالت :

– إن الذين كانوا يشفقون عليها لم يجسروا على التظاهر بالإشفاق .

فأطبق رولاند عينيه كأنما قد تمثلت له أمه جاثية بالأسواق وهو لا يطيق النظر إلى شقائها ثم فتح عينيه وقال لها : ماذا كانت تعمل حين كانت تجول في الشوارع ؟ قالت جوانا : إنها كانت ترود حول منازل رؤساء الحكومة .

فتنهد رولاند وقال : لقد فهمت ! فإنها كانت تلتمس منهم العفو عني ! قالت : هو ذاك ، وقد تمكنت يوماً من الوصول إلى فوسكاري ، ولكنه أمر حراسه بأن يبعدوها عنه .

– أليس فوسكاري دوج فينيسيا ؟

– نعم ، إنه الحاكم .

– حسناً . أتمي حديثك .

– ففي ذات يوم بينما كنت أقفو أثرها حسب عادتي رأيت رجلاً قد دنا منها فكلمها ولم أعلم ما قاله لها، ولكنها حين عادت إلى المنزل رأيت وجهها قد امتقع بصفرة الموت وأن شفتيها

ترتجفان فأقامت كل ليلها جالسة على كرسي دون أن تصغي إلى توسلاتي . وعند الفجر أذنت لي أن أنهضها عن ذلك الكرسي فتنهدت تنهداً لا أنساه طوال حياتي . وقد أصعدتها إلى سريرها فأدارت وجهها إلى الجدار وأنا أحسب أنها ستنام . ولكني حين عدت اليها بعد ساعة لأتفقدها وجدت عينيها منفتحتين وهي تردد هذه الكلمات :

– « إنه مات ... مات ... قضي الأمر ! »

فمسح رولاند العرق عن جبينه وجعل يسير في تلك الغرفة وقد غرست أظافره في باطن كفه لشدة ضغطه كأنه أصيب بنوبة غضب هائل ، ثم عاد إلى الفتاة وقال لها : ألم تعرفي ذلك الرجل الذي كلم أمي ؟

– نعم أعرفه .

– مَن هو ؟

– إنه كان يدعى بيبو ، وهو الآن كردينال وأسقف فينيسيا!

فأطبق رولاند عينيه هذه المرة أيضاً ثم فتحها وقال بصوت أجش : أتمي حديثك . قالت : إن ما بقي من حديثي يثير الأشجان يا سيدي ، فإني كنت أبيع في الشوارع الأزهار والفاكهة وأعود بما أكسبه فأقتات به وأطعم حمامتين كنت ربيتهما ، فكانتا تطيران في كل يوم وتعودان إليّ حين الطعام فأطعمهما ما اشتريته لهما من الحَب مما يزيد عن حاجتي .

فلما باتت مدام سيلفيا معنا زدت جهدي في البيع ولكني لم أستطع أن أفي بنفقاتنا كلنا بحيث اضطررت الى الامتناع عن

إطعام الحمامتين فذهبتا ولم تعودا وكان حزني عليهما شديداً .

ومن عجيب ما لقيته أني كلما زدت جهداً في البيع والسعي وراء الارتزاق كلما ضاقت أبوابه. ولا أدري سبب هذا الشقاء، فإن زبائني أخذت تمتنع تباعاً عن الشراء مني فكانت الأزهار التي أشتريها تذبل قبل أن أتمكن من بيعها إلى أن عرفت يوماً السبب الحقيقي وذلك أني شكوت أمري إلى امرأة أعرفها فقالت لي : إن الحكومة عرفت أن امرأة الدوج تقيم عندك فنفر الناس منك وخافوا أن يشتروا أزهارك كي لا تتهمهم الحكومة بالمؤامرة مع امرأة الدوج .

وقد قالت تلك المرأة لي هذا القول وهربت أيضاً لخوفها أن يكون أحد رآها تكلمني ! فلبثتُ ضائعة الرشد مشتتة البال ، ولكن ذلك لم يفد وما عساي أن أفعل !

فقال لها رولاند : ألم يخطر لك أن تفترقي عن هذه العجوز التي كانت السبب في شقائك ؟ قالت : كلا فإني كنت أعطف على مدام سيلفيا وأحبها كما لو كانت أمي من قبل ، وكنت أجد نفسي سعيدة بهذا الحب .

فاضطرب رولاند وترقرق الدمع في عينيه ، غير أنه حبس دمعه عن الانسكاب وثار الحقد في قلبه على أعدائه فتغلب على الحنان وقال : ماذا فعلت بعد ذلك ؟

فأطرقت الفتاة برأسها استحياءً ثم قالت بصوت يتهدج : مولاي ، لا تسألني عما فعلت فإني أخطأت .

— أنتِ أخطأتِ ؟

— نعم ، واأسفاه ! ولكني كنت مضطرة الى ذلك إذ لم يبقَ لديّ مال وكانت العجوز المنكودة محتاجة الى خمر معتقة فاضطررت الى شرائها فباركتني أمك ودعتني بنتها .

— تقولين إن أمي دعتك بنتها ؟

— نعم يا سيدي ، ولكني ربما كنت غير مستحقة لهذا اللقب لأني لم أستطع المقاومة ، فقد وجدت في ليلة أن مدام سيلفيا منهوكة القوى وأنها محتاجة الى دواء مقوٍّ وأنه لا يوجد في البيت قطعة خبز وليس لديّ درهم فخرجت قانطة في ظلام الليل وأنا لا أدري ماذا أصنع ولا الى أين أسير ، فلقيني فتى من الأسياد .. ولما عدت الى المنزل كان معي ذلك الشراب المقوّي وما تحتاج اليه من القوت ! مولاي ، إني ألتمس منك العفو جاثية لاضطراري الى تغذية أمك بمال كسبته من أقبح الموارد !

وقد جثت عند ذلك راكعة فأنهضها رولاند وأخذ يدها فقبّلها بملء الاحترام وهو يبكي . فأجفلت الفتاة وقالت :

— أمثلك يقبّل يد مثلي يا مولاي ؟!

قال : نعم، فإني أحبك وأباركك وأقول لك إنك أصبحت لديّ أختاً مقدسة أعبد قلبها الطاهر !

وكان سكالا برينو يشاهد كل ذلك ، ففتح النافذة استنشاقاً للهواء وهو يقول : رباه ماذا أرى ؟ إني سأختنق !

أما رولاند فإنه جعل يبكي بكاء الأطفال الى أن نضب الدمع من عينيه فعاد الى جوانا وقال لها: أتمّي يا أختاه حديثك.

قالت : لم يبقَ لي يا سيدي غير بضع كلمات أقولها وهي أن

صحة أمك أخذت بالانحطاط سريعاً فبذلتُ معظم ما يمكن بذله من الجهد كي أخفف شقاءها الى أن أراحها الموت فماتت بين يديّ في العاشر من شهر حزيران سنة ١٥١٠ أي بعد القبض عليك بعام تام ، فكفنتها ودفنتها ولا أزال أبكيها يا سيدي الى اليوم !

وعند ذلك جعلت الفتاة تبكي ووضع رولاند رأسه بين يديه وتاه في عالم الخيال فلم نعلم ما كان يجول في أفكاره تلك الساعة . ودام على ذلك الى أن دوى الرعد دوياً قاصفاً فارتعد وانتبه وقال لجوانا بمنتهى الرفق : إنك منذ هذا اليوم لم تعودي وحدك في هذا العالم فإن لك أخاً . ولا شك أن أمي كانت تعلم بأسرار الغيب وهي تحتضر فدعتك بنتها . فاذهبي أيتها الأخت واذهب أنت أيضاً يا سكالا برينو ودعاني وحدي فإني مضطر الى أن أنزل الى أعماق نفسي لأرى هذا الرجل الجديد الذي تولّد فيها .

فنظر الاثنان الى رولاند نظرة تشفّ عن الرعب وامتثلا لأمره . أما رولاند فإنه جلس على كرسيه وعاد الى التأمل والتفكير .

حديقة جزيرة أوليفو

*

ولم يجتمع رولاند بسكالا برينو وجوانا إلا عند المساء فتناول

معهما الطعام وسهر معهما الى الساعة الحادية عشرة من المساء . وعند ذلك نهض وقال لسكالا برينو :

— إني ذاهب لشأنٍ فانتظرني هنا . قال : ألا تريد أن أصحبك ؟ قال : كلا ، فإني ذاهب لزيارة لا يجوز أن يصحبني فيها أحد .

فقالت جوانا : ولكنك لا تستطيع الذهاب في حالتك الحاضرة فانك لا تسير بضع خطوات حتى يعرفك الجواسيس ويقبضوا عليك .

وكانت جوانا مصيبة في اعتراضها فان شعر رأسه كان قد طال حتى استرسل الى كتفيه وامتدّ شعر لحيته حتى بلغ الى صدره وتمزّقت ثيابه بحيث بات يستلفت أنظار الرقباء بمجموع هيئته .

فلما رأت أنه أذعن لاعتراضها قالت له : إجلس فاني أجيد قص الشعر وليس في ذلك صعوبة . فامتثل لها رولاند وأخذت المقص فقصّت شعر رأسه ولحيته ثم صبغت شعر رأسه صباغاً غيّر لونه فتغيّر كل شكله . ثم أسرعت الى الصندوق ففتحته وأخرجت منه ملابس تامة وهي تقول :

— هذه ملابس نينو الذي توفي في العام الماضي . فقال رولاند : مَن هو نينو هذا ؟ فأجابه سكالا برينو : إنه أحد رجال عصابتي وكان يقيم عندي وهو أحد الذين ذُعروا منك حين عرفوك يوم أنقذت أمباريا !

وبعد هنيهة أتمّ رولاند لباسه فبات لا يُعرف بفضل جوانا ،

فبرح ذلك المنزل بعد أن شكرها . ومشى في طريق فينيسيا ،
وكانت الشوارع مقفرة مع أن العاصفة قد هدأ ثائرها وعادت
السماء الى السكون. وكان يسير وهو يسأل نفسه فيقول : ترى،
كيف نال دندولو منصب رئيس ديوان التفتيش ؟ ومتى تمكن
والد ليونور من استلام منصب فوسكاري الهائل ؟

ثم سأل نفسه سؤالاً آخر وهو أنه إذا كان دندولو قد عُيّن
رئيس ديوان التفتيش فكيف لم يستعمل نفوذه في سبيل إنقاذي؟

وهنا اضطرب لهذا السؤال الذي لم يعلم كيف يجيب نفسه
عنه فأسرع الخطى وهو يقول : إن ليونور ستوضح لي كل ذلك
بكلمة .

وما زال يناجي نفسه بمثل هذه الأسئلة وهو في الوقت نفسه
يضع خطة مقابلة ليونور ويخشى أن يقتلها الفرح بلقياه ، فلم
يستطع أن يضع تلك الخطة وقال في نفسه: إني سأصل الى المنزل
فأثب الى الحديقة من فوق سورها وأجتهد أن أوقظ إحدى
الخادمات فأعهد اليها أن تدعو والد ليونور ، وهناك أرى
ما يكون .

فلما اجتاز الجسر الأخير ووصل الى جزيرة أوليفو وبلغ الى
ذلك المكان الذي لقي فيه سكالا برينو منذ ستة أعوام جعل
قلبه يخفق خفوق أجنحة الطائر . وقد واصل سيره بأقدام
تضطرب حتى اقترب من المنزل فوهنت قواه واشتد خفوق قلبه
حتى أنه لم يعد يستطيع المسير فجلس على عتبة سلم الكنيسة
وجعل يحدث نفسه فيقول :

— رباه ! إني أخشى أن يقتلها الفرح ، فقد لقيتْ دون شك
نفس ما لقيته من العناء ، فلا شك أيضاً أن الفرح يؤذيها. ولكن
ضرر الحزن أشد من ضرر المباغتة بالفرح فلا يجب أن أطيل
دقائق حزنها .

وشعر وهو يقول هذا القول أنه لا يستطيع الذهاب الى
منزلها ، وعاد الى ذلك السؤال الهائل وهو : أنه إذا كان أبوها
قد بلغ هذا النفوذ فلماذا لم ينقذني ؟

وعند ذلك نهض فجأة ومشى الى تلك الحديقة كأنه سائر
الى الإعدام ، فلو هبطت عليه السماء في تلك الساعة لما عدّ تلك
المصيبة أعظم من المصيبة التي كان يتوقعها . وما هي هذه
المصيبة ؟ فانه لا يعلمها . فقد تكون ليونور ماتت ، وقد يكون
حدث غير ذلك ... فقد كانت مصيبته يجهل هذه المصيبة !

ولما بلغ السور المحدق بحديقة قصر دندولو رأى من خلال
بابه الحديدي تلك الحديقة الغنّاء، وتلك الأرزة الكبرى وجميع
تلك التذكارات الحنونة التي لم يكن يذكر سواها في سجنه !
لقد رآها كلها بعين الحقيقة كما كان يراها بعين المجاز .

ولما تمثلت لعينه هذه التذكارات ذهبت هواجسه حتى بات
يعتقد أنه حين يهبط الى الحديقة من فوق السور يجد ليونور تنتظره
تحت تلك الأرزة !

وبعد لحظة كان في تلك الحديقة ، فوقف هنيهة كي يتنفس
ويسكن خفوق قلبه ثم جعل ينظر الى ما حواليه . وقد كانت
الحديقة مقفرة، ورأى رولاند أنه قد نبت فيها نبات بريّ يدل

على إهمال تلك الحديقــة فارتعش وقال في نفسه : رباه ! ماذا حدث ؟ فعهدي بليونور أنها لا تتغاضى طرفة عين عن الحديقة .

وهنا عاودته الهواجس فمسح جبينه وقال : إن كان الموت قد اختطفها مني بعد هــذه النكبات فيحسن بي أن أقف على الحقيقة في الحال .

ومشى وهو يضطرب توّاً الى المنزل ونسي كل ما كان قـد أعدّه من أسباب الاحتياطات فطرق البـاب بعنف . ولما سمع صوت المطرقة ندم ندماً شديداً وتمنى لو كان بعيداً أو أنه لم يكن أتى . حتى إذا لم يجبه أحد اشتد به الجزع وحسب أن البيت قد أصابه ما أصاب الحديقة . ولكنه عند ذلك سمع وقع خطوات فعاد الى قلبه ذلك الخوف وخيّل له أنه سيقضي فرحاً أمام عيني ليونور .

وبعد هنيهة سمع صوتاً يقول : مَن الطارق ؟ فأجابه رولاند قائلاً : رجل قادم بنبأ خطير !

ففتح البـاب ورأى رولاند أن الذي فتحه خادم قديم في بيت دندولو . أما الخادم فانه لم يعرفه ، فقال له :

– مَن أنت وكيف دخلت الى الحديقة في مثل هذه الساعة ؟ فانك لم تدخل اليها لنيّة صالحة ... إذهب أيها الرجل في شأنك.

فضمّ رولاند يديه متوسلاً وقال له :

– رحماك لا تطردني فاني مضطهد تطارده الحكومة . ونعم إني دخلت الى الحديقة دون استئذان ولكن لم يسعني أن أفعل غير ما فعلت . ولولا ذلك لعرفوني وقبضوا عليّ . أفلا تشفق

على مضطهَد ؟

فحدق الخادم برولاند وقد تأثر لاستعطافه ورأى في عينيه ولهجته ما يدلُّ على السلامة ففتح له الباب وقال له :

– ادخل فلا يقال إن فيليب الشيخ أبى حماية رجل مضطهد. والله أسأل أن يصلح حال فينيسيا ويلهم رجالها سبل الرشاد فقد طال عذاب الناس فيها .

فدخل رولاند وجعل ينظر الى ما حواليه ويضطرب. فحسب فيليب الخادم أن اضطرابه اضطراب خوف فقال له : لا تخف فانك هنا في مأمن .

فشكره رولاند بإحناء رأسه وكان قد بلغ قــاعة الطعام فوجد أن كل ما فيها لا يزال باقياً على حاله حتى ذكر الكرسي الذي كان يجلس عليه بجانب ليونور ، فقال له فيليب : إجلس واسترح مطمئناً فلا يخطر لأحد أن يبحث عنك في هذا المكان.

فجلس رولاند ، وصبّ له الخادم كأس خمر فشربها جرعة واحدة ثم قال له : إني أشكرك لتكرُّمك وأخبرك بالحقيقــة وهي أني من المضطهدين وقد أتيت الى فينيسيا بالسرّ كي أقابل رئيس ديوان التفتيش ، وقد قيل لي إن هذا المنزل منزله فصبرت الى أن ادلهمّ الليل ودخلت .

– ولكنك مخطىء يا بنيّ !

– كيف ذلك ؟ أليس هذا المنزل منزل دندولو !

– نعم إنه منزله ولكنه لا يقيم فيه ولا يأتي اليه أبداً ، وأنا أقيم فيه وحدي لحراسته . أما سيدي دندولو فإنه يقيم في قصره

الكائن على الترعة الكبرى .

فتنفس رولاند الصعداء وعلم السبب في إهمال الحديقة وقال: متى سكن دندولو قصره الجديد ؟

– منذ عامين !

– وإن عائلته مقيمة معه دون شك ؟

– عائلته ؟ مَن هي عائلته ؟ فوجف قلب رولاند وقال :

– لقد أكدوا لي أن له بنتاً .

– أتعني بها السيدة ليونور ؟

– نعم ، فهل ماتت ؟

– معاذ الله أن تصاب بسوء فهي لا تزال في ريعان الصبا والجمال وهي تقيم في قصر زوجها الشهير .. ولكن ماذا أصابك؟

فوثب رولاند من مجلسه الى ذلك الشيخ فأمسك بكتفيه وهزّه هزاً عنيفاً وهو يقول : أيها الشقي ، أتقول إن ليونور قد تزوجت ؟

– نعم .

– متى ؟ قل وأسرع قبل أن أخنقك .

– منذ عامين !

– ماذا يُدعى زوجها ؟

– ألتياري !

فهدّد رولاند السماء بقبضته ثم أنّ أنيناً خرج من صدره كالزئير وبرح ذلك المنزل كما دخل اليه فلم يعلم أحد ما فعل في تلك الليلة .

وعند الصباح عاد الى منزل جوانا فصاح سكالا برينو صيحة فرح للقائه فإنه لم ينم ليلته لشدة قلقه عليه . وكذلك جوانا فإنها لامت سكالا برينو لتخليّه عنه ، فأجابها قائلاً : إن البرنس أمرني بالبقاء ولا سبيل الى عصيانه .

وكانت هذه أول مرة استعمل فيها سكالا برينو كلمة البرنس للكناية بها عن رولاند وقد قالها بدافع طبيعي ، كما أنه دل بجوابه على شدّة تعلّقه به وخضوعه له خضوعاً لا يقف عند حد.

أما رولاند فإنه حين دخوله شرب كثيراً من الماء ثم التفت إلى سكالا برينو وقال له : أليس اليوم يوم أحد ؟ قال : نعم يا مولاي .

– ألا يروق لك أن تحضر الصلاة في كنيسة سانت مارك ؟

فنظر إليه نظرة انذهال لأنه كان يعلم أن رولاند ليس من أهل التعبد وكذلك هو فإنه لم يكن يؤمن بشيء ، وفوق ذلك فإن لهجة رولاند كانت غريبة وقد تخلل سؤاله شيء من الأمر بحيث لم يسع سكالا برينو غير الامتثال ، فقال له رولاند :

– ما زلت قد رضيت الذهاب إلى الكنيسة لتشكر الله على نجاتك فسأصحبك إليها . فدقت جوانا يداً بيد وقالت :

– لكنهم قد يعرفونكما . قال : كلا ، لا يعرفنا أحد .

وقد قال هذا القول بلهجة ثقة حتى أن الفتاة نظرت إلى سكالا برينو نظرة الفاحص وقالت : لقد أصبت ، فإني أنا أكاد لا أعرفه . فقال رولاند : إذن لقد اتفقنا على أن نحضر

الصلاة . والآن هلمّ معي . وخرج الاثنان .

*

كان رولاند حين قبضوا عليه ليلة خطبته يحمل بعض مجوهرات منها سلسلة طويلة ذهبية كان يلبسها النبلاء في ذلك العهد، ومنها منطقة مرصعة، ومنها حسام كانت قبضته مرصعة أيضاً بالياقوت والماس، ومنها خاتم ثمين كانت ليونور قد أهدته إليه ليلة الخطبة فان الفتيات كنّ يهدين خطّابهن في ذلك العهد خلافاً لعاداتنا في هذه الأيام .

وقد ذهبت المنطقة والحسام والسلسلة حين قبضوا عليه على أثر العراك ولكن الخاتم بقي في إصبعه فكان خير عزاء له في سجنه إذ كان يتمعن به في ساعات يأسه فيخيّل له أن ليونور تنظر إليه .

وقد أصبح هذا الخاتم الآن ثروة رولاند الوحيدة إذ كان كل ما يملكه .

فلما برح منزل جوانا ذهب تواً إلى سوق الصياغ وعرض هذا الخاتم للبيع دون أن يتردد في بيعه وقبض ثمنه مائتي ريال دون مساومة ودفع هذا المال إلى سكالا برينو ثم سار وإياه إلى ساحة سانت مارك . وهناك لقي كثيراً من الناس واقفين قرب عمود يقرأون إعلاناً ألصقته الحكومة عليه وقد ذكرت في الإعلان صفات رولاند وسكالا برينو الهاربين من السجن وعيّنت جائزة قدرها مائة ريال لمن يقبض عليهما أو يرشد

الحكومة إليهما. فلما قرأ رولاند هذا الإعلان علم أنهم قد يهتدون إليهما لوضوح الصفات ، ولكنه عجب كيف أنهم ذكروا اسم سكالا برينو فيه دون أن يذكروا اسمه .

وعند ذلك دخل مع سكالا برينو إلى الكنيسة فدهش سكالا برينو إذ كانت هي المرة الأولى التي دخل فيها الى الكنيسة . أما رولاند فانه جعل ينظر الى رجل واقف في الهيكل يبارك الناس فكاد يصيح صيحة تفضح أمره وكذلك هذا الرجل فانه لو رأى رولاند وعرفه لتوقف عن الصلاة وأمر بالقبض عليه . فإن هذا الرجل كان الكردينال بمبو .

غير أن رولاند تمكّن من ضبط نفسه فضغط على يد سكالا برينو وقال له : تمعّن في وجه هذا الأسقف .

فامتثل ، وعند ذلك اصفرّ وجهه واضطربت يده في يد رولاند فقال له رولاند : أرى أن منظر هذا الكردينال قد أثّر عليك .

— هو ذاك يا سيدي !

— لماذا ؟

— لأن هذا الكردينال الذميم هو نفس الرجل الذي دفع لي مالاً ليلة خطبتك وطلب إليّ وإلى رجالي أن نهتف : « ليحيَ رولاند كانديانو » . وهو نفس الرجل الذي طلب إليّ أن أقتل أمك !

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وتمتم قائلاً :

لم تخدعني نفسي، فقد خطر لي أنه صاحب هذه الفعلة الشنعاء

ولكن طب نفساً الآن فسيلقى من العذاب فوق ما لقيت وسيكون انتقامي شديداً تتحدث به الأجيال .

وبعد ذلك عاد الاثنان إلى منزل جوانا فنام رولاند بضع ساعات وفي الصباح برح المنزل بعد أن أوصى سكالا برينو أن لا يقلق عليه إذا طال غيابه بضعة أيام .

وقد غاب كما قال فطال غيابه إلى ثمانية أيام وفي الليلة الثامنة عاد فلم يخبرها أين كان ولا ماذا فعل بل إنه نظر إلى جوانا وقال : إننا سنسافر ، وسيعود سكالا برينو إليك للذهاب بك بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فهل توافقين على السفر ؟ قالت : إلى أين يا مولاي ؟

– إلى حيث أكون !

– دون شك !

– إذن خذي هذه النفقة لتنفقيها مدة غيابي .

– مولاي ...

– ألم أقل لك يا جوانا إني أعتبرك أختاً لي ... لا تبكي ولا تفتكري بالماضي بل افتكري بنفسك وبأخيك .

وعند ذلك لبس رولاند وسكالا برينو ملابس الفرسان وكانا قد اشترياها من قبل . ثم ودّعا جوانا وانصرفا فركبا سفينة كان رولاند قد أعدّها وابتعدا بها عن فينيسيا .

الشيخ

*

ولبثت السفينة تمخر بها حتى رست عند الشاطىء، فنزلا منها وذهبا مشياً على الأقدام إلى مدينة « ميستر » فأقاما في أحد فنادقها وقال رولاند لصاحب الفندق إنه يريد شراء جوادين قويين فأجابه صاحب الفندق قائلاً : يوجد في فندقي رجل من الأعيان لديه كثير من الجياد يريد بيعها لأنه يريد السفر وهو لا يعلم ماذا يصنع بها . فإذا أردت شراء ما تحتاج إليه منها فتفضل واتبعني .

فسار رولاند في أثره دون أن يجيب حتى إذا وصلا إلى غرفة الرجل التفت إليه صاحب الفندق وقال : لا تعجب لما ستراه من أخلاق هذا الرجل فإنه وافر الثروة كما يظهر وله أطوار غريبة .

ثم دخل به إلى ذلك الرجل فانحنى أمامه حتى كاد يبلغ الأرض وقال له : يا أيها المولى الخطير ، هو ذا سيّد سمع بشهرة جيادك وهو يريد شراء جوادين منها . فنظر الرجل شزراً إلى صاحب الفندق وقال له :

أبلغت منك الجرأة أيها الأبله أنك تزعجني بمثل هذه الأمور التافهة ؟ لِمَ لم تخابر أحد عمالي بهذا الشأن ؟ قال : أسألك العفو يا سيدي فقد حسبت أني أحسنت عملاً وحاشاي أن أتجاسر على إزعاجك . قال: حسناً ، فاذهب . ثم نظر الى رولاند وقال له:

— أرجو أن تعذرني لغيظي على هـــذا الرجل الذي حاول إزعاجي في ساعة أريد الخلوة فيها بباخوس [١] وفينيس [٢] . على أن هيئتك أعجبتني لغرابتها فاني أقسم بصدر مرغريتا انك أشبه بأهل القبور منك بأهل الحياة ، فهل تريد أن تجالسني ؟

فقال رولاند : أسألك المعذرة يا سيدي فان الوقت لا يتسع لي وقل اذا كنت تريد بيع جوادين من جيادك وكم ثمنها .

— الثمن .. الثمن .. ثم قام الى مائدة وضعت عليها صحون الطعام وأواني المدام وجلست حواليها صبيتان جميلتان كان يظهر أنها من المحظيات لخلاعة لباسها ، فشرب كأس خمر وقال : نعم اني سأبيعك جوادين من خيرة جيادي وهما نيتون وبلاتون لأني أريد السفر الى فينيسيا الجميلة مدينة الماء ، تلك المدينة التي يوحي جمالها أبدع الصور لخيال الشعراء ... ما بالك يا مرغريتا ؟ ألم تري كأسي قد فرغت ؟ نعم يا سيدي لا بد أن أشرّف فينيسيا بذهابي إليها وقد دعاني إلى زيارتها صديقي بمبو وغيره من أعيان تلك المدينة الزاهرة مثل فوسكاري حاكم المدينة !

فارتعش رولاند لسماع هذين الاسمين ولكنه ضبط نفسه فلم

١ – إله الخمر   ٢ – آلهة الجمال

يظهر على نفسه شيء من علائم التأثر . أما الرجل فانه استمرّ على كلامه فقال :

— يظهر يا سيدي أننا قد نسينا أمراً لا بد منه بين كبار الناس وهو التعارف حين الاجتماع ، ولكي أصلح هذا الخطأ أقول لك اني أدعى بيار آريتان .

وقد ذكر اسمه وانتظر أن يرى علائم الإعجاب من رولاند غير أن رولاند لم يظهر شيئاً فقال له آريتان : إني أدعى بيار آريتان كما قلت لك ، وأنت ماذا تدعى ؟ قال : إني يا سيدي مسافر يرغب في أن يشتري جوادين فهل تريد بيعها ؟

قال : أقسم بعنق شاريا وثغر مرغريتا أني أبيعك نيتون وبلاتون وهما جوادان تشرّفا بحمل بيار آريتان إلى مانتو ومن مانتو إلى فيرون ومن فيرون إلى أبادو ومن أبادو إلى ميستر . ولكنّ هذه أول مرة رأيت فيها رجلاً يسمع اسم بيار آريتان ولا يهتز إعجاباً بشهرته التي طبقت الخافقين ، فهل أنت غريب يا سيدي ؟

— نعم !

— لقد اتضح الأمر ، ولكن شهرتي قد تجاوزت حد إيطاليا فلا بد أن تكون قادماً من مكان بعيد جداً .

— هو ذاك !

— إذن أعذرك ولكنني سأتلو عليك بعض قصائدي الغراء كي تتحقّق من أن شهرتي تليق بي .

فهز رولاند رأسه إشارة إلى نفـــاد الصبر ، ورأى الشاعر

آريتان ذلك منه فقال له : نعم إنك مستعجل أيها الرجل الأصفر ولكن دعني أقول لك إنك إذا مررت بعد عشرة أيام بهذه المدينة تجدني فيها وقد تجد يومئذ ساعة فراغ لأني قبل أن أذهب إلى فينيسيا أريد أن أزور مغاور بياقا الكائنة فوق تريفيز . غير أنك مستعجل الآن ، فأخبرك بأني أوافق على بيع نيتون وبلاتون بخمسين ليرة وفي هذا البيع غبن علي ، ولكن هيئتك أعجبتني كما قلت لك في بدء الحديث .

فأخرج رولاند المبلغ من جيبه ووضعه على المائدة أمام الشاعر ، ثم انحنى أمامه وخرج رولاند بينما كان آريتان يعد المال .

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب عاد وقال : لقد قلت لي يا سيدي إنك صديق فوسكاري أليس كذلك ؟ قال : دون شك ، كما أني صديق أشهر أعيان فينيسيا .

— مثل الأسقف بمو ؟

— نعم ، فهو من خير أصدقائي فإذا احتجت إلى كتاب وصاية إليه أو إلى سواه من أعيان فينيسيا تعال إليّ فإني أرتاح إلى إفادتك لأنك دفعت لي ثمن الجوادين دون مساومة فهل تحضر ؟

— ربما .

وعند ذلك خرج رولاند من تلك الغرفة وبعد ربع ساعة كان يسير مع سكالا برينو على الجوادين في طريق تريفيز وقد وجد الجوادين على ما وصفهما الشاعر وأنه لم يغبن في الشراء بل

إن الشاعر كان مغبوناً في البيع .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصلا إلى تريفيز فاستراحا فيها هنيهة ثم واصلا سيرهما إلى جهة الشمال .

وكان رولاند يسأل الفلاحين الذين يمر بهم عن الطريق ، فما زالا يسيران حتى بدت لهما طلائع جبال الألب . وكان سكالا برينو كلما تقدما ينظر إلى ما حواليه نظرة قلق وحذر ورولاند يراقبه إلى أن وصلا وقد غابت الشمس عن القرية . فالتفت رولاند إلى سكالا برينو وقال له : أتعرف هذه القرية ؟ قال : نعم يا مولاي ، فقد أتيت إليها مرة .

— وماذا تدعى ؟

— قرية سرفيزا .

فردّد رولاند : سرفيزا ... ثم أوقف جواده وجعل يحدق بنظره إلى بيوت واطئة مبنية تحت قمة كانت تجري المياه من تحتها .

فذهل سكالا برينو لوقوف رولاند واحترم سكوته فلم ينبس ببنت شفة . أما رولاند فانه تمتم بكلمات لا تفهم ثم نزل عن جواده وأشار إلى سكالا برينو أن ينتظره وسار ماشياً الى تلك القرية . فلمّا وصل الى أول بيت من بيوتها وجد امرأة عجوزاً حقيرة الملابس جالسة على عتبة الباب فمشى إليها ، ولكنه وضع يده على جبهته وهو يقول : ترى أأجسر على سؤالها ؟ ثم تنهّد تنهداً طويلاً وقال في نفسه :

« إني بحثت عن أمي فعلمت أنها ماتت أشأم ميتة ، وبحثت

عن خطيبتي فعلمت أنها تزوجت بذلك الرجل السافل الذي
خانني فها أعلم الآن وقد أتيت للبحث عن أبي ؟ » .

وعند ذلك دنا خطوة من العجوز ولكنه توقف أيضاً إذ
سمع أصوات غلمان يتضاحكون والكلاب تنبح من حولهم وهم
محيطون بشيخ بيّضت شعره الأيام وطالت لحيته البيضاء وتمزقت
ملابسه وقد رفع عصاه يهدد بها الغلمان والكلاب ولكن الغلمان
كانوا يزيدون ضحكاً والكلاب نباحاً .

أما رولاند فانه عرف ذلك الشيخ لأول وهلة فشعر أن قلبه
قد وثب من صدره وهمّ أن ينقضّ على عصابة الغلمان ولكنه
رأى في تلك اللحظة أن أحد أولئك الصبيان التقط حجراً عن
الأرض ورمى بها ذلك الشيخ فألقى الشيخ العصا من يده وشغل
عن تهديد الصبيان بمسح الدم عن وجهه ، فان حجر الصبي أصاب
جبهة ذلك الشيخ المنكود .

وقد حاول ذلك الشقي أن يلتقط حجراً آخر ولكنه قبل
أن يفعل صاح صيحة ألم هائلة ، فان رولاند حمله بين يديه فهزه
فوق رأسه وحاول أن يضرب به أقرب جدار إليه .

ولكنه توقف فجأة قبل أن يفعل وقال للغلام : أسرع يا
بنيّ بالفرار وإذا تأخرت لحظة أقتلك . فنظر الغلام الى رولاند
وعلم من اتقاد عينيه أنه يقتله لا محالة فأمعن بالفرار و كذلك
بقية الغلمان . وعند ذلك دنا رجل من رولاند وقال :

ــ ألعلّك يا سيدي تعرف هذا المجنون ؟ فأجابه رولانه
بصوت أبح قائلاً : مجنون ؟ فدلّه الرجل على الشيخ ، أي على

كانديانو حاكم فينيسيا السابق ، أي على والده . فكبر ذلك على
رولاند حتى لم يعد يستطيع احتماله وسقط على الأرض
مغمياً عليه .

*

وعندما استفاق رولاند من إغمائه وفتح عينيه وجد أنهم قد
نقلوه الى منزل قريب وأنه جالس على كرسي . وقد رأى أمامه
ذلك الرجل الذي كلمه وهو ينظر إليه منذهلاً وأباه الشيخ
جالساً على كرسي وهو يبتسم ابتساماً لا يترجم عن معنى .

فقال الرجل لرولاند : إني يا سيدي مدير هذه القرية ، ولما
رأيت ما كان من عطفك على هذا الشيخ أدخلته الى هذا المنزل .
فنظر رولاند نظرة تقطع القلوب وأجاب المدير قائلاً : هل لك
يا سيدي أن تدعني وإياه ؟ فانحنى المدير وخرج من الغرفة .
وعند ذلك دنا رولاند من الشيخ وناداه بصوت منخفض
قائلاً : أبي !

فتزحزح الشيخ من مكانه كمن يحاول الإصغاء ولكنه لم
يجب على النداء. فعاد رولاند الى مناداته بلفظة أبي. فقال الشيخ:
إن أولئك الصبيان أردياء القلوب فاني كلما خرجت لأستنشق
الهواء ضربوني . فقال رولاند بصوت مختنق : أبي !

وقبض على يد الشيخ فقال الشيخ : واأسفاه ! إنه لم يبقَ
عدل في الأرض فأين عدل السماء ؟ قال : بل إن العدل موجود
يا أبي فقد أتيت اليك .. أبي أصغ الى ولدك . ألا تذكر ولدك

رولاند ؟ إني ابنك رولاند ... ألا يؤثر عليك هذا الاسم ؟

فكان الشيخ يصغي دون أن يبدو عليه شيء من عجائب الانذهال ولكنه أجاب رولاند فقال : ليس لي ولد ولم يكن لي قط بنون كما يعرف جميع الناس هنا . وفوق ذلك فإن الأولاد لا يحبونني بل يضربونني ويرمونني بالحجارة . فركع رولاند أمام أبيه وقال له : أبي ألم تعرفني من صوتي ؟

وقد قال هذا القول وهو يشهق بالبكاء. فقال له الشيخ : صوتك ؟ من أنت إذن ؟

— أنا ولدك ... ولدك رولاند ... أصغ يا أبي الى صوتي .

— لم يكن لي بنون ، أما أنت فإنك حنون رقيق القلب وإني أباركك لأنك تمسح وجهي وتجاملني فلا شك أنك من كرام الناس .

فنهض رولاند وطوّق رأس أبيه وجعل يقبّل شعوره البيضاء ثم قص عليه جميع ما اتّفق له وبسط له خيانة ليونور بزواجها وهو يرجو أن ينتبه بهذه التذكارات فيعود إليه صوابه ، ولكن الشيخ بقي على ما كان عليه ولم يظهر عليه شيء من الانذهال حين كان يسمع شهيق رولاند بالبكاء .

فسكت رولاند وقد هاجت براكين الحقد في صدره على أعدائه فلو تمثّل الانتقام في تلك الساعة لما مُثّل بغير صورته.

ومضى على ذلك برهة ورولاند واقف يتأمل في وجه أبيه الذي اطمأن من خوفه فنام . وعند ذلك فتح رولاند الباب ولقي المدير فقال له : إني أحب أن أقيم هذا الشيخ عندي فهل

تعارضني في ذلك ؟ قال : كلا ، فأنت دون شك ستثبت لي بالبرهان حقك بأخذه إليك .

— لا أستطيع أن أقدم برهاناً على هذا الحق ولكن هذا الحق صريح لا يحتاج الى برهان .

— ولكن ...

— كفى ! فقد تخلّيتم عن هذا الشيخ ستة أعوام وتركتموه يعاني أشد أنواع العذاب فيضربه الصغار ويضحك عليه الكبار وحسبك أني سأذهب به دون أن أقاضيك عمّا لقيه .

— خذه يا سيدي فاني لا أعارضك فيه لاسيما وإنّا لا نعرفه .

— ولكن قل لي كيف كان يعيش خلال هذه الأعوام الستة التي قضاها بينكم ؟

— من الصدقة العامة .

— ماذا تعني بالصدقة ؟

— إنه كان يطوف على الناس فهذا ينعم عليه بقطعة خبز وهذا يأذن له أن ينام عند بابه وهلمّ جرّاً بحيث لم ينم ليلة جائعاً فإن جميع أهل هذه القرية يحسنون الى الفقراء ...

فتنهد رولاند تنهداً طويلاً ثم ترك المدير وعاد الى أبيه فأخذ يده بين يديه وقال له بمنتهى الرفق : أتريد أن تذهب معي ؟

فقال له الشيخ : أأذهب من هنا ؟

— نعم .

— ألا أسمع بعد ذلك الضحك والصياح ؟

— كلا !

— ألا أسمع لعنات الناس حين ألتمس منهم القوت ؟

— كلا !

— ألا يضربني الصغار وتنهشني الكلاب ؟

— كلا ، كلا !

— إذن لنسرع بالذهاب .

— توكأ عليّ ولا تخشَ أن تتبعني فإني قوي .

وعند ذلك خرج الاثنان وبرحا تلك الغرفة حتى إذا وصلا الى حيث ينتظره سكالا برينو أصعد أباه الى جواده . وعند ذاك ترجّل سكالا برينو وقال : إركب جوادك يا مولاي وأنا أسير ماشياً . فهز رولاند رأسه بحيث فهم سكالا برينو أن الإلحاح محال فعاد الى جواده .

أما رولاند فانه أخذ بزمام جواد أبيه وسار به في جنح الظلام يتبعه سكالا برينو . وعندما وصل الى تريفيز قال رولاند لسكالا برينو بضع كلمات فانطلق بجواده الى جهة مدينة ميستر . ودخل رولاند بأبيه الى أحد الفنادق فاشترى له ملابس وأطعمه خير الطعام . وبعد الطعام نام كانديانو الشيخ نوماً هادئاً مطمئناً كما ينام الطفل وهو واثق من أن أمه بجانبه تحميه .

*

مضى على ذلك ثلاثة أيام لم يفارق رولاند أباه لحظة في خلالها وكان لا يفتر عن محادثته فلا يجيبه أبوه إلا بكلمات مبهمة لا

علاقة لها بالحديث .

وفي الليلة الثالثة أقبل سكالا برينو تصحبه جوانا فخرج رولاند من الفندق وطاف في المدينة باحثاً عن منزل فوجد منزلاً صغيراً تحيط به حديقة فاستأجره ثم عاد الى الفندق فأتى بأبيه وبجوانا إليه وقال لجوانا : أتعرفين هذا الرجل ؟ قالت : كلا . قال : إنه أبي ! فضمت جوانا يديها وقالت :

— مولاي كانديانو حاكم فينيسيا !

— كلا يا جوانا ، بل هو كانديانو الأعمى المجنون المضطهد ! بل هو والد رولاند الهارب من آبار فينيسيا ! فاعلمي يا ابنتي أني سأعهد إليك بأبي ، أي بذلك الرجل الذي لقي من العذاب ما لم يلقه سواه فدفعه اليأس الى البلاهة . وإنما أعهد به إليك لأني لا أثق بسواك فأئتمنه على هذا الكنز الثمين عندي . واعلمي أني مؤتمنك به على حياتي فهل تعدينني بالحرص على راحته وهل أستطيع أن أسافر قرير البال !

قالت : إني أقسم بتلك المرأة المقدسة التي كانت تدعوني بنتها أني سأجعله يعيش أهنأ عيش .

وأقام رولاند بقية هذه الليلة مع أبيه وعند الصباح ودّع جوانا وامتطى جواده فسار مع سكالا برينو في طريق تريفيز . حتى إذا بلغاها سارا في طريق مغاور بيافا ، فلما وصلا الى قرية تريفيز اخترقا الجبل وبدت على سكالا برينو علائم القلق فقال له رولاند : أتعرف هذه الطريق ؟ فأجابه بصوت أجش قائلاً : نعم . قال : الى أين تؤدي ؟ قال : الى مغاور بيافا يا مولاي .

*

وهنا ترجل رولاند عن جواده واقتدى به سكالا برينو فربطا الجوادين الى شجرة وجلسا على صخر فوقف سكالا برينو وجعل يمشي من حين الى حين وعلائم القلق بادية عليه الى أن قال : أرى يا مولاي أنه خير لنا أن نعود . قال : لماذا ؟ فإني أحب أن أرى مغاور بيافا . فارتعش سكالا برينو وقال : مغاور بيافا ؟

قال رولاند : نعم ، فقد طالما سمعت الناس يتحدثون عنها حتى أن ذلك الرجل الذي اشتريت منه الجوادين قال لي إنه يريد زيارتها لجمال مناظرها الطبيعية . قال سكالا برينو : لا أجزم بجمالها فقد كنت أرى مناظرها وحشية ولكن الذي أعلمه علم اليقين أنها شديدة الخطر .

— وأي خطر علينا ؟ أتخاف أن يسقط جوادانا في هوّة مع أنهما قويان ويظهر أنهما متعودان السير في الجبال ؟

— ليس هذا الذي أخشاه يا مولاي .

— إذن ما الذي تخشاه ؟ العصابات في ثكناتهم ومغاورهم وحصونهم ؟ فذهل سكالا برينو وقال : أتعلم أنه يوجد مغاور وحصون ؟

— كلا ، ولكنني أقول لك ذلك على سبيل الظن !

— إذن فاعلم يا مولاي أنه يجب الخوف من هذه المغاور وخير لنا أن لا نتقدم كما قلت لك .

— يظهر أنك خائف .

— نعم يا مولاي ، ولكن خوفي عليك لا عليّ .

— قل لي ما الذي تخافه ، فقد تبين لي أنك عارف هذه الجهات حق العرفان . فقال له بصوت منخفض : إني أخاف عليك يا مولاي من أصحابي القدماء .

— أوضح لي ما تقول .

فجعل سكالا برينو ينظر الى ما حواليه وما بين الصخور فقال له رولاند :

— إني مصغ إليك . فقل دون تهيب . قال : ليس خوفي مما سأقوله ومع ذلك فاسمع . إنك لا تجهل يا مولاي ما كنت عليه من قبل وتلك الليلة التي لقيتك فيها لأول مرة .

قال رولاند : نعم ، لقد كنت من اللصوص ولكن لماذا تخفض نظرك استحياءً فإن تلك المهنة التي كنتَ تمتهنها أشرف من مهنة الدوج ورئيس ديوان التفتيش والكردينال . فاعلم أيها الرفيق أن اللص الحقيقي لا يوجد في مغاور بيافا بل في تلك القصور .

— لا أفهم مغامزك فيما تقول يا مولاي ولكني أعجب بك وأتأثر لكلامك وأحسب نفسي أني كنت قبل أن أعرفك من الوحوش الضارية .

– كلا بل إنك رجل اضطررت الى الصدام في معترك الحياة بالسلاح الذي لقيته وعزاؤك أنك لم تسرق غير النقود . على أنه يوجد لصوص يسرقون مـــا هو أثمن من الكنوز . فإني أعرف رجلاً سرقوا له خطيبته وكان يعد نفسه سعيداً لو استعاضوا عنها بسرقة كل ماله . وأعرف قوماً يقتلون الناس قتلاً أشدّ من قتل الخناجر والبنـــادق وهم يجولون شامخي الأنوف ويحترمهم الناس . فاعلم أنه لا يجب أن تخجل لماضيك فقـــد حاربتَ بسلاحك في معترك الحياة فقل لي هل قتلت ؟

– نعم لقد قتلت بعض جنود كانوا يطاردونني ويحصرونني .

– أتحسب أن الأبطال في الحروب يفعلون غير ما فعلت ؟ ألست أنت الذي اختطفت مرة اثنتي عشرة عذراء وأرجعتهن دون أن تمسّهن بسوء ؟

– نعم ، فقد وجدت نفسي حقيراً ذليلاً إذ استعنت بقوتي على ضعف النساء فما لقين مني غير الإكرام وما سلبتهن غـير ما كان عليهن من الحلى .

فقال رولاند : أين أنتم يا بيو وفوسكاري وأليناري ومـا أحوجكم الى تلقي دروس الانسانية عن هـــذا اللص وأنتم كردينال ودوج وقائد !

فأطرق سكالا برينو مفكراً وجعل رولاند ينظر إليـه مشفقاً ثم قال له برفق : أتمّ حديثك .

قال : لقد قلت لك يا مولاي إني كنت زعيم فرقـــة من اللصوص كانت منطقة نفوذهـا متصلة من تريفيز الى فينيسيا .

وكنا نغير أحيـاناً على فينيسيا تارة بطريق البر وطوراً بطريق البحر . أما مركزنا العام فقد كان في هذه الجهات ، أي في مغاور بيافا .

– إذن لقـد كنت قائد جيش حقيقي وكان لك اسطول وفرق من المشاة والفرسان .

– هو ذاك يا مولاي . فقد كانت عصاباتنـا تشبه جيشاً منظماً إذ يبلغ عددها نحو ألف رجل مسلحين أشداء لا يكترثون للصعاب ولا تقف جرأتهم عند حد .

فاتقدت عينا رولاند ببـارق ما لبث أن انطفأ . ومضى سكالا برينو في حديثه فقال : أما أنا فلم أكن غير زعيم عصابة يبلغ عددها خمسين رجلاً .

– إذن لقد كان لكم رئيس عام يدير حركات العصابات ؟

– كلا يا مولاي ، ولكن عصاباتنا كانت متفقـة مؤتلفة تتعاون وتقتسم ما تغنمه بالعدل والقسط . وكان للبحارة الذين ينقلوننا حظ من غنائمنا . وعلى الجملة فقـد كنا شبه عصابة واحدة .

– ألم تقل إن عصابتك كانت تختبىء في مغاور بيافا ؟

– لم أقل إننا كنا نختبىء فيها يا مولاي بل قلت إنها كانت مركزنا العام نجتمع فيه للمداولة والقسمة ، ومـا خلا ذلك فإن كل عصابة كانت تقيم في منطقة نفوذها وتتفرق في البلدان التابعة لها ، فكنت أنا أقيم في فينيسيا مع خمسة عشر رجـلاً من عصابتي .

– إذا كان ذلك كما تقول فكيف تخاف عليّ من هذه المغاور؟

– مولاي إن ذلك يضطرني الى أن أروي لك رواية خاصة بي ، ولكني أخشى أن يتولاك الملل .

– كلا ، بل إن حديثك يفيدني فامض فيه .

– إذن فاعلم أنه كان يوجد في عصابتي رجل كنا ندعوه ساندريجو لأنه ولد في تلك المدينة التي سميناه باسمها . وكان هذا الرجل شجاعاً جسوراً يشبهني بالقوة ، فكانت حالتنا على أتمّ الوداد وإن يكن يبدر منه بعض الأحيان ما يدلّ على أنه كان يودّ لو تولّى الزعامة مكاني .

وقد اتفق لنا يوماً حادثة غريبة حدثت منذ خمسة عشر عاماً أي قبل أن أسجن بتسعة أعوام. وذلك أني كنت جالساً هنا.. في نفس المكان الذي تجلس فيه أنت الآن، وكنت أنتظر عودة ساندريجو لأني كنت أرسلته في مهمة . وبعد قليل رأيته أقبل مع رجاله وبينهم امرأة في مقتبل الشباب لم تقع العيون على أجمل منها ، وأعترف أني دهشت لجمالها مع أني لم أكن اكترث لجمال النساء .

والغريب في أمر هذه المرأة أنها لم تكن جازعة وهي بين أيدي اللصوص بل إنها كانت تضحك . فسرنا بالمرأة وخادميها الى إحدى مغاورنا وهي تبتسم في حين أن الخادمين كادا يموتان من الرعب . وهناك طلبت أن تخاطب الرئيس . فقلت لها : أنا هو يا سيدتي فاطمئني إذ لا نمسك بسوء .

فنظرت إليّ نظرة غريبة وقالت : إني غير خائفة وإني

سأعطيكم كل ما لديّ من النفائس بشرط أن تطلقوا سراحي اليوم فإني مضطرة الى سرعة الوصول الى روما . فقلت : إننا سنطلق سراحك الآن إذا أردت .

– كلا ، فإني تعبة وأحب أن أستريح ساعة .

وقد أثرت هذه المرأة تأثيراً عظيماً عليّ حتى تمنيت أن أطلق سراحها دون أن تسلبها . غير أن نظرات رجالي الى حليها ثنتني عن هذا العزم فإنهم يثورون عليّ دون شك إذا حرمتهم منها ولا سيما وقد رأيت أنها هي نفسها غير مكترثة لهذه الجوهرات الثمينة لأنها كانت تنزع أساورها وخواتمها وعقودها وأقراطها بيدها فتلقيها أمام قدمي وهي تضحك وتقول : خذ ... إلتقطّ هذه الثروة .

فدنوت عند ذلك من ساندريجو وقلت له : خذ حصتي أيها الصديق من هذه المجوهرات فإني لا أمسها . فهز ساندريجو رأسه وأشار الى اللصوص أن يقتسموا الحلى بينهم ثم مشى إليّ ويده على قبضة خنجره فقال : إني لا أريد الحلى بل أريد المرأة .

فقلت له : ما هذا العبث يا ساندريجو وأنت تعرف شرائعنا ؟

قال : هو ذاك . غير أني اليوم لا أمتثل إلا لشرائعي .

فصعد الدم الى رأسي وجردت خنجري، فأسرع رجالنا الى المداخلة بيننا ولكنهم أجمعوا كلّهم على وجوب تعديل شرائعنا فيما يتعلق بالنساء . وعند ذلك أقبلت إلينا تلك المرأة وقالت لنا بلهجة الساخر : أرى أنه لا بد لي إلا أن أكون اليوم لواحد منكم .. حسناً فاني أرضى بذلك وسيفتخر من ينالني حين

يعرف من أنا ولكني أقترح شرطاً ...

فصاح الجميع قائلين : إننا نقبل شرطك مقدماً وقد أخذوا بجمالها الفتان ودهشوا لجرأتها النادرة .

فقالت المرأة : إن شرطي هو أن أتولى بنفسي اختيار رجل منكم . قالوا : نعم . قالت : وبعد ذلك أتطلقون سراحي ؟

فأشار ساندريجو إشارة دلت على أنه يرضى بهذا الشرط إذ كان يرجو أن يقع عليه اختيار هذه الحسناء . وكنت أنا أعتقد هذا الاعتقاد فتراجعت الى الوراء وأغمدت خنجري ...

وهنا توقف سكالابرينو عن الحديث ثم قال: ألم تضجر لحكايتي يا سيدي ؟ فأجابه رولاند قائلاً : لقد قلت لك إن حديثك يلذ لي ولا سيا هذه الحادثة فقد خيّل لي بسماعها أني أقرأ حكاية ألف ليلة وليلة .

فمضى سكالا برينو في حديثه فقال : أما تلك الحسناء فإنها أخذت تجيل نظرها بين الرجال فكنت أرى وجوههم تصفرّ ، الى أن استقرّ نظرها على ساندريجو فشعرت أن وجهي قد اصفرّ أيضاً . ولكنها مرت به ونظرت إلي فأخذت بيدي وقالت :

— هذا هو الرجل الذي اخترته .

فشعرت عند ذلك باضطراب لم أشعر بمثله في حياتي . أما ساندريجو فانه صاح صيحة منكرة وخرج ساخطاً مغضباً من المغارة . وأما أنا فإني كنت أرتجف سروراً لهذه النعمة التي هبطت إلي من السماء فأخذت الحسناء وسرت بها وهي تضحك الى مغاور بعيدة وقد أسندت عنقها الى كتفي فلو عشت أجيالاً

لما نسيت هذه الساعة .

ولما خرجنا من المغارة سألتها عن اسمها وقد قلت لها إني أكون عبدها وإني أتبعها الى آخر الأرض ، فقهقهت ضاحكة وقالت : لم تحدث لي في حياتي حادثة ألطف من هذه الحادثة.

فعلمت أن هذه المرأة عابثة بي ولم يكن لي حق عليها بعد أن وفت بعهدها فوفيت بعهدي وأطلقت سراحها فسارت مع خادميها الى روما . فقال له رولاند : ألم تعرف اسم هذه المرأة فيا بعد ؟

— كلا .

— ألم ترها ؟

— لقيتها مرة في فينيسيا وخيّل لي أني عرفتها .. ولكن كلا ! فإن ذلك لا يمكن أن يكون .

— أتقول إنك لقيتها في فينيسيا ؟

— نعم ، ولكني قلت لك إني كنت منخدعاً إذ لا يمكن ان تكون هي . أما الآن وقد مضى ستة أعوام ...

— ستة أعوام ... إذن هذه المرأة التي حسبت أنك عرفتها كانت ...

— كانت تلك الحظية التي أغرتني بالمال كي أختطفك. ولكني أحسب نفسي مخطئاً .

فأطرق رولاند مفكراً ثم قال : حسناً، إمض في حديثك .

قال سكالا برينو : هذه هي حكايتي يا مولاي وإنما اضطررت الى قصها لأخبرك بأن ساندريجو قد حقد عليّ منذ ذلك اليوم

حقداً هائلاً وقد خشي مني لأنه يعلم أن نفوذي عظيم بين رجال العصابة . ولكنه بعد القبض عليّ أصبح زعيم العصابة دون شك وهو يحكم في هذه الجهات كما كنت أحكم من قبل . فاذا لقيني وعرف مقدار خضوعي لك يتحول ذلك الحقد إليك فيقدم اليوم على ما لم يجسر عليه من قبل .

– أكان ساندريجو في فينيسيا يوم الثورة ؟

– نعم يا مولاي ، وقد ذكرت أمراً لم يخطر لي غير الآن .

– ما هو ؟

– هو أنهم حين قبضوا على الجواسيس خيّل لي أني رأيت ساندريجو بينهم .

– إذن لقد انتقم منك ؟

– نعم ، ولكنها نذالة لم يرتكبها أحد من رجال عصابتنا وقد كنت أحسب أنهم قبضوا عليه فيما له من خائن سافل .

– وماذا تظن كان دوره في هذه الرواية الهائلة التي مثّلها بمبو ؟

– لقد عادت إلي الآن تلك التذكارات كلها .

– ماذا ذكرت ؟

– ذكرت أنه حين جاءني بمبو الأسقف كان ساندريجو الذي أتاني به . وقد اتضح لي الآن أن ساندريجو كان يأتمر عليّ وأنه كان يبيعني ويبيعك بيع السلع .

– إذا كان ذلك فهل تشير عليّ بعد الآن بالرجوع ؟

– كلا ، كلا يا مولاي . فهلمّ بنا الى المغاور إذ لم تعد تطيب

لي الحياة إلا بلقاء هذا السافل .

وعند ذلك سمعت صيحة بعيدة ثم تلتها صيحة ثانية ، فأمعن سكالا برينو وقال : إن هذا الصوت من المغارة السوداء .

– إذن هلمّ بنا اليها .

– والجوادان ؟

– نجدهما هنا ، فدلّني على الطريق .

فمشى سكالا برينو وتبعه رولاند وسار الاثنان بين تلك الصخور فكانا كلما اقتربا يقترب الصوت منهما . وبعد مسير خمس دقائق وقف سكالا برينو وأشار الى رولاند أن يلزم الصمت ، ثم دنا من الأدغال فأزاحها وأومأ الى رولاند أن يدنو ويرى ، فدنا فرأى باب مغارة مظلمة عرف أنها المغارة السوداء، ورأى على يمينها سلسلة صخور تنتهي بهاوية وبين الهاوية والمغارة رأى رجلاً مربوطاً الى شجرة وأمامه رجل آخر كان جالساً على صخر يسأله أسئلة لم تصل الى مسمعه . ووراء هذا الرجل نحو اثني عشر رجلاً وكلهم مدججون بالسلاح .

فلما رأى رولاند الرجل المربوط ارتعش وكذلك سكالابرينو فإنه حين رأى الرجل الذي يسأله ضمّ قبضته متوعداً . وذلك ان الرجل المربوط كان الشاعر الذي اشترى منه رولاند الجوادين في ميستر وذلك الرجل السائل كان ساندريجو .

وقد كان ساندريجو يقول للشاعر في تلك اللحظة :

– كفاك عناداً أيها السيد آريتان ، فإن حياة رجل شهير مثلك تساوي أكثر من ثلاثة آلاف ريال .

فأنّ آريتان أنيناً مزعجاً وقال :

– يا حضرة اللص من أين تريد أن آتيك بهذا المبلغ العظيم ؟

فقال له ساندريجو :

– وأنا أقول لك يا حضرة الشاعر إنه يوجد هنا ورق وحبر وجميع أنواع أدوات الكتابة ولك الخيار بين ان تكتب بالنثر أو بالشعر .

– ماذا تريد أن أكتب ؟

– أريد أن تكتب الى أحد أصحابك في فينيسيا تسأله هذا المبلغ ولك كثير من الأصدقاء في تلك المدينة فلا يتأخر أحد عن إرساله إليك . وعند ذلك يذهب أحد رجالي بكتابك الى فينيسيا في يومين ويعود منها في يومين فيكون المجموع أربعة . ولنفرض أنه يقتضي أربعة أيام أيضاً كي يستطيع أصحابك إحضار هذه القيمة فتكون الجملة ثمانية أيام .

فصاح الشاعر صيحة رعب ويأس . ولكن ساندريجو لم يعبأ به واستمر على حسابه فقال : إننا الآن في الساعة التاسعة من مساء الخميس ، فإذا لم ترد الثلاثة آلاف ريال في مثل هذه الساعة من الخميس القادم أتشرف عند ذلك يا حضرة الشاعر الشهير بأن أقتلك بيدي فإني لا أدع هذا الشرف لسواي من رجالي .

فقال آريتان بصوت مختنق : الوداع ايتها الحياة الزاهرة فقد قُضي عليّ أن أموت وبقلبي مخدّراتُ معانٍ نزلت عليها الحجال ... وقد همّ ان يندفع ولكن لسانه انعقد فجأة إذ رأى أن الأدغال الحاجزة بينه وبين الطريق قد فتحت وظهر له رولاند

الذي وثب من بينها ومشى الى ساندريجو .

أما سكالا برينو فإنه اقتدى به وسار الى رجاله القدماء فقال بصوت جهوري : إنكم تفعلون هنا ما تشاؤون كأنكم لا تنتظرون عودتي ! فصاح جميع اللصوص منذهلين : سكالا برينو .. سكالا برينو !

أما ساندريجو فحين رأى رولاند أمامه نهض من مجلسه مسرعاً وخنجره بيده وحاول أن يهجم عليه . ولكنه وقف وصاح صيحة ألم فإنّ رولاند انقضّ عليه وقبض على يديه بيديه القويتين فسقط خنجره من يده وشد رولاند عليه حتى اضطره الى الركوع أمامه .

أما أولئك اللصوص الذين استقبلوا سكالا برينو بالفرح فإنهم التفوا عند ذلك حول رولاند وهم ينظرون إليه نظرات إعجاب .

فقال لهم سكالا برينو : دعوه يفعل به ما يشاء واعلموا أن كل من يتقدم منكم لنصرته يكون مقرّه هذه الهاوية . فتراجع اللصوص ممتثلين لسكالا برينو ولا نعلم إذا كان ذلك لميلهم الى زعيمهم القديم أو لأنهم كانوا يكرهون ساندريجو وقد رأوه صريعاً عند قدمي رجل غريب وهو يصيح من الألم .

وقد حدثت هذه الحادثة في زمن وجيز وكان لقوة رولاند تأثير عجيب عليهم ولا سيما حين رأوه غلب ساندريجو الهائل دون أن يبذل جهداً أو يبدو عليه شيء من علائم الحدة فإنه كان يبتسم .

وأما رولاند فإنه بعد أن أكره ساندريجو على الركوع قبض على عنقه وجرّه إلى الهاوية وهناك حمله بيد واحدة وأدلاه إلى تلك الهاوية فكان إعجاب اللصوص بهذه القوة لا يوصف . وانقطع سكالا بريتو عن الاهتمام بهم لأنه كان خبيراً بأخلاقهم.

وما زال رولاند على حاله مع ساندريجو إلى أن أكرهه على التماس العفو فرفعه وألقاه على الأرض ثم قال له : انهض وفكّ قيود الأسير .

فنظر ساندريجو إلى رولاند نظرة دموية وقد خطر له أن يهجم عليه ولكنه شعر لفوره أنه مغلوب لا محالة وذهب ذليلاً إلى الأسير فحلّ قيوده . فأسرع الشاعر إلى رولاند فأوقفه رولاند وقال له : إني أريد محادثتك يا سيدي فتفضل بالدخول إلى هذه المغارة وانتظرني فيها قليلاً .

قال : إني أنتظرك أياماً بل أعواماً أيها الرجل الكريم فإننا لسنا الآن في مغاور الجن بل في جنة الخلود ...

وقد حاول آريتان أن يندفع بأوصافه غير أن رولاند أشار إليه بأن ينتظره في المغارة ، وعاد إلى اللصوص فقال لهم : لقد رأيتم ما فعلت وما أستطيع أن أفعل فمن يريد منكم أن أولى زعامتكم ؟ فصاحوا جميعهم قائلين : كلنا .. كلنا .

قال : إنكم تعيشون أشقى عيش ولا تقدمون إلا على صغار الأعمال ، فمن منكم يريد أن يقدم على الأعمال العظيمة ويكون اسمه خالداً في سجل الأبطال ؟ قالوا : كلنا .

قال : حسناً ، فتفرقوا الآن وعودوا إلى موافاتي هنا عند

انتصاف الليل وأحضروا الغائبين منكم وأخبروهم أنه جاءكم رجل يريد أن يفتح لكم أبواب الثروة ويجعلكم من عظماء الرجال ! إذهبوا وعودوا عند انتصاف الليل .

وقد كان رولاند يتكلم بلهجة مروّض الأسود حين يدخل أول مرة إلى قفص تلك الوحوش التي يريد ترويضها ، فصاح الجميع هاتفين له وانصرفوا دون أن ينظروا نظرة إلى ساندريجو لشدة إعجابهم برولاند .

وقد أراد ساندريجو أن يقتدي بهم وينصرف ولكن رولاند أشار إشارة إلى سكالا بريتو فدنا منه وقال له : إبقَ ، فإن الرئيس يريد أن يكلمك .

غير أن ساندريجو قهقه ضاحكاً وأسرع إلى الحرب فاندفع إلى الهاوية فنزل إليها بطريق خطر فأدركه سكالا بريتو وهو يزبد من الغيظ فرآه نزل إلى تلك الهاوية متمسكاً بحجارتها البارزة فقال : لو كان لديّ بندقية لما نجا مني هذا الخائن .

أما رولاند فقد كان مطرق الرأس مسترسلاً إلى التفكير كأنه لم يرَ شيئاً مما كان ، وبعد هنيهة دخل إلى تلك المغارة التي كان آريتان الشاعر ينتظره فيها . فلما رآه آريتان على نور المشعل صاح صيحة دهش وقال : ألستَ أنت الرجل الغريب الذي لقيته منذ بضعة أيام في ميستر وبعته جوادين ؟ قال : نعم ، أنا هو . قال الشاعر : لو تعلم يا سيدي ما أصابني ! ألا لعن الله تلك الساعة التي خطر لي فيها أن أزور هذه المغاور ، فقد نهب اللصوص أمتعتي وهرب جميع خدامي وكاد الخوف يقضي عليّ

إلى أن أتيت فأنقذتني ...

فقاطعه رولاند قائلاً: أتحسب أني سأطلق سراحك؟ فاصفر وجه الشاعر وقال : أليست هذه نيتك ؟

– إن ذلك خاصّ بك وموقوف عليك .

– ماذا تريد أن أفعل يا سيدي؟ فإن آريتان معروف بحفظ الجميل .

– يجب أن تعلم قبل كل شيء أنــك في قبضة يدي ، وأني أستطيع أن أردك إلى هؤلاء اللصوص الذين سلبتهم ثروة بإنقاذك من بين أيديهم .

– إذن ماذا تريد مني ؟ قــل يا سيدي وإني أقسم بشفة مرغريتا أنك تخيفني بكرمك فوق مـا كان يخيفني ذلك اللص بإنذاره .

– إن الذي أريده هو أن أعقد محالفة معك ، فقد عرفت فيك صفات لا تدل عليها ظواهرك فهل أنا مخطىء ؟ إن جفنيك المضطربين وفمك الذي يشبه فم السرطان ورأسك الذي يشبه رأس الذئب كل ذلك يدل على أنك من أهل التهتّك والاسترسال إلى الملاذ التي لا تستطيع أن تعيش إلا بها . فإذا كنت يا بيار آريتان كما يتوهم الناس شاعراً تقتصر على نظم الأشعار وبما تبرزه من جميل الأفكار ، فاذهب إلى حيث تشاء فإني أطلق سراحك في الحال. وإذا كنت ذلك الرجل الذي وصفته فابقَ... والآن هل تريد أن تذهب أم تؤثر البقاء ؟

قال : بل أبقى !

بيار آريتان

*

كان بيار آريتان من الشعراء المشهورين في ذلك العهد حتى لقد صنعوا له تمثالاً . وقد تناولته أقلام الكتاب المعاصرين فكان من الذين كتبوا عنه فيلاروت شاسل الذي كتب عنــه فصلاً مسهباً سنة ١٨٨٤ في «مجلة العالمين» ولكنه لم يأتِ به على حقيقة أوصافه لاختلاف المؤرخين في حقيقة هــذا الشاعر . ولكنّا سنمثله للقراء بما لم يمثله سوانا من الكتاب علنّا نميط الحجاب عما يحيط به من الألغاز .

ظهر وجه آريتان في المغارة السوداء على نور المشعل الذي أناره سكالا برينو فتبيّن للأنظار أنه رجل عالي القامة أسود اللحية أنيق شديد العناية بلباسه وبلحيته على الأخص . وكانت هيئته بجملتها تدل على أنــه جوّاب آفاقٍ جسور يعرف أن يعبث بالناس .

فكان سكالا برينو ينظر إليه وإلى رولاند ويوازن بــين الاثنين فــيرى رأس الشاعر يشبه رأس الذئب ورأس رولاند يشبه رأس الأسد وأن الفرق بين الرجلين بالأخلاق بعيد كبعده

بين هذين الحيوانين .

وقد بدأ الشاعر الحديث فنظر إلى رولاند وقال : إني أحترمك لأنك عرفت مني ما لم يعرفه أحد سواك ، وعلمت أن لي من الصفات غير صفة الشاعرية. فاسمح لي أن أقول لك أيضاً إني حين رأيتك المرة الأولى في مدينة ميستر رأيت فيك رجلاً شديد البأس ثابت الجنان، غير أني وثقت بك لفوري ثقة لا حدّ لها. والآن فإني أقول لك مَن أنا وماذا أريد أن أكون فاسمع .

إني هَيّ بن بَيّ ، أي أني رجل مجهول النسب أدعى باسم القرية الصغيرة التي ولدت فيها . ولا ثروة لي ، إذ ليس لديّ درهم يزيد عن حاجاتي . وليس لي أب يُعرف ، فقد يكون أبي من أمراء الكتيبة وقد يكون من صعاليك الناس . وكانت أمي من المومسات وقد ماتت في المستشفى بين كثيرات من أمثالها . أما أنا فقد امتهنت مهناً مختلفة حقيرة حتى أني كنت في مصافّ الخدم . نعم لقد كنت خادماً ولا تزال آثار الضرب بادية على ظهري .

هذا أنا يا سيدي فاسمع ما أريد أن أكون : إني أشعر بأن نفسي العظيمة تسع كل الوجود وأحس بضميري يتوقّد ذكاءً في رأسي ، وأعتبر أن من الحيف والظلم أن أقف وقوف الخدم في تلك الوليمة الكبرى ، وليمة سعادة الحياة ، لأني مجهول النسب. وأرى من الخرق والبلاهة أن يتقلد الأحكام والسيادة على الناس أولئك الذين يعدّونهم نبلاء لأن آباءهم كانوا يلقبون بألقاب النبل الموضوعة المنافقة .

نعم إني ليس لي لقب ولكني أريد نصيبي من هذه الحياة . فإن الشمس تشرق على جميع الناس دون تفريق وأريد أن يكون نصيبي عظيماً موافقاً لنفسي العظيمة . أريد أن أكون غنياً قوياً قادراً يهابني الأغنياء ويخافني النبلاء ويعاملني الملوك والأمراء معاملة الأكفاء . ولا أستطيع بلوغ هذه الأمنية إلا بسلاح واحد لا تأثير له بيد سواي ، وأما بيدي فهو السلاح القاتل ...

وعند ذلك أخذ قلماً عن المائدة ولم يمسكه بأصابعه بل قبض عليه كما يقبضون على الخنجر وهزه بيده كما يهز الفارس الرمح وقال : هذا هو سلاحي. نعم هذا هو سلاحي ، ويا طالما سحقت به الكبراء والأغنياء وذللت به نفوس النبلاء وقتلت بنفثات هجائه كما يقتلون بالسم أو الخنجر !

إني أمد هذا القلم إلى الدواة فلا يلتقط حبراً بل سماً نقيعاً ركّبتْ مواده من القذف والوشايات والنمائم التي تطوف جميع أنحاء العالم فتقضي على المقذوف به القضاء المبرم . وهذه هي قوتي التي لا يستطيع أن يتغلب عليها أحد .

إني لا أبغض الناس ولكني أحب ذاتي حباً لا ينتهي عند حدّ ، فإني أريد السعادة المطلقة لهذا الحي الممتاز وهو « أنا » . وإني أريد لنفسي كل هناء ماديّ لا أستطيع بلوغه إلا بالقوة .

ثم إني ليس لي أعداء ، ولا أعجب بأحد في العالمين إلا بنفسي ، فإذا أساء إليّ قدير أو أمير يكون أول همّي أن أستخدمه في سبيل هنائي فإذا فزت بذلك بات من أصدقائي .

وإذا غمرني رجل بإحسانه يكون كل همي أن أبحث إذا كان يستطيع يوماً أن ينغص صفائي بهذا الإحسان ، فإذا كان ذلك بات عدواً لي . أي أني أستجلب الأول بالتملق وأتقي الثاني بالحذر وأنا متأهب في كل لحظة لتغيير الحالتين .

هذا أنا يا سيدي وهذا الذي أريد أن أكونه فمن أنت ؟

فلم يجبه رولاند لفوره على سؤاله وقال له : إنك بحت بمكنونات صدرك لرجل غريب وحادثته كما كنت تناجي نفسك . وهذا خطأ لا ينطبق على خطتك وحذرك . فابتسم الشاعر وقال :

— إني يا سيدي من أشد أهل الأرض كسلاً حتى لقد بلغ من كسلي أني أتمنى لو أحاط بي الخدم ساعة الطعام ففتح أحدهم فمي ووضع غيره اللقمة فيه وحرّك آخر فكّي كي تمضغ أسناني الطعام . ولو بحثت بحثاً فلسفياً لوافقتني على امتداح هذا الكسل فما هو في تحديد الفلاسفة غير الامتناع عن كل عمل متعب والراحة مطلب كل إنسان ، فمن استطاع أن لا يعمل فقد بلغ قمة المجد الإنساني .

ولكني على فرط كسلي اضطررت إلى اختراع وسائل تسهّل لي الكسب ، فاضطررت مكرهاً إلى العمل وأجهدت نفسي فيه جهداً عنيفاً عشرة أعوام .

والآن فقد وجدت هاتين الوسيلتين إذ ليس لي سواهما . أما الوسيلة الأولى فهي حفظ الأفعال والقوافي وجميع تعابير المدح والثناء والقذف والهجاء . وأما الثانية فهيمعرفة دخائل القلوب

بالنظر إلى الوجوه فأكون في الأولى كاتباً وفي الثانية قارئاً .
ولذلك وثقت بك وكشفت لك أسراري دون أن أعرفك لأني قرأت دخائل نفسك .

— ماذا قرأت ؟

— قرأت الإخلاص البحث والوفاء المحض . على أني وإن كنت أعدّ الإخلاص ضعفاً فإن ثقتي بك لا حدّ لها ولا أخشى أن تحتقرني لما سمعته من كلامي .

فقال له رولاند : لقد سمعت من كلامك ما دلّني على أن لديك كثيراً من الصفات التي تعينك على تنفيذ الخطة التي رسمتها لنفسك . ولكني أنا أعرف مثلك دخائل القلوب وقد تبين لي أنه ينقصك صفة لا بدّ لك منها لتنفيذ مآربك .

— ما هي ؟

— الشجاعة .

فاصفرّ وجه آريتان وقال : الشجاعة ؟ قال : نعم ، فإنك جبان وخوفك يحول دون تحقيق رجائك ، فإن من يريد أن يخرج عن أطوار الإنسانية يجب أن يكون متأهباً لاستقبال الموت وهو الكسل الأكبر .

— قد عرفت لأول وهلة موضع ضعفي . نعم إني جبان ، وما ذلك إلا لإفراطي في حب الحياة وملاذّها حتى أن خاطر الموت وحده يقلق راحتي وقد بذلت كل ما يمكن بذله لأشفي نفسي من هذا الداء فذهب جهدي عبثاً وأيقنت أني لا أبلغ مآربي ما زلت مريضاً بهذه العلة .

فوضع رولاند يده على كتفه وقال له : أتعتقد أني شجاع ؟

قال : بل أعتقد أن الشجاعة لو صوّرت لمثّلت برسمك وأنت تستقبل الموت كمن يجد الراحة فيه . بل إني توسمت فيك أنك تكره الحياة وأنها باتت ثقيلةعليك فأعجب كيف أنك لم تتخلص منها إلى الآن . فاصفرّ وجه رولاند وقال :

— إنك ما زلت على هذا الخوف وقد عرفت شجاعتي . أفلم يخطر لك مرة أن تلتمس حماية أحد الشجعان ؟

— قل يا سيدي ما تعنيه ، فإني لا أجسر على فهم ما تقول.

— ذلك أنك ستذهب إلى فينيسيا فلا يطول مقامك فيها حتى يكثر المبغضون من حولك فلا تستطيع لخوفك أن تتمتع بهذا الهناء ، وتكثر هواجسك فتبيت تحسب أن الطعام الذي يقدّم لك مسموم ، وأن نساءك يترقبن رقادك لخنقك ، وأن الخادم الذي يأتيك بلباسك يراقب غفلة منك ليطعنك بخنجره ، فكيف تستطيع أن تكون سعيداً إذا لم تكن آمناً وكنت تخاف هذا الخوف ؟

— الحق يا سيدي أنك زدت رعبي وأنك قلت لي أقوالاً ما كنت أجسر أن أقولها لنفسي .

— ولكنه لو وجد رجل يراقبك الليل والنهار ويحرص على حياتك ويؤمنك من خوفك ويجعلك تتمتع بكل ما تشتهيه من الملاذ ...

فقاطعه آريتان وقد برقت عيناه بأشعة الفرح فقال : أواه يا سيدي ، إنك تفتح لي أبواب النعيم فهذا كل ما أتمناه وأشتهيه ،

ولكن من لي بهذا الرجل ؟

— هو أنا .

فوثب آريتان من موضعه وهو يكاد يطير سروراً وقال :

إحذر يا سيدي أن تعلّلني بهذا الرجاء ولا تكون صادقاً فيه .

قال : ألم تقل إنك تقرأ دخائل القلوب ؟ فهل قرأت في وجهي ما يدل على أني أقول ولا أفعل ؟

— نعم نعم ، إنك عظيم وإني معتمد عليك .

— إذن إطمئنّ منذ الآن ولا تخشَ أحداً في الأرض. إذهب إلى فينيسيا فعش فيها كما تشاء واعلم أني ساهر عليك وعلى منزلك لا فرق بين أن أكون حاضراً أو غائباً وبين أن تراني أو لا تراني فإني أكون بقربك وسيكون أعداؤك أعدائي .

— ولكن ماذا تسألني مقابل ذلك ؟ فإني لا أجد جزاء يفي بهذه الحماية ، وإني أكافىء ملك فرنسا بقصيدة وأجازي الأمبراطور بوشّح فيحسبان أني كافأتها خير مكافأة . وأما أنت ... أنت يا سيدي فإني أشعر بأنك أعظم من الملك وأرفع من الأمبراطور فبماذا أجازيك ؟

— إني لا أسألك عن هذه الحماية التي ستعيش بها أسعد إنسان غير أن تصادق أربعة رجال . ولكن يجب أن تصادقهم مصادقة شديدة لا يرتابون فيها فتحملهم على أن يثقوا بك ملء الثقة فتكون نديمهم وصفيّهم ومستودَع أسرارهم فلا يكتمونك سراً مما خفي وظهر من أمورهم .

— إني أفكر بمصير هؤلاء الرجال الأربعة فيتولاني الرعب.

– أترضى بما أقترحه عليك ؟

قال : أرضى . ثم نهض وقال : والآن قل لي أسماء هؤلاء الأربعة . قال رولاند : أولهم دندولو رئيس مجلس التفتيش .

واصفرّ حين ذكر هـذا الاسم . فقال الشاعر : حسناً ، والثاني ؟

– الكردينال بمبو .

– والثالث ؟

– القائد ألتاريْ .

– والرابع ؟

– فوسكاري دوج فينيسيا .

رئيس مجلس التفتيش

*

لقد تركنا رولاند في الفصل السابق في مغاور بيافا وقد عقد محالفة مع الشاعر آريتان مآلهـا أن رولاند يحمي الشاعر من أعدائـه وأن الشاعر يسافر إلى فينيسيا فيعقد صلات الصداقة المتينة مع أعـداء رولاند الأربعة وهم فوسكاري حاكم فينيسيا وألتياري القائد العـام ودندولو رئيس مجلس التفتيش وبمبو

كردينال وأسقف فينيسيا بنعمة الله ...

فتعهد الشاعر أن يستطلع أسرار هؤلاء الأربعة ، وأقام رولاند في تلك المغاور ينتظر اجتماع اللصوص الذين عاهدهم على الملتقى عند انتصاف الليل .

والآن فلنعد إلى فينيسيا حيث نعود إلى سياق الحديث منذ تلك الليلة التي ثارت فيها العواصف الهائلة فأصابت فينيسيا بما لم تُصَبْ به منذ زمان ، وهي تلك الليلة التي لبس فيها رولاند الكيس الأسود وأقام في سجن سكالا برينو ينتظر قدوم الجلاد ليسير به إلى موقف الإعدام .

وقد غرق في تلك الليلة ثلاث سفن من أسطول الحكومة في مرفأ ليدو وتحطم نحو مائتي قـارب وأصابت الصاعقة جسر التنهدات فامتدت النـار إلى سراي الدوج وانقضّت صواعق كثيرة على أمكنة مختلفة منها قصر جميل مبني على شاطىء الترعة الكبرى وهو قصر دندولو ، فان والد ليونور لمّا تقلّد منصب رئاسة ديوان التفتيش وزوّج بنته ألتياري القائد العام ، بنى هذا القصر الجميل على شاطىء الترعة فكان يستقبل نبلاء فينيسيا مرة كل شهر في قاعاته الرحيبة .

ففي تلك الليلة التي غضبت فيها السماء على الأرض كان خدم دندولو قد صعدوا إلى غرف رقادهم ولم يبقَ غير دندولو وحده ساهراً فكان يسير ذهاباً وإياباً في غرفة متسعة تشرف على الترعة الكبرى وقد اشتد اضطرابه حتى أنه لم ينم لحظة وبقي يسير في غرفته إلى الصباح فإذا سمع صوت انقضاض الصاعقـة وهزيم

الرعود وقف فوضع يده على جبينه وقال :

أيتها الصواعق انقضّي ويا رياح اعصفي فإنك مهما بَلَغَ من شدّتك لا تعادلين البراكين التي تثور في نفسي .

ثم يعود إلى السير بخطوات غير موزونة فينسى تلك العواصف الثائرة كأنما السماء في سكون .

وفيما هو على ذلك أبرقت السماء برقاً خاطفاً ودوّى الرعد دويّاً قاصفاً اهتزّت له الغرفة التي كان فيها حتى خيّل له أن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، وسمع صوت تهدّم جدار فعلم أن الصاعقة قد انقضّت على جانب من قصره ... فقال : ما كان أحرى هذه الصاعقة أن تنقضّ على رأسي فأستريح . وعند ذلك جلس على كرسي واهي القوة وهو يحدث نفسه فيقول :

هوذا ليلة أبيت فيها أيضاً من غير رقاد فأسير في غرفتي سير المجانين وأحاول أن لا أسمع ذلك الصوت الذي يقرع نفسي فلا أستطيع لأن ذلك الصوت أشدّ من صوت الصاعقة فهو أنين صادر من السجن الرهيب ! هو أنين ذلك المنكود ... إني حين أذهب إلى سراي الدوج أخاف أن أدخل تلك القاعة التي رأيته فيها آخر مرة . وإذا ركبت قاربي خشيت أن يمرّ بي من تحت جسر التنهدات ...

ثم وقف وقد جعل وجهه ينضح بالعرق فقال : لقد مضت ستة أعوام وهذا المنكود يتعذب في آبار السجن وما ذنبه إلا أن ابنة رجل طمّاع أحبته وهي ابنتي .

ثم نظر إلى ما حواليه وقال : أية فائدة لي من هذه الرياش

الفاخرة ؟ بل أية فائدة لي من تشييد قصر أجدادي وأنا فيه الآن أشقى مما كنت في بيتي القديم في جزيرة أوليفو ؟ أولئك أجدادي الذين سفكوا دماءهم في سبيل أوطانهم ونالوا أرفع منزلة بين قومي فلم يحدث في تاريخ أسرتهم غير زلّة واحدة وأنا مرتكب هذه الزلة .

ويحٌ لنفسي مما جنيت به على هذا المنكود وعلى ابنتي ، فلو خامرها الشكّ بي يوماً وجاءتني فصرخت بي تقول :

— أيها الجبان ، لقد عرفت الحقيقة ، فإن رولاند لم يبرح فينيسيا بل إنه يموت في آبار السجن ...

إنها إذا قالت لي هذا القول فماذا أجيب ؟

وكان الصباح قد أشرق ، وصحا الخدم ونهضوا إلى أعمالهم في القصر ، ففتح دندولو الباب المطلّ على البحر وخرج اليه وهو يكاد يختنق مما أصابه من تقريع الضمير فرأى سراي الدوج تحترق من الصاعقة فلم يكترث لها وقال: لتحترق فينيسيا بأسرها فإن النار الملتهبة في قلبي أشد سعيراً من نار الصاعقة .

وقد نظر عند ذلك إلى جهة البحر فلم تكن غير هنيهة حتى اصفرّ وجهه وفتحت شفتاه وجحظت عيناه فإنه رأى رأسَي رجلين من تحت الأمواج ثم رأى أن هذين الرجلين قد صعدا إلى قارب وأمعنا بالفرار غير مكترثين للعواصف الثائرة فصاح صيحة رعب وأغمي عليه .

فلمّا صحا من إغمائه وجد نفسه في سريره وقد أحاط به

*

الخدم فنهض لفوره وقال لهم: لا تقلقوا عليّ، فقد أصبت بدوار
بسيط فدعوني وحدي . فامتثل الخدم وقام دندولو إلى إحدى
الموائد فجلس قربها وأسند رأسه إلى يديه وجعل يتمتم مردداً
هذا القول :

– رباه ماذا أعمل ؟ بل هو ماذا يعمل ؟

ذلك أنه رأى الرجلين الهاربين وعرف أن أحدهما رولاند،
فاذا لم يعد إلى سجنه كان دندولو من الهالكين .

وعند ذلك دخل إليه خادم فقال : مولاي ، إن القائد العام
يريد مقابلتك في شأن خطير . فأمره بإدخاله . وبعد هنيهة
دخل إليه ألتياري فقال له :

– إني أتيت بنبأ عظيم أرويه دون مقدّمات وهو أن رولاند
كانديانو قد هرب من السجن .

فتظاهر دندولو بدهشة عظيمة وقال : هرب من السجن ؟
لقد أضعت رشدك دون شك إذ لا يمكن الفرار من سجون
فينيسيا . قال: ولكنه هرب فقد كان اليوم موعد إعدام اللص
سكالا برينو فهرب وإياه كما يظهر . وقد ثبت بعد البحث أن
رولاند نقب في جدار السجن وفتح منفذاً إلى سجن سكالا برينو
فالتقيا دون شك . ولما وصلوا باللص إلى جسر التنهدات عرف
رئيس الحراس أن هذا الرجل الذي كانوا يسيرون به إلى ساحة
الإعدام لم يكن سكالا برينو ولا ريب أنه كان رولاند .

– إن ذلك لا يحتمل التصديق !

– ولكنه حدث ، وقد حدث عند ذلك أمرٌ هائل ، فانه

بينما كان الحراس منذهلين من تأثير الصاعقة ظهر اللص سكالا
برينو وهو يحمل حجراً لا يستطيع أربعة رجال حمله ، فاغتنم
فرصة ذهول الحراس فضربهم ضربة هائلة زادتهم رعباً على رعب،
ثم أخذ الحجر ايضاً وضرب به حديد النافذة المشرفة على البحر
فتحطم ، وعند ذلك ألقى الاثنان بنفسيهما إلى البحر ونجا
رولاند .

– نجا رولاند ؟

– نعم إنه نجا ، وقد أسرعت إليك حين تلقيت هذا الخبر
لأسألك ، وأنت والد ليونور ورئيس ديوان التفتيش ورئيس
بوليسنا الأكبر ، ماذا عزمت أن تفعل ؟

فارتعش دندولو لأنه لم يكن في تلك الساعة يناجي نفسه بل
كان يحادث رجلاً بشأن رولاند، وأي رجل ! إنه زوج ليونور
خطيبة رولاند ! فقال بلهجة المضطرب : ماذا أعمل ؟ قال :
أرى أنك متردد في الأمر !

قال دندولو : كلا ، ولكني اضطربت لهذا الخبر الغريب
الذي لو لم أعلمه منك لما صدّقته . فقال ألتياري : نعم إنه
خبر غريب شديد الخطر وذلك يفيدني في أن لا أشفق على أحد
بعد الآن ، فقد كان يجب أن نفقأ عينيه كما فعلنا بأبيه أما
الآن فان المصيبة قد حدثت وبقي علينا أن نتلافاها وذلك منوط
بك ، فأرسل جواسيسك وبوليسك يبحثون في جميع منازل
فينيسيا دون استثناء ، وأقفل ميناء ليدو كي لا يستطيع الخروج
منها ، وعيّن الرقباء لمراقبة السفن التي تتوغل في الترعة ، وخذ

كل ما ينبغي اتّخاذه من وسائل الاحتياط لأنه إذا تمكن من الفرار ثارت حربٌ هائلة بيننا وبينه فأسرع ما استطعت .

قال : اطمئنّ ، فلن يمضي يومان حتى يعود إلى تلك الآبار التي كان فيها .

وعند ذلك انصرف ألتياريّ فبقي دندولو وحده فحمل رأسه بين يديه وقال : رباه ، لا بد لي من القبض عليه ولا مندوحة عن ارتكاب هذه الجناية الجديدة، وأنا الذي يجب علي أن أقبض على رولاند !

وقد بقي على هذه الحالة نحو ساعة تتنازعه الأفكار وتتخاطف نفسه العواصف المؤلمة إلى أن تمكن من تسكين اضطرابه فدخل إلى غرفة أعماله وأمر سكرتيره أن يرسل من يدعو اليه رئيس البوليس . فقال له السكرتير : إنه هنا يا سيدي . قال : إذن أدخله إلي .

ودخل رئيس البوليس فقال له دندولو : أتعلم ماذا حدث ؟

قال : نعم يا سيدي ، فإن اثنين من المسجونين قد هربا، وقد علمت أن أحدهما كان مقضياً عليه أن يعدم اليوم فأسرعت إليك لتلقّي أوامرك. قال: أخبرني بما علمته من تفاصيل هذا الفرار .

وبينما كان رئيس البوليس يروي هذه التفاصيل كان دندولو يقول في نفسه : ويلاه ، لا بد لي من القبض عليه . ولكنه قد يكون لجأ وبرح فينيسيا .

ولما سكت رئيس البوليس قال له دندولو : أتمّ حديثك .

قال : لم يبق عليّ إلا أن أتلقى أوامرك . قال أوامري؟ قال:

نعم يا سيدي إلا إذا أمرت أن تطلق يديّ في العمل .

قال دندولو: إني أطلق يدك بشرط أن تخبرني كلّ ساعة عما فعلت ، فإن الأمر خطير وهذان الرجلان شديدا الخطر وأنت تعرفهما فيما أظن . قال رئيس البوليس : إن أحدهما هو اللص الشهير الذي قبضنا عليه منذ ستة أعوام .

— والآخر ؟

— إنه رولاند كانديانو .

— إذن إذهب ولا تنسَ أن تسرع إلى إخباري بكل ما تعلمه .

فانصرف رئيس البوليس وهو يعتقد أنه ظفر بكل ما يتمناه وأن أبواب الثروة قد فتحت له .

*

كانت الأيام الثلاثة الأولى هائلة على دندولو فإنه لم تكن تمضي به ساعة حتى يأتيه جاسوس بتقرير شفاهي أو كتابي وقد جعل هؤلاء الجواسيس يتسابقون في وضع التقارير طمعاً بما يرجون نيله من رضى الرئيس عنهم .

وكان دندولو كلما جاءه جاسوس يسيل العرق البارد من جبينه فقد كبر عليه أن يكون الساعي في القبض على رولاند حتى أنه لو تمكن هو في تلك الأيام الثلاثة الأولى لأخرجه بيده من فينيسيا .

على أن رجال البوليس بحثوا أدق الأبحاث فلم يعثروا على

الهاربين الى أن أجمع الرأي العام على أنهما غرقـــا وأن جثتيهما أصبحتا طعماً للأسماك. وقد شاركهم ألتياري نفسه بهذا الرأي في البدء .

وفي إحدى الليالي كان دندولو ساهراً أرقاً كما كان يتفق له ذلك منذ بضعة أعوام ، فإن إشاعة موت رولاند قد أراحت باله وأعادت اليه شيئاً من السكينة ، فالذي كان يخافه إنما هو تقريع ضميره على ما كان يلقاه رولاند في سجنه من العذاب .

فلما وثق من موته استراح ضميره لاعتقاده أن العذاب قد انتهى بالموت . وجعل يعزي نفسه عن إساءته بقوله إنه ليس هو الذي جنى عليه بل إنه تركهم يجنون وهو غير قادر على صدّهم. فاستراح بعد ذلك وكان كل مـا أتاه جاسوس بتقرير عن غرق رولاند يشرق وجهه بنور البشر .

ففي تلك الليلة دخل خادمه وأخبره بقدوم جاسوس فأمر بإدخاله فلمّا دخل هذا الجـــاسوس بادره بقوله : مولاي ، إني وقفت على أثر سكالا برينو ورولاند كانديانو .

فاصفرّ وجه دندولو وقال له بصوت أجش : أخبرني بما علمت . قال : ولكني قبل أن أخبر مولاي بما علمت ألتمس منه أن يذكر بأني فعلت ما لم يستطع فعله بوليس فينيسيا .

قال : سأذكر هذا، فقل ما علمت وكيف وقفت على أثرهما؟

قال : إن الأمر بسيط يا مولاي ، وهو أني ذكرت أن سكالا برينو كان يتردد قبل سجنه إلى فتاة ربما كانت خليلته وهي تدعى جوانا فذهبت إلى منزل تلك الفتاة واستأجرت غرفة

محاذية لغرفتها فثقبت في جدارها ثقباً رأيت منه وسمعت .

– ماذا رأيت وسمعت ؟

– رأيت سكالا برينو وسمعته يتحدث مع الفتاة وذلك أمر لا ريب فيه .

– والآخر ؟

– لم أره يا مولاي ، فإنه كان مسافراً ولكني علمت ممـا سمعت من الحديث أنه سيعود قريباً . وعلى ذلك فـإن القبض عليهما بات سهلاً ميسوراً فإننا نقبض على سكالا برينو وعلى الفتاة ونقيم الجنود متنكرين في ذلك المنزل فمتى عاد رولاند يقبضون عليه .

فذعر دندولو ذعراً عظيماً وقال : نعم ، إن ذلـك سهل كما تقول .

قـال الجاسوس : هو ذاك يا مولاي ، ولكن مهما يكن من سهولته فأنا الذي اهتديت اليه دون سواي .

– نعم ، فـإني سأذكر ذلك ولا أنساه ورجائي أن تكون أخبرت رئيسك وأن يكون قد طوق منزل هذه الفتاة . فانحنى الجاسوس وقال :

– مولاي ، إن رجلاً فقيراً مثلي قد يقضي العمر دون أن تتفق له مثل هذه الفرصة في خدمة الحكومة ، فـلو أخبرت رئيسي بمـا فعلت لكان له الفضل دوني ولكان قتلني كي يخفي أمري ويستأثر وحده بهذا الفضل . فمسح دندولو عرق جبينه وقال : إذن لم تخبر رئيس البوليس ؟

– كلا !
– ولا أحداً من رفاقك ؟
– كلا !
– أنت وحدك العارف بهذا السر دون سواك ؟
– نعم يا مولاي فلا يعرفه إلا أنا وأنت .

فنهض دندولو وجعل يسير في غرفته بخطوات غير متوازنة تدل على شدة اضطرابه ثم وقف أمام الجاسوس وقال له : هلم وأرشدني إلى هذا المنزل .

وعند ذلك خرج دندولو من المنزل يتبعه الجاسوس حتى وصلا إلى الشاطىء، فركبا قارباً وأمر دندولو الجاسوس أن يجدف ، فامتثل الجاسوس للأمر حتى إذا توغلا قليلاً أمره أن يسير إلى جهة ليدو . فقال له الجاسوس : ولكن المنزل ليس في هذه الجهة يا سيدي ؟

– لا بأس ، فإني أريد أن أتفقد هذه الجهة .

فامتثل وسار حتى بلغ إلى ميناء ليدو فقال له: لقد وصلنا. قال : توغل أيضاً .

فاخترق الجاسوس بقاربه تلك الميناء الغاصة بالسفن والقوارب ومازال يسير حتى توارى عن الأنظار . وعندئذ أمره دندولو بالوقوف وقال له : تعال واجلس بجانبي .

فأكبر الجاسوس هذه المنّة وقال : أأنا أجلس بجانبك يا مولاي ؟ قال : امتثل لِمَا أمرتك به .

فلم يسع الجاسوس غير الإمتثال ، فقال له دندولو بصوت

منخفض : أعد عليّ ما قلته فهل أنت واثق كل الثقة بأنه ليس أحد سواك يعلم أين هو رولاند كانديانو ؟ قال : كل الثقة يا مولاي .

– ألم يتبعك أحد حين كنت تبحث ؟

– إن مهنتي تقضي عليّ أن أتبع الناس وأنا أعلم كيف أسير متى أردت أن لا يتبعني أحد .

– حسناً فأصغ إليّ الآن ... ماذا تقول إذا اقترحت عليك أن تنسى كل النسيان أنك رأيت رولاند ؟

فدهش الجاسوس واعتقد لفوره أنه وقف على سر عظيم وأن هذا يفيد رئيس ديوان التفتيش فائدة كبرى وأنه سيغنم غنماً عظيماً فقال له : ماذا تريد بذلك يا مولاي ؟ فابتسم دندولو ابتسام هياج وقال : أريد أن تنسى أنك رأيت سكالا برينو وأنك تعرف المنزل الذي سيأتي إليه رولاند .

– كيف ذلك يا مولاي ؟ ألم تقل لي إنك أنت نفسك تريد أن ترى هذا المنزل ؟

أجبني أيها الأبله ولا تسأل . أتوافق على ما أقترحه عليك ؟

فأجابه الجاسوس بجرأة قائلاً :

ماذا يكون جزائي إذا قبلت ؟ قال : إن سؤالك معقول فاعلم إذن أنك تبرح فينيسيا فتذهب إلى روما ولي نفوذ كبير في تلك العاصمة فتجد فيها بواسطتي منصباً أرفع من منصبك الحاضر ثم أنقدك خمسين ديناراً ساعة رحيلك غداً .

قال : إني يا مولاي لا أريد أن أبرح فينيسيا على الإطلاق

مهما أعطيتني ، وفوق ذلك فإن ما تسألني إياه خطير يقتضي الإمعان والتفكير . فقال دندولو : متى تستطيع مجاوبتي ؟ فقال الجاسوس في نفسه : لقد بلغت منه ما أريد كما يظهر ، ثم قال له :

— أسألك يا مولاي أن تمهلني إلى الغد وما هي بمهلة طويلة في جنب فوائد هذه المهمة .

فابتسم دندولو وقال : ليست هذه المهلة قليلة فقط بل إنها غير كافية فافتكر أيها الشقي إلى الأبد . وعند ذلك جرد خنجره وانقضّ عليه فأغمده في صدره فسقط الجاسوس صريعاً دون أن يصيح .

أما دندولو فإنه جعل يتمعن في وجه هذا الرجل الذي قتله على ضوء القمر ثم نظر إلى ما حواليه كي يستوثق أنه لم يره أحد ثم ألقى جثة القتيل إلى المياه وعاد بقاربه .

فلما دخل قصره وخلا بنفسه تنفس الصعداء وقال : لقد خدمت رولاند الآن خدمة تخفف جريمتي الماضية . أما وقد اطمأننت إلى رولاند فقد بتّ أستطيع الرقاد .

الحزن الدائم

*

كان قصر ألتياري على مسافة مائتي خطوة من قصر دندولو وفي نفس الشارع . وكان بين هذين القصرين قصر أمباريا بحيث أن هذه الحظية كانت إذا وقفت في شرفة قصرها ونظرت إلى الشمال ترى ما يجري في قصر دندولو ، وإذا نظرت إلى اليمين ترى ما يحدث في قصر ألتياري ، أي ما يحدث عند ليونور .

فلما جاء ألتياري في صباح يوم الصاعقة لإخبار دندولو بفرار رولاند لم يكن لديه غير بضع خطوات للبلوغ إلى قصره ، ذلك القصر الفخم الذي كانت قاعاته غاصة بالقواد وكان عشرون جندياً يحرسون أبوابه في الليل والنهار . وذلك لأن منصبه في فينيسيا كان أرفع المناصب ولم يكن نفوذه أقل من نفوذ الدوج نفسه . فإن العادة تقضي بأن يكون الدوج رئيس الجيش الأكبر .

غير أنهم حين ضربوا كانديانو تلك الضربة الكبرى اتفقوا على اقتسام السلطة ، فتولى فوسكاري السلطة السياسية واستقل ألتياري بالسلطة العسكرية . ولكنّ فوسكاري كان يراقبه مراقبة دائمة لاعتقاده أن القوة العسكرية يجب أن تكون آلة

تنفيذ أغراض السياسة .

وفي مثل هذه البلاد التي تقتل فيها إرادة الشعب لا بد من اتفّاق هاتين القوتين . فهل كان فوسكاري وألتياري متفقين هذا الاتفاق ؟ ذلك ما سنظهره في ختام هذه الرواية دون شك .

*

ولنعد الآن إلى ليونور ، فإنها بعد زواجها بألتياري ، أي بعد عامين ، كانت تقيم في جانح من ذلك القصر الفخم . فكانت تقفل أبوابه على الدوام وتعيش فيه مع نسائها عيش العزلة .

فلما عاد ألتياري من عند أبيها أرسل اليها يخبرها بأنه قادم إليها ، فاستقبلته دون أن تطلق سراح خادمتين كانتا عندها . ولكن ألتياري صرفهما بإشارة ، فخلا الزوجان وجلس كل منهما على كرسي .

وكان ألتياري قد اضطرب اضطراباً عظيماً لفرار رولاند . ورأت ليونور ما كان من اضطرابه حين دخوله فتوقعت حدوث خصام جديد ، وصبرت ساكتة حسب عادتها فإنها لم تكن تكلمه إلا حين تضطر إلى إجابته على سؤال .

وكذلك ألتياري فإنه سكت إذ لم يكن يجد ما يقوله فإنه إنما جاء اليها وهو يخشى أن لا يجدها في المنزل بعد فرار رولاند، لاعتقاده الراسخ أنها تهواه . أما وقد وجدها في القصر فلم يعد يعلم ما يقول. غير أن فرار رولاند هاج غضبه على ليونور فابتسم ابتسامة غريبة وقال : أرى أنك لا تزالين تعملين في خدمة المنزل

كأنه لا يوجد فيه خدم وكأنك تريدين أن تكوني قدوة النساء .

وإنما جعل هذا القول مقدّمة للخصام ، فلما رآها لم تجبه قال لها : نعم ، إن أباك لم يعطني زوجة بل أنعم علي بمدبرة منزل . فأصغي إلي يا ليونور : إن هذا العيش يتعبني . قالت : بماذا تؤنبني ؟ فليس بين أهل فينيسيا من يعرف شيئاً عن حقيقة أحوالنا .

— لقد أصبتِ ، فلا يحق أن أتألم إذا كان ألمي لا يعرفه أحد .

— إني أحضر جميع الحفلات التي تحييها في قصرك ولي عناية خاصة بداخليتك ، وأذهب أكثر الأحيان معك إلى الحفلات كي لا يعلم أحد شيئاً من اتفاقنا، فإني حين عقد بيننا عقد الزواج كان أول ما اشترطته عليك أن لا أكون امرأتك إلا بالاسم فقط ، وقلت لك : أترضى بهذا الشرط وتمتنع عن اضطهاد أبي ، فرضيت . والذي أراه هو أنه كان يجب عليك في ذلك اليوم حين كان كلانا حرّاً ، أن تقترح علي ما تشاء من الشروط ، ولكنك أقسمت يومئذ أن تحترم جسدي ونفسي ، وأقسمت أنا أيضاً أني لا أدعك تشكو مني ، وقد وفيت بقسمي فبماذا تؤنبني ؟

قل بما تشكو ، فاني أغيّر نوع معيشتي على ما تريد ولا أدع للشكوى أقل مجال . فإنك تذكر أنك شكوت مرة أني لا أصحبك في نزهاتك فتنزهت وإياك في قاربك في ذلك اليوم ، وقد خطر لك ان تسير بي تحت جسر التنهدات فامتثلت لك ولم

أقل لك إن ذلك الأنين الذي سمعناه كان يقطع قلبي ، وما سألتني يوماً أن أصحبك إلا وجدتني مستعدة للامتثال ، فماذا تريد اليوم؟

فاصفرّ وجه ألتياري واتقدت عيناه وقال بصوت أجش : أريد أن تكوني امرأتي . قالت : كفى يا سيدي ، فانك تعلم يقيناً ما فطرت عليه أسرة دندولو من البسالة وصحة العزيمة ... إني أرى في خطتك ما يدل على الإنذار وهو خير من احترامك الكاذب لليمين التي أقسمتها ... إن إحدى بنات دندولو أنقذت يوماً الجمهورية بقتلها ذلك القائد الذي كان زاحفاً إلى سراي الدوج . وما فعلته ابنة دندولو لحرية الجمهورية تفعله قريبتها لحرية نفسها .

— تريدين بذلك أنك تقتلينني إذا لجأت إلى العنف ؟

— دون تردد .

— وإذا حاولت التنكيل بأبيك .

— أدعك تفعل فقد ضحيت في سبيل أبي آخر ما يمكن أن أضحيه ، فافعل به ما تشاء فانه لم يعد أبي منذ ذلك اليوم الذي أراد فيه أن يزوجني بك وهو يعلم أن هذا الزواج يقضي عليّ بالحزن الدائم .

فارتعش ألتياري لغضبه ولعجزه ، فقد تمثلت له ليونور مثل عذارى العهد القديم اللواتي ينذرن نفوسهن لفيستا إلهة الطهارة فكنّ أعظم بجلالهن من الملوك بسلطانهم ، ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيده تعلقاً بها .

أما ليونور فإنها أشارت إلى انتهاء المقابلة فأيقن ألتياري أن

خاطبتها عبث وأن كل ما يبذله من الرجاء والوعيد لا يفيد شيئاً في التغلب على إرادة هذه الزوجة العذراء التي لا تزال تحنّ إلى خطيبها القديم وقد نذرت في سبيله نفسها فنهض وقال :

— هذه هي المرة الثانية التي أسألك فيها يا ليونور أن تكوني زوجتي . أما المرة الأولى فقد كانت في ذلك اليوم الذي مررنا فيه تحت جسر التنهدات والمرة الثانية اليوم . وقد دفعتني إلى تجديد هذه المباحثة حادثة خطيرة حدثت فيه .

ثم ابتسم ألتياريّ ابتسامة هائلة وقال : نعم ، وهي حادثة قد تثنيك عن عزمك وتغير نهجك معي فان الوفاء محمود ولكنه لا يجب بعد الموت .

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به أنه وردنا نعي رولاند كانديانو .

فلبثت ليونور واقفة ولم يظهر عليها شيء من علائم الاضطراب فانها كانت تعتقد أن رولاند هجرها وأنه ميت منذ ذلك العهد فبقي حزنها في نفسها على ما كان عليه . أما ألتياريّ فانه انصرف وهو يقول في نفسه :

« إني أكاد أن لا أكون كذبت في ما أخبرتها ، فان رولاند إما أن يكون قد غرق أو يكون باقياً في قيد الحياة . فاذا كان غرق كنت صادقاً في نقل خبر موته وإذا كان حياً فلا بدّ لي من قتله في أقرب حين فأكون صادقاً في الحالتين » .

وأما ليونور فإنها لما خلت إلى نفسها سقطت على ركبتيها

وجعلت تبكي بكاء أليماً كأنها لم تبكِ منذ ستة أعوام حين أخبرها أبوها بأن رولاند هجرها وبرح فينيسيا .

سكرتير الشاعر آريتان

*

نذهب بذهن القارىء بعد هذه الحوادث بشهرين إلى قصر الشاعر بيار آريتان فقد كان له قصر كدندولو وألتياري وأمباريا ، وكان قصره على شاطىء الترعة الكبرى كسائر القصور .

وكانت شهرته قد ملأت محافل فينيسيا مع أنه لم يكن فيها إلا منذ عشرين يوماً ، وذلك أنه أعدّ حفلة عظيمة دعا إليها أكابر الشعراء والمصوّرين والموسيقيين فخرجوا يثنون على كرمه وحسن ضيافته ويعجبون بفرش قصره وهو لم يكن قد دفع درهماً من ثمنه إذ اشتراه كله بالدين !

ففي ليلة من الليالي دخل اثنان إلى ردهة هذا القصر وكان أحدهما شاباً نشيطاً يبلغ السابعة والثلاثين من العمر وهو لابس ملابس أهل فلورنسا ، وكان الآخر رجلاً طويل القامة عريض الأكتاف وَخَطَ الشيب شعره فسار وراء الفتى وهو مطرق

الرأس . وجلسا في هذه الردهة وأقاما ينتظران دور مقابلتهما ، فإن شاعرنا قد قلّد الحكام في المقابلات فجعل يقابل كل زائر حسب مركزه واستحقاقه .

وما زال صابرين إلى أن جاءهما خادم ودخل بهما إلى غرفة كان فيها إمرأتان تعزفان على القيثارة وفي هذه الغرفة باب دخل منه الرجل إلى قاعة جديدة فوجدا فيها كثيراً من الرجال وأربع نساء كنّ يسقين الرجال أفخر الخمور بأجمل الكؤوس .

وكان أحدهما متكئاً على المقعد فنظر إلى الرجلين وقال لهما: ماذا تريدان ؟ فنظر الفتى إلى ما حواليه نظرة اطمئنان وأجابه دون أن يتردد قائلاً : إني أريد أن أرى الشاعر المقيم في هذا القصر .

— هو أنا ، وأنت واقف بحضرة آريتان ، فقل ما تريد .

— إني أتيت خصيصاً من فلورنسا لأظهر إعجابي بشاعر إيطاليا العظيم .

فاهتز آريتان لهذا الثناء وصاح بنسائه قائلاً :

— أين أنتن ؟ وكيف لا تقدمن كرسياً لهذا الفتى وتسقينه من شرابنا ؟

وقد نظر عند ذلك إلى كيس الفتى المعلق في منطقته فوجد أنه محشو بالدنانير فقرع المائدة بيده وقال : لقد أعجبتني كثيراً أيها النبيل ولا بدّ لي أن أنظم فيك قصيدة. فأجابه الفتى قائلاً: اسمح لي يا سيدي قبل ذلك أن أقول لك قولين أحدهما أني غير ظمآن إلى الشراب والثاني أني لست من النبلاء .

— ذن أنت من ؟

— إني من الشعراء ، أو إني أحاول أن أكون منهم .

فقطب آريتان حاجبيه وقال : لا فرق في المنزلة بين القلم والسيف ، فقل بما أستطيع أن أنفعك .

— إني أتيت إلى فينيسيا على رجاء أن أكون سكرتيراً لك .

— يظهر أنك شديد المطامع يا ابني ، فماذا نظمت وبماذا تستحق هذا المنصب ؟

— إني أستطيع ، إذا أحببت ، أن أنظم الآن ما تريد .

فنظر آريتان إلى الفتى نظرة الفاحص والتفت إلى النبلاء المحيطين به وقال : إني أود ذلك بشرط ان يوافق عليه ضيوفي . فأجابه أحدهم ، وكان جالساً وراء فرقة من النبلاء قائلاً : إن ذلك أقصى ما نتمناه . فشكر الفتى ذلك الرجل بابتسامة وأجابه آريتان قائلاً :

— ليكن ما تريد أيها الصديق بمبو ، ولكن ما عسى أن يقول عنك المؤمنون إذا رأوك بين الكؤوس ؟ ثم التفت الى الفتى وقال له : إبدأ يا بنيّ . فقال الفتى : إني سأنظم لكم حادثة جرت قرب تريفيز في مغاور بيافا ! فوقف آريتان وقال له : ما هو عنوان قصيدتك ؟ قال : الشاعر واللص !

فاضطرب آريتان وقال : إنه عنوان جميل ، غير أني لا أستطيع سماع قصيدتك الآن فقد ضربت موعداً لصديق في هذه الساعة ولم أذكره إلا الآن ، فعد إلي غداً واقرأ هذه القصيدة . والآن تعال من هنا كي لا تضطر إلى المرور بالردهة .

ثم فتح له باباً وهمس في أذنه قائلاً : إنتظرني في هذه الغرفة . وعاد إلى ضيوفه وقال :

— أسألكم العفو أيها السادة فإن الدوق دي فرّار سألني نظم قصيدة منذ ثمانية أيام فلم أتمكن من نظمها بعد ، وإني مضطر إلى نظم قصة أريد إرسالها إلى الامبراطور شارل . فقال له بمبو : إن حالتك تحمل على الإشفاق أيها الصديق . قال : لا بد لي من العمل للارتزاق إذ لست كردينالاً ينفق عن سعة كما يشاء . . .

فابتسم بمبو وقال : إني كردينال بفضل آريتان ! قال آريتان : نعم ، إن لي شيئاً من النفوذ لدى قداسة البابا فإنه شديد البخل بالمال ولكنه كثير الكرم بمنح الألقاب .

وبعد هنيهة انصرف الزائرون فأسرع آريتان بالدخول إلى الغرفة التي كان ينتظره فيها الفتى وقال له : لماذا اخترت أن يكون عنوان قصيدتك اللص والشاعر ؟ وما هي هذه الحادثة التي جرت لها في مغاور بيافا ؟

أما الفتى فإنه أسرع الى نزع شعر مستعار كان على رأسه فظهر من تحته رأس رولاند كانديانو وصاح آريتان قائلاً : أهذا أنت ؟ قال : نعم ، فإني موفٍ بعهدي على رجاء أن تكون موفياً بعهدك . وفي هذا المقام لا بد أن أكون سكرتيرك الى حين ، ثم إني أحب أن أحضر وإياك الحفلة التي سيحيونها بعد غد .

— عند أمباريا ؟

— هو ذاك . فقل لي الآن كيف تعيش هذه المرأة ، فقد

علمت أن لها بنتاً فهل هذا أكيد ؟
– نعم ، ولكن لا يعرف ذلك غير القليل من الناس !
– ماذا تدعى ؟
– بيانكا .
– وعمرها ؟
– نحو أربعة عشر عاماً .
– إذن يجب أن تتدبر الأمر بشكل تجعل فيه لأمباريا ثقة عظيمة بسكرتيرك ، فإني أحب أن أرى بيانكا .
– أهذا كل ما تريد أيها الرئيس ؟
– هذا كل ما أريده الآن. وغداً سأحضر إليك وأقترح عليك أن أكون سكرتيراً لك فتجيبني الى طلبي ، وبعد غد أصطحبك إلى حفلة أمباريا وسنرى ما يكون . والآن أخرجني من هذا القصر دون أن يراني أحد .. واعلم ايضاً أن هذا الرجل الذي جاء معي سيكون خادمك وسيذهب وإيانا ايضاً إلى حفلة أمباريا .

وعند ذلك لبس رولاند الشعر المستعار فسار به الشاعر إلى باب خفي كائن خلف القصر فأخرجه منه وعاد إلى الرجل الأشيب الذي كان ينتظره وهو مضطرب لزيارة رولاند وجعل يقول في نفسه : إن لهذا الرجل قوة غريبة . وأما أنا الذي لا أخاف إلا أن يفاجئني عدوّ فقد بتّ أخاف هذا الرجل ، فماذا يريد أن يعمل في فينيسيا ومن هو ؟

وعند ذلك رأى الرجل الأشيب الذي ينتظره فقال له : أهو

أنت الذي تريد الدخول في خدمتي ؟ قال : نعم ، وفي أقرب حين .
– إنك تدخل الآن إذا أردت .
– إذن يجب أن يكون لي ثوب خاص يُنجز غداً .
– لماذا ؟ ألحضور حفلة المحظية ؟
– لا أعلم ، ولكن هذه هي الأوامر التي تلقيتها . وهناك أمر آخر وهو أني أحب أن لا أبيت مع الخدم .
– سيكون لك غرفة خاصة !
– يحسن أن تكون مشرفة على الترعة .
– تعالَ وانظر إذا كانت موافقة .

وقد عرف القراء دون شك أن هذا الرجل الأشيب كان سكالا برينو خلافاً للشاعر فإنه لم يعرفه ، وقد ذهب به الى تلك الغرفة فأراه إياها ووافق عليها .

وفي اليوم التالي قدّم الشاعر رولاند لأهل منزله وأخبرهم أنه سكرتيره وأن صديقه الدوق جان دي مدسيس الشهير أرسله إليه فأقام رولاند في ذلك القصر بصفة سكرتير كما أقام سكالا برينو بصفة خادم .

وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم الذي تلاه كان آريتان الشاعر راكباً في زورق جميل وقد ركب معه فيه سكرتيره الجديد وثلاثة خدم بينهم سكالا برينو . ولم يصحب معه أولئك الخدم للزينة والافتخار بل للحذر والدفاع عنه حين الاقتضاء ، فإنهم كانوا مدججين بالسلاح وسار بهم الزورق يمخر في الترعة

الكبرى ، وبعد هنيهة وقف أمام قصر أمباريا الفخيم .

وكان هـذا القصر في تلك الساعة يتلألأ بالأنوار والألحان الموسيقية تحيّي القادمين إليه بأشجى الأنغام وقد اصطف نحو عشرين خادماً من شاطىء الترعـــة إلى سلم القصر وهم بملابس وُشّيت بالذهب ، فكان عامة الناس ينظرون إليهم وقد أعجبوا بهم فوق إعجابهم بالأسياد . فلما مرّ بهم سكالا برينو أشار إلى أحدهم إشارة معنوية أجيب عليها بمثلها ، وسار في أثر الشاعر .

أما الشاعر فقد كان لابساً أفخر ملابسه فإنه اتشح بوشاح من المخمل أهـــداه إياه المركيز دي جاست ، ولبس في رأسه قلنسوة رصعت جوانبها بالماس وهي مهداة إليه من الدوق دي أربين ، ولبس في عنقه سلسلة طويلة من الذهب أهداها إليه البابا لاوون العاشر .

فصعد السلام إلى ردهة متسعة ودخل منها إلى القاعة الكبرى حيث كان المدعوون ومعظمهم من ظرفاء أهل الفن وجميـــلات النساء اللواتي لا مقام لهن بين العائلات .

وكان في إحدى زوايا القـــاعة جوقة موسيقية تعزف على آلاتها ألحاناً ترددها المغنيات ، والخدم يطيفون بالشراب على الحضور .

وقد أخذت الخلاعة حدهـــا وفازت دولة المجون وطافت أمباريا بين ضيوفها تجامل هذه بكلمة وذاك بابتسامة وهي مشرقة الوجه طلقة المحيا لوقوفها في هذه الحفلة موقف الملكات .

فلما دخل آريتان الشاعر كثر الهمس بين المدعوين كما يحدث

عادة حين دخول أحد المشاهير الى حفلة كثر فيها اجتماع الناس ، وسار الشاعر تواً الى أمباريا فأشار رولاند الى سكالا برينو أن يتبعه وتوارى بين تلك الجموع .

*

لم يكن آريتان وأمباريا قد عرف أحدهما الآخر قبل هذه المرة فجعل كل منها ينظر الى صاحبه نظرة الفاحص ليعلم هـل يستحق ما ناله من الشهرة ، وقد اجتمعت فرقة من الرجال والنساء حولهما في الحال فبدأ الشاعر الحديث فقال :

أقسم بأمي يا سيدتي أنه لم تنل امرأة من شهيرات الجمال ما نلته ، فإنك فينيس إلهة الجمال نفسها ، بل إنك فوق مرتبة هذه الإلهة ، فإن جسمك وأعضاءك أكثر تناسباً من جسم فينيس النحيفة الشقراء . إذن أعد نفسي الآن ماثلاً بحضرة جينون ملكة الأولمب وسيدة الآلهة !

فمدت أمباريا يدها اليه وهي تقول :

لا ريب أني جميلة ، ولكنك شاعر مبدع تخلق الكلام الساحر والقوافي المذهبة . فأنت أحق مني برضى الآلهة التي تتكلم عنها . على أني أوثر أن أكون أنا كريون[1] على أن أكون جينون ، ومن كانت مثلي لا تسرّ بجمالها إلا على رجاء أن يمتدح شاعرٌ مثلك هذا الجمال !

---

١ — شاعر يوناني قديم كان مجونياً غزلاً لا ينظم الشعر إلا في أوصاف النساء .

فتبادل الاثنـــان ابتسامة دلت على أن كلا منهما قد عرف صاحبه حق العرفان . وجلس الشاعر بجانب أمباريا فجعلا يتحدثان بأحاديث كان محورها الغرام . واختلط بهما الفتيان والفتيات واقترحت الفتيات أن يتلو الشاعر على الحاضرين شيئاً مما نظمه في الحب ، فقوبل الاقتراح بالتصفيق ، ونهض الشاعر وتلا قصيدة رشيقة في هذا الموضوع .

وفيما هو على إنشاده دخل فتى يدعى كريماني وهو ابن كريماني الشيخ أحد أعضاء مجلس العشرة .

حتى إذا فرغ آريتان من قصيدته وفرغ الناس من التصفيق والهتاف للشاعر وقف كريماني وصاح قائلاً بصوت مرتفع :

– أتصفقون وتهتفون لهذا المتمرّد العاصي الذي يهجو أبي ويتّهمه بالظلم والفساد ومصائب العباد ؟

فقالت له أمباريا : أرجو أن لا تنسى يا سيدي كريماني أن الشاعر ضيفي .

فظهرت علائم الاستياء على جميع الوجوه من كريماني الذي أفرط في الشراب هذه الليلة فلم يحترم تلك المحظيــة التي يجلّها الجميع ولم يحترم الشاعر آريتان الذي يهابه حتى البابا !

أما كريماني فإنه أجابها بملء القحة قائلاً : لا جرم إذا كان ضيف محظية فهو ابن محظية !

فرفع آريتان قبعته احتراماً لذكر أمه وقال : إنك تهين أيها الفتى امرأة ماتت في المستشفى وقد محت عارهـا تلك القصيدة الشهيرة التي نظمتها فيها . أما أنا فإذا كنت ابن محظية فإن بين

جنبيّ قلب أسد نبيل . ولكنك ابن رجـــل من مجلس العشرة وليس في صدرك غير قلب جاسوس حقير . ولذلـك لا أتدانى الى معاقبتك بل أدَع أمر تأديبك الى خدمي .

قال الشاعر آريتان هذا القول بجرأة نادرة ، فتلهّب كريماني حقداً وصاح به قائلاً :

– ويحٌ لك أيها الشقي ! إني سأدعك تموت في المستشفى كما ماتت أمك . فحاول عند ذلك كثير من المدعوين أن يتداخلوا في أمرهما فدفعهم كريماني بعنف وهجم على الشاعر . ولكنـه قبل أن يصل إليه شعر أن يداً من حديد قد قبضت عليه . ذلك أن سكالا برينو كان قد أسرع إليه فقبض عليــه وسأل آريتان قائلاً :

– أين تريد يا سيدي أن ألقي هذا الرجل؟ فقال له آريتان:

– ضعه في قاربه واجتهد أن لا تسيء إليه .

فضحك الجميع وحمـــل سكالا برينو ذلك الفتى الهائج كما يحملون طفلاً وخرج به بينما كان آريتان يقول لأمباريا :

– لقد أحسنتُ يا سيدتي بتدريب خدمي ، فلو اضطررت إلى أن أؤدب بنفسي هذا الوقح لحرمت هنيهة من مشاهدة جمالك ولما غفرتُ لنفسي هذا الذنب العظيم !

وجرت الحفلة في مجراها وعاد الفتيان والفتيات إلى الرقص على ألحـــان الموسيقى واستأنفت أمباريا الحديث مع الشاعر فقالت : ما الذي جاء بك إلى فينيسيا يا سيدي ؟ قال : أولاً رغبتي في مشاهدة جمالك الفتان ووصفه بما يوحيه إلى قريحتي ، ثم

رسالة وردت من صديقي الكردينال بمبو .

فارتعشت أمباريا وقالت : ألعلـّك تعرف الكردينـال الجديد ؟ قال : كيف لا أعرفه وأنا الذي سعيت لتعيينه في هذا المنصب ؟ فهل تعرفينه أنت يا سيدتي ؟ فقالت بلهجة دلـّت على الحقد والرعب معاً : نعم ، أعرفه فهو من أصدقائي .

وعند ذلك أشارت إلى خادم أن يدنو منها فقالت له : أدعُ لي ماريا ... وكأنما خطر لها خاطر أخافها حين ذكرت بمبو . ثم عادت إلى محادثة آريتان فقالت له :

— أفي نيتك الإقامة في فينيسيا؟ فقد علمت أنك استأجرت قصراً فخيماً وفرشته بأبدع الرياش ؟

— نعم يا سيدتي ، وأرجو أن تطول إقامتي فيها لما أراه من جمالها الساحر .

— وفوق ذلك فإن هذا القصر الذي أنت فيه يشبه الحصون المنيعة بحيث تكون آمناً فيه وتناضل أشد الناس .

— يظهر يا سيدتي أنك تجيدين قراءة الأفكار فإذا أحببتِ أن نتحد فإننا نسود على فينيسيا .

فضحكت أمباريا وقالت : إني أرضى بهذه المحالفة ولكن قل لي من هو هذا الرجل الذي كان يسير معك حين أتيت ؟

— أتعنين سكرتيري باولو ؟

فأطرقت مفكرة وقالت : هو سكرتيرك ؟

وعند ذلك جاءت امرأة طاعنة في السن وقالت لهـا : أدعوتني إليك يا سيدتي ؟ قالت : نعم يا ماريا ، فماذا تصنع

بيانكا ؟ إني أريد أن تسهري عليها هـذه الليلة وأرجو أن لا يصل إليها ضجيج الموسيقى فيقلقها .

— كلا يا سيدتي إنها لا تصل إليها ، وهي الآن نائمـة نوم الملائكة ولكنها كانت منحرفة الصحة قليلاً قبل الرقاد .

فاصفرّ وجه أمباريا وقالت : كيف لم تقولي لي ؟

— إني لم أجسر على ذلك بسبب الحفلة .

— وماذا تهمني الحفلة أيتها البلهاء ؟ قولي الحقيقة ، إنها لا تزال مريضة ، أليس كذلك ؟

فتمتمت العجوز قائلة: إنها متوعكة توعكاً خفيفاً لا يذكر .

فالتفتت أمباريا إلى آريتان وقالت له بصوت يرتجف : أرجوك المعذرة يا سيدي ، فسأغيب عنك لحظة . قال : يظهر يا سيدتي أن صحة هذه الفتاة عزيزة عندك . قالت : إني أحبها فوق ما أحب حياتي .

— ألعلـّك متـّصلة بها بصلة قربى ؟

— إنها ابنتي !

— إنك أصبت دون شك ما دمت تحبين ابنتك هذا الحب .

فهزت أمباريا كتفيها وقالت : إني أحببت مرة في حياتي، فلقيت عذاباً لا يلاقيه الكافرون في جهنم . غير أن هذه الفتاة لا دخل لها في الحب وأنا أحبها من أجلها حباً مجرداً .

— مهما كان الأمر فإنك تسرّين أن يكون لديـك الآن طبيب ماهر !

— إذا كانت بيانكا مريضة فإني أدفع لهذا الطبيب مايبغيه.

– إني أقدم لك طبيباً من أحذق الأطباء دون أن تدفعي له شيئاً ، فإنه سكرتيري الذي سألتني عنه منذ حين .

فارتعشت أيضاً أمباريا لذكر هذا السكرتير وقالت : إذن تعالَ معي .

ثم قامت وسارت وإياه تخترق القاعات وهي تبتسم للراقصين والراقصات بالرغم عنها حتى وصلت إلى غرفة صغيرة لم يكن يصل إليها ضجيج المحتفلين فقالت لآريتان : إنتظرني هنا ، فإذا كانت بيانكا مريضة دعوتك إلي . قال : حسناً ، وأنا سأبحث في خلال ذلك عن سكرتيري .

وغابت أمباريا بضع دقائق فلما عادت وجدت آريتان مع السكرتير ومع ذلك الخادم الهائل الجثة الذي حمل ابن كريماني إلى القارب . فلما رأت السكرتير أسرعت إليه وقالت له : هل أنت طبيب يا مسيو باولو ؟ قال : نعم يا سيدتي . فاهتزت أمباريا لهذا الصوت وقالت له : تعال معي .

ثم دخلت به فاجتازت ثلاث غرف حتى انتهت إلى غرفة كانت بنتها منطرحة على مقعد فيها وهي بملابسها .

ولم يكن هذا السكرتير طبيباً فإنه كان رولاند ومع ذلك فإنه لم يفته أن الفتاة غير مريضة . أما أمباريا فإنها أخذت يد بنتها وجعلت تقبلها وتقول: ماذا أصابك يا ابنتي وبماذا تشعرين؟ لا تكتمي عني شيئاً فإن هذا الرجل الواقف أمامك من مشاهير الأطباء وقد أتى ليشفيك . فقالت لها : إني لا أشكو شيئاً يا أمي ولست مريضة .

ومن الغريب أنها كانت تقول لها هذا القول وهي تحاول الهرب من قبلاتها وتتنهد . فقالت أمباريا :

– ألا تتألمين من معدتك ؟

– كلا !

– ألا تشعرين بدوار في رأسك ؟

– كلا يا أماه !

وكان رولاند ينظر إلى الأم والبنت ثم سار بأمباريا إلى آخر الغرفة وقال لها : ألعلك تخشين أن تكون ابنتك مسمومة ؟

فذعرت أمباريا ذعراً عظيماً وقالت : إفحصها ، بالله !

قال : اطمئني يا سيدتي ، فهل أنت واثقة بي ؟ قالت : نعم نعم ، ولا أعلم ما الذي يدعوني إلى هذه الثقة التامة . قال: إذن تفضلي بالخروج من هذه الغرفة ومري الخادمات أن يخرجن أيضاً.

فظهرت على أمباريا علائم الخوف فقال لها : إذا لم يكن لك بي ثقة تخليت عن موضعي لطبيب آخر .

– كلا ، كلا ، فإن ثقتي بك عظيمة .

وعند ذلك أشارت إلى الخادمات فانصرفن ثم عانقت بنتها عناقاً طويلاً وانصرفت ، فقال لها رولاند قبل أن تتوارى عنه: تفضلي يا سيدتي وقولي لخادم المولى آريتان أن يبقى قريباً مني حتى إذا احتجت إليه ناديته فإنه متعوّد علي .

فلما انصرفت أمباريا نظرت بيانكا إليها نظرات تشفّ عن الغضب وتمتمت قائلة :

– إذهبي . عودي إلى حفلتك واتركي بنتك وحدها . وقد

سمع رولاند قولها ففهم علتّها وقال لها برفق :

– أتريدين يا ابنتي أن نتحدث قليلاً ؟

فأجابته بنبرات دلت على تهيّج عصبي قائلة : إني أود أن أكون وحدي ... إني لست مريضة .

– إني أعلم يقيناً أنك لست مريضة في جسمك بل في نفسك أيتها الطاهرة البريئة ، فقولي لي كل شيء وثقي بي فإني صديق .. إنك حزينة جداً أليس كذلك ؟ أنظري إلي يا ابنتي وتمعّني بوجهي تعلمي أني شديد الإخلاص وأني لا أريد لك إلا الخير .

وكانت بيانكا مغطية وجهها بيدها فنظرت إلى ذلك الرجل الذي يكلمها بهذا الحنوّ فدهش رولاند لهذا الجمال النادر إذ كان لها جمال أمها ولكنها كانت تزيد عليها تأثيراً في النفوس لما كان يظهر بين عينيها من دلائل الطهارة والسلامة . وقد كانت تربّت خير تربية وتعلمت معظم العلوم كبنات النبلاء في ذلك العهد .

وقد كانت أمها أبعدتها عنها زمناً طويلاً إشفاقاً عليها من أن تفسد أخلاقها بإقامتها معها ، ثم تغلبت عواطف الأمومة على ذلك الإشفاق ولم تعد تطيق فراقها فذهبت إليها وعادت بها إلى قصرها فأقامتها في جانب معتزل منه . وكانت كل ليلة تخرج وإياها إلى النزهة فلا تظهر عند ذلك بمظهر الحظيات وأهل الخلاعة بل تتأدب كل التأدب بملبسها ومشيتها ونظراتها فإذا اتفق أنها لم تصحبها إلى النزهة أبقتها في القصر وبالغت في الحرص عليها كي لا يراها أحد من الرجال .

وعلى الجملة فلم يكن هنالك غير القليل يعلمون أن

لأمباريا بنتاً .

وقد لبثت بيانكا هنيهة تنظر إلى رولاند نظرة الفاحص إلى أن قالت : نعم، أرى أني أستطيع أن أعاملك معاملة الصديق فإنك لا تشبه أولئك الرجال الذين يزورون أمي، وإن نظراتك ليس لها قحة نظراتهم حتى أني طالما تمنيت أن أعيش وإياها منفردين في بيت صغير .

– إذن أنت لا تودين أن تحضري هذه الحفلات التي تجري في هذا القصر ؟

– بل إني أذعر منها ، وأمس توسلت إلى أمي أن تمتنع عن هذه الحفلات فأبت وتركتني شقية .

وهنا جعلت تشهق بالبكاء . فتوجع رولاند لمصابها وتركها تبكي إلى أن سكن تأثرها ومسحت دموعها فقال لها : ومع ذلك فإنك تحبين أمك ؟ قالت : نعم ، إني أحبها وأشفق عليها لأنه كان يخيّل لي مراراً أنها هي نفسها غير سعيدة ! إني أحب أمي حباً شديداً حتى أنه إذا وجب أن أضحي نفسي في سبيلها لما تأخرت، ومع ذلك أرى أنه خير لي لو تركتها وبرحت هذا القصر .

فارتعش رولاند وقال : ولكن لماذا تؤثرين فراقها وهي تعبدك كما رأيت وأنت تحبينها أصدق حب كما تقولين ؟

– لا أعلم ، ولكني أختنق هنا .

– ربما كان ذلك لأنك مقيدة !

– كلا ليس هذا ، فإني لو عشت سجينة لما باليت، ولكني

أكاد أختنق لأني أشعر هنا بأنه تجري أمور سافلة يضيق صدري لها ولا أفهمها .

– إطمئني يا ابنتي وتعزّي فلا تجري هنا أمور يمكن أن تخنقك .

فنظرت إليه بيانكا محدقة وقالت : إنك لا تقول لي كل ما تفتكر به وقد عرفت ذلك من اضطراب صوتك ومن عينيك ، فلماذا لا تقول لي الحقيقة ؟

– لأن هذه الحقيقة يجب أن تبقى مكتومة عنك فإذا فُتح باب فابتعدي ، وإذا سمعتِ ضجيجاً فضعي إصبعيك في أذنيك ، وإذا رأيتِ خيالاً فاغمضي عينيك .

– لقد ثبت لي الآن أنك صديق صادق .

– نعم ، وإني خير صديق فثقي بي .

– إنك وصفت لي بكلمات موجزة جميع ما ألقاه هنا ، وإن كل ما أوصيتني به كنت أجريه هنا من تلقاء نفسي بالسليقة دون أن أعلم إذا كان ذلك يقيني الأخطار أو يعرضني لها .

وحبذا يا سيدي لو تمكنت أن تقنع أمي بأن تغادر فينيسيا فإني قبل أن أكون هنا كنت من أسعد الفتيات .

– أين كنت من قبل ؟

– كنت مقيمة عند عائلة من الفلاحين في قرية مانتو فكانت أمي لا تزورني إلا مرتين في كل عام ، فكنا نلعب سوية كأختين وكنا سعيدتين إلى حد أنها حين كانت تسافر أشعر أن قلبي قد انتزع من صدري ، فهذه هي الحياة التي أريد أن أعود إليها .

– تأمّلي خيراً يا ابنتي ، فإني سأبذل جهدي كي أتمكن من إقناع أمك . فضمّت بيانكا يديها وقالت :

– إنك تنقذنا معاً يا سيدي إذا فعلت . فمتى تخاطب أمي؟

– عندما تسنح الفرصة ، وربما خاطبتها الليلة بل غداً فإني في حاجة إلى التمعّن .

– إنك كريم القلب يا سيدي ولا أحب أن تنقصني شيء من الثقة بك .

– وما الذي ينقصك يا ابنتي ؟

فاحمرّ وجه بيانكا وقالت : إني لم أقل لك كل شيء يا سيدي ، ولكن يجب أن أخبرك بكل أمري ولا سيما لتعلّقه برجل يأتي إلى هنا .

– أخبريني بأمر هذا الرجل .

– اتفق يوماً أن أمي ذهبت بي إلى النزهة فتوغلت في الترعة حتى بلغت إلى « بيدو » وهناك لقيها رجل عرفها بالرغم عن تبرقع وجهها . أما أنا فإني ذعرت ذعراً شديداً لنظراته .

– هل تستطيعين أن تصفي لي هذا الرجل ؟

– إنه شديد القبح وقد كان في ذلك اليوم يلبس ملابس الرهبان ، ولكن ملابسه كانت بنفسجية ...

فتمتم رولاند قائلاً : إنه بيبو !

قالت : وبعد ذلك بشهر رأيت باب هذه الغرفة قد فُتح ودخل منه هذا الرجل وكانت عيناه تتقدان فجعل يقول لي أقوالاً لم أفهمها لفرط اضطرابي وقد ذعرتُ منه فصرخت

مستغيثة، وأقبلت الخادمات فخرج الرجل وهو يعتذر بأنه كان مخطئاً .

– وماذا قالت أمك حين عرفت ذلك ؟

– لم أجسر على إخبارها بهذه الحادثة . وفوق ذلك فإني كنت أرتجف حينما كنت أفتكر بها .

– إطمئني يا سيدتي فسأحميك من هذا الرجل .

– أتعرفه إذن ؟

– نعم أعرفه . والآن أستودعك الله يا ابنتي فلا تخشي خطراً بعد الآن واشكري الله الذي سهّل لك الاجتماع بي واعلمي يقيناً أني سأتولى حمايتك منذ الآن .

فانحنت بيانكا وقد بدت عليها علائم الامتنان. أما رولاند فإنه فتح الباب ونادى سكالا برينو فقال له بصوت منخفض : أنظر إلى هذه الفتاة . قال : إني أراها أيها الرئيس .

– حدّق بها وتمعّن في هيأتها كي يعلق رسمها في ذهنك .

– إن رسمها لا يغيب عن ذاكرتي .

فلما أيقن رولاند أن سكالا برينو تفرّس بوجهها قال له بصوت مرتفع : إذهب الآن وائتني بالحاجات التي ذكرتها لك .

فانصرف سكالا برينو وأشار رولاند إلى بيانكا إشارة وداع وانصرف أيضاً . فلما صار خارج الباب لقيته أمباريا فقالت له : ماذا رأيت ؟ قال : لا شيء يشغل البال يا سيدتي ، وإذا شئتِ أن تتحققي من ذلك فادخلي إليها .

فأسرعت أمباريا إلى غرفة بنتها وخلا رولاند بآريتان

الشاعر فقال له : أريد أن تدعو صديقك بمبو إلى مأدبة لا يحضرها إلا أنت وهو وأنا .

قال له هذا القول واسترسل إلى التفكير فجعل يقول في نفسه : ما هذا القدر الغريب ؟ فإن هذه المحظية السافلة قضت عليّ بالشقاء الدائم لحرماني إياها من لذة ساعة ، إذ لا شك لديّ بأن يدها قد انغمست في تلك الجريمة ، جريمة الوشاية بي . وهي دون شك قد كانت آلة في أيدي ألتياري وفوسكاري وبمبو لإلقائي في هوة لا حدّ لها من اليأس !

وقد علمتُ الآن أن لها بنتاً وأنها تحب بنتها فقلت في نفسي: لقد دنت ساعة الانتقام الرهيبة ! ولكني حين خلوت بها سرت الشفقة إلى قلبي ورأيت هذه الفتاة تشبه الملائكة الأطهار وأنها جديرة بالرحمة والإعجاب ، وقد أتيت خصيصاً لأفجع أمها بها وأحرق قلبها عليها وعدت ولا همّ لي إلا إنقاذها ... فكيف أستطيع الانتقام من أعدائي إذا لم أنتزع هذا القلب الرقيق الذي بين جنبيّ ؟

وعند ذلك خرجت أمباريا من غرفة بنتها فأسرعت إلى رولاند وأخذت يده بيدها وقالت : إنك حقيقة من أبرع الأطباء ، فإني لم أجد بنتي قبل الآن على ما هي عليه من الصحة والعافية .

ثم التفتت إلى الشاعر آريتان وقالت له : إسمح لي يا سيدي أن أهنئك بسكرتيرك فإنه كنز ثمين . قال : ألم أقل لك يا سيدتي إنه من أحذق الأطباء ؟

أمــا رولاند فإنه حين شعر بلمس يد أمباريا هاج الحقد والنفور في صدره ولكنه كتم ما به وقال لها : ألعلّك اطمأننت يا سيدتي ؟ قالت : كيف لا أطمئن يا سيدي ؟

— وإذا قلت لك إن ظواهر هذه الصحة كاذبة وإن ابنتك حقيقة مريضة ؟

فاصفرّ وجه المحظية وقالت : إنك ترعبني يا سيدي . قال : أتأذنين لي بخلوة ؟

— دون شك ، فهلم بنا !

— كلا ، فلنرجىء ذلك إلى الغد فإن ضجيج الحفلة يزعجني .

— إن الغد بعيد ولا أظن أني أعيش إلى الغد ، فـإن القلق يقتلني ، فعد عند انتصاف الليل فإني أجد وسيلة لفضّ هــذه الحفلة وإطلاق سراح الناس .

— حسناً فسأحضر عند انتصاف الليل .

ثم تركها وانصرف . فوقفت أمباريا تقول في نفسها: عجباً! أذكر أني سمعت هذا الصوت ... ولكن أين سمعته ؟ ومــا بال نظرات هذا الرجل تثير في قلبي تذكارات هائلة ؟

*

وعند انتصاف الليـل تفرّق جميع المدعوين وأمرت أمباريا بإطفاء الأنوار وانصرف الخدم فساد السكون في هــذا القصر . وذهبت فجلست عند الباب الأكبر كي تفتح البـاب بنفسها عند قدوم الطبيب الذي كانت تنتظره .

وبعد هنيهة أقبل رولاند ، أو الطبيب باولو ، فأخذت بيده ودخلت به إلى إحدى الغرف فجلست على كرسي وأشارت إليه أن يجلس بجانبها .

فأحس رولاند باضطراب لم يشعر مثله إلا ساعـة فراره من السجن ، وذلك أن هــذه الغرفة التي أدخلته إليها كانت نفس الغرفة التي قادته إليها في تلك الليلة الهائلة التي كانت سبب شقائه الدائم . فاصفرّ وجهه تحت ذلــك البرقع الرفيع الذي كان متنكراً به وهاج الانتقام في صدره فخطر له أن يبطش بهـــا لفوره وضم يديه وحاول أن يهجم عليها ...

ولكنها لم ترَ شيئاً من اضطرابه فقالت له برفق : تفضل يـا سيدي الطبيب وحدثني عن بنتي . فضم رولاند يديــه وتنهد تنهداً عميقاً كاد يتمزق به صدره وقــد ذهب من نفسه خاطر الانتقام ولم يعد يرى في تلك المرأة غير الأم التي تذوب حناناً على بنتها ، فبذل جهداً عنيفاً كي يترك تلك الذاكرة القديمة وقال : ماذا تخافين يا سيدتي ؟ قالت : لا أعلـم ! فإني أحب ابنتي حباً لا تصفه الألســن حتى إذا أصيبت بأقل عارض أصبت بمـا يشبه الجنون ... ويلاه ، إني لا أدري ما يكون إذا فقدتها .

— يستحيل أن يكون هذا كل الذي تخافينه !

فارتعشت أمباريا وقالت : ماذا تعني بما تقول :

— إن بيانكا قوية البنية سليمة الجسم ولكنها بارعة الجمال . ألست تؤثرين يا سيدتي أن تجذب عيناها الجميلتان قلب أحد من الرجال ؟

فاصفرّ وجهها وقالت : ولكن يجب مع ذلك أن تتزوج .

– ليس هذا الذي تخافينه ! فلو جاءها كريم الأخلاق حلو الشمائل يحبها وتحبه وسألك أن تزوجيه بها لما رفضت طلبه ، ولكنك تخافين أن يكون قد رآها أحد أولئك اللصوص الضواري الذين ليس لهم من صفات الإنسانية غير وجوه بني الإنسان !

– إنك ترعبني يا سيدي !

– ربما تكون عيناها قد جذبت قلب واحد من أولئك الكواسر ، فإذا كان ذلك فالويل لابنتك فإن ذلك الوحش يراقب بنتك وهو شديد الظمأ إلى دمائها يعلم يقيناً أن هذه الفريسة لا يمكنها النجاة منه ويتأهب للانقضاض عليها . فإذا كان ذلك يا سيدتي فاحذري قبل أن يفوت الأوان .

فأجفلت أمباريا مذعورة وصاحت صيحة رعب فقال لها رولاند : ما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟ فإني لم أقل ما قلته إلا على سبيل الافتراض والظن . وفوق ذلك فانك مقيمة مع بنتك تسهرين عليها وتراقبينها أشد المراقبة . ومن يجسر على مهاجمة فتاة أمام أمها إلا إذا كانت الأم تحالفت شراً مع ذلك المسيء أو كانت تلك الأم قد اقترفت مع ذلك المسيء جريمة قيدتها به وجعلتها عاجزة عن صدّ إرادته ؟!

فوثبت أمباريا إلى الباب كي تستوثق أنه لا يوجد من يسمعها وعادت إلى رولاند فقالت له بصوت يتلجلج : مَن أنبأك بما تقول؟ و كيف عرفت هذا الاتفاق المعقود بيني وبين هذا الوحش

الكاسر بل هذا الأفعى الذي يدعونه بالكردينال ؟

– لا أفهم ما تقولين يا سيدتي ، وإنما قلت ما قلته على سبيل الظن . ويظهر أني قلت الحقيقة دون أن أريد .

– إذن أنت لا تعلم شيئاً ؟

– كلا !

فتنهدت أمباريا تنهد المنفرج بعد ضيق وعاد رولاند إلى الحديث فقال : ولكن يجب أن أعلم كل شيء إذا أردت أن أضمن سلامة بنتك من الأخطار التي تتهددها .

فارتعدت أمباريا وأرخت عينيها وشعرت أن لصوت هذا الرجل سلطاناً عليها فقالت له : سأخبرك بكل شيء !

– إذا كان ذلك فتفضلي يا سيدتي بإيقافي على الحقيقة وثقي أنه لم يكن يخطر لي أن أقف على هذه الأسرار المحزنة حين عهدتِ إليّ أن أفحص بنتك البريئة .

– البريئة ؟

– نعم إنها بريئة دون شك من الجرائم التي ارتكبها سواها، وربما قضي عليها أن تتحمل تبعاتها .

فأنّت أمباريا أنيناً حزيناً وقالت :

من أنت أيها الرجل ؟ فإني بحياتي لم يكلمني أحد بمثل هذا السلطان ولم يسبر أحد قبلك غور أفكاري كما تسبرها فمن أنت ؟ إني أريد أن أعرف من أنت !

وقد قالت له ذلك وحدقت به كي تفحص ملامحه لترى إذا كانت تنطبق على ملامح الرجل الذي كان ممثلاً في ضميرها في

تلك الساعة . فأجابها رولاند قائلاً :

– إني يا سيدتي كما تعلمين سكرتير الشاعر آريتان تلقيت دروسي في فلورنسا وقضيت شبابي في درس العلوم الفلسفية وربما كانت هذه العلوم هي التي ترشدني إلى خفايا القلوب . وقد كنت قبلاً عند الدوق جان مدسيس ولولا صداقته العظيمة مع آريتان الشاعر لما تخلى عني . فتكلمي يا سيدتي فإني مصغ إليك واسمحي لي أن أسألك .

قالت : سل يا سيدي ما تشاء فاني مستعدة لإجابتك .

قال : لقد خطر لي خاطر يا سيدتي وهو أنه إذا كان هناك خطر يتهدد بيانكا فلا بدّ من وجود رجل يشترك معك بالدفاع عنها .

– من هو هذا الرجل ؟

– أبوها !

– أبوها ؟

– وما الذي أذهلك؟ فإني واثق أنه إذا بلغه ما يتهدد بنته من الخطر يسرع لفوره إلى نجدتها وهذا طبيعي معقول. واسمحي لي يا سيدتي أن أتكلم بملء الحرية والجلاء كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فإنك مشهورة بالظرف وسلامة الذوق فلا يمكن أن يكون والد بيانكا من أوضاع الناس وهو دون شك من كبارهم وله بسطة ونفوذ .

فعاد الرعب إلى قلب أمباريا لما كانت تجده في لهجة رولاند من دلائل التهكم وقالت له : وأنا أحب أيضاً أن أكلمك بملء الحرية فإن المسألة خاصة بينتي .

– تكلمي يا سيدتي وثقي أني لا أظلمك بحكم .

– إذن فاعلم إني لا أعرف والد بيانكا .

– إني أشفق عليك يا سيدتي إذ كيف يمكن عدم معرفة ذلك الرجل الذي أحببته والذي تمثلت صورته في ضميرك وتسلّطت عليك بشكل مولود تحبينه إلى حد العبادة ؟ فإذا كان ذلك فأنت شديدة الهمّ دون شك . وقد ذكرتني حكايتك بحكاية امرأة قالت لي في بدء الحكاية ما تقولين ، وذلك حين لقيتها منذ عامين في ضواحي تريفيز بقرية تدعى فيما أظن تريفيرا قرب مغاور بيافا .

فوقفت أمباريا وجعلت تنظر إلى رولاند نظرات تتوهج !

فقال رولاند : وحكاية هذه المرأة يا سيدتي أنها ضلت الطريق حتى انتهت إلى مغاور بيافا فلقيتها هناك وأمنتها من خوفها وأقمنا نتحدث . وكانت جميلة مثلك وهي مثلك أيضاً تحب الأمور الغريبة فحكت لي حكايتها .

– ما هي حكايتها ؟

– هي أن هذه المرأة كانت مسافرة إلى روما من عهد طويل فأحاط بها فريق من اللصوص وجاؤوا بها إلى مكان مقفر مخيف يُدعى المغارة السوداء ...

فاحمرّ وجه أمباريا ثم اصفرّ ، وكان رولاند يراقبها فمضى في حديثه فقال : وقد خطر لهذه المرأة الغريبة الأطوار أن تتسرى بأحد هؤلاء اللصوص فاختارت من بينهم واحداً ...

فصاحت أمباريا صيحة دهش تظاهر رولاند أنه لم يسمعها،

وتابع يقول :

وقد أراد الله يا سيدتي أن يُنعم على هذه المرأة بمولود من ذلك اللص وهي عاقر لم تلد على طول صحبتها الأمراء والنبلاء فولدت بنتاً .

فوقفت أمباريا عند ذلك وقالت له : كفى ، كفى ! فان اجتماعك بهذه المرأة في المغارة السوداء لم يكن إلا من مخترعاتك وأنت لا تريد إلا أن تعنيني بهذه الحكاية ...

– أعنيك أنت يا سيدتي ؟

– نعم أنا ، ولكني لا أعلم كيف اتصلت بك هذه الحكاية ولا أعلم غرضك من قصها عليّ !

قال : إنك مخطئة يا سيدتي ، فاذا كانت هذه الحكاية قد اتفقت لك ألا يمكن أن تتفق لسواك ؟ فهزت أمباريا رأسها وقالت : إنك حاولت أن تعرف والد بيانكا فعرفته الآن وعرفت أنه من اللصوص ، ولكني لم أعرف اسم هذا اللص ولا حاولت مرة أن أعرفه ولو لقيته لما ذكرته ، فأنت ترى الآن أني لم أكن كاذبة حين قلت لك بأني لا أعرف والد بيانكا .

– إذن لندع الأمل بالاعتماد على والد بيانكا في سبيل إنقاذها من بمبو ...

فظهرت عند ذلك علائم اليأس على وجه الحظية وقالت : بمبو ؟ ومن الذي كلمك عن بمبو ؟ و مَن أنبأك أنه هو ذلك الرجل الذي أخافه ؟

– أنت يا سيدتي ! نعم إنك لم تذكري اسم بمبو ولعلك

قلت لي منذ حين إن هذا الوحش بل هذا الأفعى الذي تقيّدت معه إنما هو الكردينال فعلمت أنك تريدين به كردينال فينيسيا وهو بمبو ... ألعلّني مخطىء ...

– كلا إنك غير مخطىء ، ولكني بتّ أخافك الآن !

– ولماذا تخافينني؟ ألأنني أعرض عليك مساعدتك في إنقاذ بنتك ؟ إذا كان ذلك يا سيدتي فلم يبقَ عليّ إلا أن أنصرف .

– كلا ، كلا ، بل ابقَ . وإذا رأيت ما يخامرني من الرعب فلا تهتم له . وبعد ، فإني لا أبالي بما قد يصيبني من الكوارث بشرط أن تأمن بنتي الأخطار ! نعم يا سيدي ، إن الذي أخافه هو الكردينال بمبو أسقف فينيسيا ، فإنه هو الذي رأى بيانكا ، وهو الذي هام بها وجعل يتردد كل ليلة حول القصر ، وهو الذي عقدت معه ذلك الوفاق الذي أشرت إليه !

فأيقن رولاند أن هذه الحظية قد باتت طوع يده فقال لها : ما هذا الوفاق الذي تذكرينه ؟ أذكري يا سيدتي أنك قد جريت شوطاً بعيداً في القول بحيث لم تعودي قادرة على كتمان ما بقي من تلك الحقيقة الهائلة ، فاحذري أن تكتميها فاني قد أعرفها وقد تندمين لكتمانها .

– إني سأمتثل لك . ولكن مَن أنت وماذا تريد ؟ إني لا أعلم ... ولكن الذي أعلمه أنك مزوّد بمعلومات عجيبة .

– إذن تكلمي فاني مصغ إليك !

قالت : إني كنت أحب رجلاً في سنة ١٥٠٩ وهو الرجل الوحيد الذي أحببته . وحين أسأل نفسي إلى الآن أشعر بأني لا

أزال أحبه ! على أني أحبه وأكرهه في حين واحد ، وذلك أني
عرضت نفسي عليه فاحتقرني وصدّني لأنـــه كان يحب فتاة
عاملني لأجلها بهذا الاحتقار .

— ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

— رولاند كانديانو !

— والفتاة التي يحبها ؟

— ليونور دندولو !

فغرس رولاند أظافره في باطن كفه حتى كاد يدميه ثم قال:
أتمّي حديثك ! قالت : وقد عوّلتُ على الانتقام منه ، وكان
لي عشيق يدعى دافيليا فرآني هـــذا الرجل خلسة وأنا مع
رولاند ، فلمّا انصرف رولاند قتلت ذلك العشيق . وفيما أنا
واقفة أنظر لهذا القتيل وقد تمكّن مني الرعب رأيت رجلاً قد
دنا مني وكان قـــد رأى كل ما حدث ... وكان هذا الرجل
بمبو ... فأخذ بيدي وسار بي إلى غرفـــة أخرى فلقيت فيها
ألتياريُ الذي كان في ذلك العهد من أعضاء مجلس العشرة وهو
اليوم قائد الجيش العام .

وتوقفت عن الكلام هنيهة وهي تعجب في نفسها كيف أنها
تبوح بمثل هـــذه الأسرار الهائلة لرجل تكاد لا تعرفه ...
ولكنها كانت تنظر إليـــه نظرات فتضطرب وتشعر بنفوذ
نظراتـــه إلى قلبها وتحس بقوة عظيمة خفية تدفعها إلى الكلام
ولذلك لم تجد بدأ من العودة إلى الحديث فقالت :

— إن ألتياريُ وبمبو أجلساني بينهما فبدأ بمبو الحديث

فقال : إنك يا سيدتي قـــد قتلت أحد أعضاء مجلس العشرة ،
فسوف يشنقونك ويقطعون هذا الرأس الجميل .

فارتعشتُ عند ذلـــك وافتكرت بابنتي بيانكا التي أربيها
بعيدة عني في إحدى القرى فسال العرق البارد من جبيني حين
تمثّل لي قطع رأسي وجزعت جزعاً شديداً من الموت فقال لي
بمبو :

— على أنه يوجد طريقة واحدة لإنقاذك .

فبرقت عيناي ببارق من الفرح وقلت : ما هي ؟ قال : هي
أن تتهمي سواك بقتل دافيليا ، وإذا اقتضى الأمر إلى إثبات
التهمة بالشهادة وكلنا شاهدين على صدق ما تقولين. قلت: من هذا
الذي أتهمه ؟ قال : رولاند كانديانو ! قلت : معاذ الله أن أفعل!

— إذن أنت تتزوجين المشنقة ورولاند يتزوج ليونور !

فشعرت لهذا القول أن الرعب قد زال من قلبي وحلّ محلّه
الحقد فلسعتني عقارب الغيرة حين تصوّرت أن ليونور ستكون
سعيدة بقربه فصحت به قائلة : إني أرضى !

فأملى عليّ عند ذلك ألتياريُ الوشاية فكتبتها وأخذها بمبو
فألقاها في صندوق الوشايات ... وهو أمر هائل أليس كذلك؟
فقال رولاند : نعم إنه أمر هائل ! أما أنت فقد دفعتك الغيرة
إلى ارتكاب هذه الجناية . وأما بمبو فما الذي دفعه إلى ذلك ؟

— لا أعلم ، فربما كان حاسداً لرولاند !

— وألتياريُ ؟

— إنه كان يحب ليونور !

– وماذا صنعوا برولاند ؟
– ألقوه في الآبار ؟
– وهو لا يزال فيها دون شك ؟
– كلا ، فقد مات !
– كيف عرفت خبر موته ؟
– إنه حاول الفرار مع سجين آخر فألقيا بنفسيهما إلى الترعة وغرقا فيها . وكان الموت خيراً له مما كان يقاسيه من العذاب .
– ذلك لا ريب فيه . ولكن كيف استطعت أن تعيشي في خلال إقامة هذا المنكود في سجنه الرهيب !
– لقد تعذبتُ أكثر مما تعذب . فإني كنت تارة أحاول أن أخبر القضاة بالحقيقة ولكني كنت أخاف الجلاد ، وتارة كان يخطر لي أن أحاول إنقاذه ولكني أجد ذلك محالاً ، فكنت ألقى عذاباً لم يلقَ مثله الشهداء ولا سيما في ليالي الشتاء فاني كنت أحسب عصف الرياح فيها أنين رولاند في سجنه . ولكنه مات لحسن الحظ !
– نعم لحسن حظه ، وبعد ذلك ؟
– أنت تعلم الآن أني مقيدة بهذه الجريمة مع الكردينال بمبو ، وأنه منذ ستة أعوام يأمرني فأطيع ، وفي كل مرة أحاول الإفلات من قيده ينذرني بقول الحقيقة فأخاف الموت ولذلك بتّ أخاف الآن أن يأتيني ليلةً فيقول لي : اختاري بين أن تُمتعيني ببنتك أو أمتع بعنقك سيف الجلاد !
وعند ذلك جعلتْ تشهق بالبكاء بينما كان رولاند مطرقاً

برأسه يحدث نفسه فيقول : لقد عرفتُ السبب الذي دفع أمباريا وبمبو وألتياري الى الكيد بي . أما دندولو وفوسكاري فبماذا أسأت إليهما ؟ صبراً ، فستنجلي الحقيقة !
ثم التفت الى أمباريا وقال لها : لا تبكي ولا تجزعي فسأنقذ بنتك . قالت : لا شك أنك ملاك أتيتني بالصفح عن جريمتي .
– إني لم أقل لك غير أني سأنقذ بنتك .
– وأنا واثقة بك كل الثقة .
وعند ذلك نهض رولاند يحاول الانصراف فركعت أمباريا وقبّلت يده فجذب رولاند يده من يدها وأسرع بالخروج من ذلك القصر تاركاً أمباريا عرضةً لهياج شديد كاد يقتلها .

حب أبوي

*

عندما خرج رولاند وبلغ الشاطىء نظر الى ما حواليه فرأى رجلاً مختبئاً وراء شجرة فذهب إليه وقال له :
– أهذا أنت يا سكالا برينو ؟
قال : نعم يا سيدي وإني واقف في موقف المراقبة . وقد كان خلع ملابس الخدم ولبس ملابس تجار فينيسيا فقال له

رولاند : وأين رفاقنا !

– لقد جاء أكثرهم وهم ينتظرون أوامرك .

– إذن فاصبر الى أن يتكامل عددهم هناك فأخبرني .

ثم فكّ رباط قارب ونزل إليه فقال له سكالا برينو : هل يجب أن أصحبك يا مولاي؟ قال : إذا أحببت أن تتنزه فتعالَ .

فوثب سكالا برينو الى القارب واستلم المجذافين فقال : الى أين يأمر الرئيس أن يسير ؟

– إلى « ليدو » في عرض البحر حيث تأمن الرقباء .

وعند ذلك جلس في القارب واسترسل الى التفكير ، وكان السكون سائداً في فينيسيا لا يقلقه غير صوت المجذاف فلما وصل القارب الى ميناء ليدو أشار رولاند الى سكالا برينو أن ينقطع عن التجذيف ثم قال له فجأة : لقد قلت لي إنك لم تعد ترى تلك المرأة ...

فذهل سكالا برينو وقال : أية امرأة تعني يا مولاي ؟

– تلك المرأة التي حدثتني بما اتّفق لك معها في مغاور بيافا حين فضّلتك على ساندريجو .

– كلا ، فإني لم أرها بعد ذلك العهد !

– أتمعّنت في وجه تلك الفتاة التي رأيتها في قصر أمباريا ؟

– نعم ، وهي لا تزال ممثلة في ذهني .

– أتعرف اسمها ؟

– كلا !

– إذن فاعلم أنها تدعى بيانكا .

– سأحفظ هذا الاسم ولا أنساه .

– وإنك تكون مصيباً بحفظه كما أنت مصيب بطبع رسمها على صفحات ذهنك .

– دون شك ما زال قد صدر إلي أمرك بذلك .

– إني لم أصدر إليك أمراً بهذا الشأن فهو خاص بك .

فنظر سكالا برينو نظرة الانذهال دون أن يجسر على سؤاله ، فقال له رولاند : لقد فاتني أن أخبرك أن لهذه الفتاة أماً تدعى أمباريا .

– تلك الحظية ؟

– نعم تلك الحظية التي أغرتك مرة على القبض عليّ في تلك الليلة التي كانت بدء شقائي . ولكن لندع هذا الآن فقد قلت لك إن لبيانكا أماً وهي أمباريا ، فهل تعرف ماذا يدعى أبوها؟

– كلا يا حضرة الرئيس .

– إذن فاعلم أن والد بيانكا يدعى سكالا برينو !

فارتعش سكالا برينو ارتعاشاً عنيفاً حتى أوشك المجذاف أن يسقط من يده فقال له رولاند : ما هذا الاضطراب وماذا أصابك ؟ فقال : أسألك المعذرة يا مولاي فقد أسأت فهم ما قلته لي ، أليس كذلك ؟ قال : كلا يا سكالا برينو فان بيانكا بنتك .

– أنا لي بنت ؟

– نعم وهي من أمباريا !

– رباه ! ماذا أصنع ؟ أهذه الفتاة التي يأخذ جمالها

بمجامع القلوب ..

– إنها بنتك .

– أتكون هذه الملاك ابنتي ؟! أسألك المعذرة يا مولاي فإن ذلك فوق مقدرتي .

ثم وضع رأسه بين يديه وجعلت الدموع تذرف من عينيه فأخذ رولاند المجذاف ودفع القارب الى الشاطىء . وهناك وثب سكالا برينو منه الى البر وهرب في ذلك الليل الساكن لحاجته إلى الاختلاء كمن يصاب بحزن عظيم أو بسرور كبير ، فكان رولاند يشيعه بالنظر وهو يقول: إيكَ أيها الرجل الحنون وناجِ الليل بأفراح قلبك فإن مرور ساعة أنساك عذاب أعوام .

وعنـد ذلك سار وهو مطرق الرأس حتى انتهى الى قصر عظيم فوقف تحت نوافذه المقفلة ثم نظر الى تلك النوافـذ وأنَّ أنينَ الموجع ! فإن هذا القصر كان قصر ألتياري . وكان ينظر إلى تلك النوافذ وعيناه تتقدان ، وبعد أن وقف هنيهة طاف حول القصر ثم مشى ببطء الى الرصيف فجلس في موضع يشرف على القصر وجعل يحدث نفسه فيقول :

ترى ماذا أتيت أعمل هنا ؟ في هذا القصر ينام من أبغضه أكثر مما أحب من أحبها . وفي هذا القصر تنام من أحبها أكثر مما أبغض من أبغضه ! هناك ألتياري وهناك ليونور ! هنـاك اجتمع لديَّ الحب والكره واليأس والرجاء! إني أنظر الى هذه النوافذ كي أمتع الطرف في المكان الذي تبيت فيه ليونور ثم أنزل الى أعماق نفسي فلا أجد فيها غير الحقد الدفين .

– وعند ذلك أطرق هنيهة ثم غادر مكانه وسار مسرعاً الى الشاطىء ففكَّ قيود قاربه وسار به الى رصيف آخر قرب سراي الدوج ، وهنـاك نزل إلى البر وجعل يسير بين الأشجار وهو مطرق الرأس تثور في صدره البراكين ويتمثل خطيبته ليونور تجالس ألتياري وتنادمه وتناغيه فيطير فؤاده شعاعاً ويسير مسرعاً كأنه يريد الفرار من هذه الذكرى .

وفيما هو على ذلك سمع صوت اثنين يتحـدثان فوقف منصتاً إذ تبيَّن وخيل له أنه عرف صاحبَي الصوتين . ولكن الصوت كان يصل إليه بمـا يشبه الهمس فلم يفهم الحديث ، ولذلك تقدم مستتراً بالأشجار الى حيث كان الرجلان فوجدهما جالسين على حجر قرب جسر التنهدات وعرف أنهما فوسكاري وبمبو .

فاختبأ وراء شجرة وأصغى الى الحديث فسمع فوسكاري يقول : لماذا لم تنفذ فيه العقاب الذي أنفذناه بأبيه ؟ بل لماذا لم نأمر الجلاد بقتله يومئذٍ ؟ إننا أخطأنا يا بمبو خطأً لا يغتفر !

فعلم رولاند أنهما يتحدثان عنه . فوضع يده على قبضة خنجره وهمَّ أن ينقضَّ عليهما فيقتلهما شرَّ قتل ، ولكنه ارتـدَّ لفوره وقال في نفسه : كلا، فإن هذا القتل سهل وهو دون مايستحقان إذ يموتان في الحال .

أما بمبو فإنه أجاب فوسكاري قائلاً : لا فائدة من القلق يا سيدي فإن رولاند كانديانو قد مات . فحدق فوسكاري في بمبو وقال :

– ولكنهم لم يجدوا الجثة ، فإني أقفلت فم الترعة وصبرت

خمسة عشر يوماً فلم يجدوا الجثة ، فإذا كان قد مات غريقاً فأين ذهبت جثته ؟ قال الكردينال بمبو : إنك تعلم أن تيار الترعة يقذف الجثث إلى ميناء ليدو وهناك تدفنها الأسماك في بطونها . فاطمئن ، فإن الأموات لا يخرجون من القبور .

فهز فوسكاري رأسه وقال : ثق يا بمبو أن رجلاً مثله لا يموت غرقاً . وقد زرت السجن الذي كان فيه ورأيت ذلك المنفذ الذي فتحه فرأيت عملاً هائلاً لا يقدم عليه الرجال العاديون ، وكذلك فراره فإنه أعجب من عمله . كلا إنه لم يمت ، فإن لديه كثيراً من الأعمال بعد حريته تعيقه عن الموت .

قال الكردينال بمبو : لا أفهم يا مولاي ما تقول . فقبض فوسكاري على يد بمبو وقال : بل إنك فهمت كما فهمت أنا ، والويل لك ولي !

ثم أراد أن يغير مجرى الحديث فقال : ما جرى للشاعر صديق جان مدسيس الذي عزمت على إحضاره ؟

– إنه يدعى بيار آريتان وقد حضر وأدهش سكان المدينة بجرأته وبذخه .

– لقد سمعت شيئاً من ذلك . أتحسب أنه يقضي مهمتنا لدى جان مدسيس بما تقتضيه من الدقة والذكاء ؟

– إنه مشهور بذكائه ، وأما إخلاصه فإننا نستطيع شراءه بالثمن ، وإننا نبلغ منه بالمال ما نشاء .

– إذن ائتني به في أقرب وقت .

وعند ذلك افترقا فدخل فوسكاري الى قصره وسار بمبو

على شاطىء الترعة فتبعه رولاند وقد سمع كل الحديث دون أن يكون له قصد معين ، فإن المشروعات كانت تزدحم في رأسه ازدحام الغيوم المتلبدة في سماء ممطرة .

أما بمبو فإنه لم يذهب إلى منزله بالرغم عن دنوّ ساعة الفجر بل ظل يسير وهو يقف من حين الى حين ويتمتم بأقوال لا تصل إلى سمع رولاند حتى وقف أخيراً أمام قصر أمباريا . فعلم رولاند أن هذا الوحش جاء ليقف تحت نوافذ بيانكا كما وقف هو تحت نوافذ ليونور ومشى اليه فلم يسمع بمبو صوت خطواته إلا حين اقترب منه فاشمأز ودنا من الجدار كي يفسح له مجالاً للمرور .

غير أن رولاند وقف وقال بلهجة الهازىء المتهكم : أرى أني لست العاشق الوحيد الذي يأتي ليتنهد تحت نوافذ هذه الحسناء . ثم التفت إلى بمبو وقال : ألعلك يا سيدي من عشاق أمباريا ! وإذا كان ذلك فكيف اتفق وجودك هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ لقد كنت أحسب أن الشعراء مثل رئيسي أو المتمرنين مثلي يقفون في هذا الموقف الخيالي ويناجون القمر بغرامهم .

فقال بمبو في نفسه : إنه سكرتير الشاعر آريتان ، ثم قال له : مرّ بطريقك يا سيدي . فأجابه رولاند قائلاً : كيف أذهب من هنا وإنما أتيت لأتلو في هذا السكون قصيدة نمّقتها في وصف بيانكا الفاتنة .

فاصفرّ وجه الكردينال بمبو حين سمع اسم بيانكا ودنا من

رولاند وهو يحاول أن يقبض على يده ، فدفعه رولاند بعنف وقال له بصوت الناقم : إحذر أن تلمسني .

فتراجع بمبو مذعوراً وهو يقول في نفسه : ربـاه ! ما هذا الصوت ؟

أما رولاند فإنه ضبط نفسه في الحال وقال له : ماذا تبغي من الإساءة إلى شاعر فقير مثلي ؟ قال : إنك لفظت اسماً . . .

– نعم وهو اسم بيانكا .

– ولكن كيف اتفق أنك تتكلم عنها من غير كلفة ؟

– وأنت ، كيف اتفق أنك تسألني بمثل هذه القحة ؟

– أتعرف أيها الرجل من أنا ؟

– نعم أعرفك حق العرفان فإنك الكردينال بمبو أسقف فينيسيا . والذي أراه أنه خير لك أن تحادثني فقد أقول لك أقوالاً تفيدك .

– في أي شأن ؟

– بشأن بيانكا . أليس هذا الشأن الذي تهتم له أكثر من كل الشؤون ؟

فوضع بمبو يده على قبضة خنجره ونظر إلى رولاند نظرة الذئب يتحفز للانقضاض على الفريسة ، فقـال له رولاند : لا تجهد نفسك في ارتكاب جريمة قتل لا تفيدك ، وفوق ذلك فإني لا أدعك تقتلني دون دفاع بل إني قد أخنقك قبل أن يصل خنجرك إلى صدري .

– أنك مجنون دون شك ، فإنك تكلم كردينال فينيسيا

وأسقفها كما تكلم حمّالاً من حمّالي الميناء .

– إنـك تبالغ يا حضرة الكردينال بالتفاخر والمباهاة ، ولكن ليس هذا المراد . فدعني أتمّم فكري فأقول لك : كفاك قتلاً لا يفيدك . وقد هبطت منزلتك في نفسي حين رأيتك تضع يدك على خنجرك إذ لا أعلم كيف يخطر لك في الحال قتل رجل مثلي . ثم إني أرى على نور القمر وجهك الدميم فأتبين منه أنك تكرهني كرهاً هائلاً في حين أني لم أسيء إليك أقل إساءة .

– إذن ماذا تريد مني فـإني أسمعك منذ حين وأحسب أني أسمع مجنوناً .

– لا تكذب أيها الكردينال ، فإنك تعلم أن الكذب تحرّمه الكنيسة . ولو كنت تعتقد حقيقة أني من المجانيـن لتركتني وانصرفت ، ولكنك لبثت وأنت تذوب شوقاً إلى سؤالي .

– نعم ، أيها الشيطان الرجيم ، فلا أعلم من أعطاك سلطان القراءة في النفوس ولكنك تقرأ في نفسي كما يقرأ الناس في كتاب مفتوح .

– وأي عجب في ذلك إذا كانت عيناك تترجمان عن دخائل قلبك ؟ ولكن مـا لنا ولهذه المباحث العقيمة ، فسلني بحرية وجلاء وقل ما الذي تريد أن تعرفه .

فاضطرب بمبو من الغيظ والحقد وقرر في باله قتل هذا الرجل قراراً لا يُنقض . ولم يهجم عليه في تلك الساعة لسببين ، الأول أنه لم يكن واثقاً من مقدرته عليه ، والثاني أنـه أراد أن يعلم نيات هـذا الرجل ولماذا اقتفى أثره وتعرّض له ، فملك نفسه

جهد ما يستطيع وقال له : إني أريد أن أعرف قبل كل شيء من أنت ، فإنك تدّعي أنك شاعر وأنك سكرتير آريتان . ونعم إني رأيتك عنده ولكني واثق بأنك تتستر بهذا المنصب، فأنت غير ما تدّعيه وأنا أريد أن أعرف من أنت .

أجابه رولاند : لقد دعوتني منذ هنيهة شيطاناً ، فافترض أني شيطان !

– شيطان ؟

– ولماذا لا أكونه ؟ إنك بصفتك كردينالاً وأسقفاً ، يجب أن تعتقد بوجود الشياطين ، ولكنك قد تكون مخطئاً .

فنظر بمبو إلى ما حواليه نظرة رعب وهلع .

ولا بدّ لنا هنا من الإشارة إلى أن ذلك العصر كان عصر خرافات ، وأن الأوهام كانت تتسلط على أعظم الرجال ذكاءً ولا سيما الأمراء ورجال الدين ، فإنهم كانوا أكثر تعلقاً من العامة بالخرافات وحكايات الجن والأبالسة . ولذلك ذعر بمبو ذعراً لا يوصف وتراجع إلى الوراء وهو يقول :

– إذا كنت من رسل جهنم فإني آمرك بالله أن تعترف لي بذلك .

فابتسم رولاند ابتسام الاحتقار وعلم أن بمبو أضعف مما كان يتوسم فيه فقال له : إذا كنت تخاف من الشياطين فافترض أني من الملائكة . وفوق ذلك فإني أدع لك الخيار بين أن تحسبني ملاكاً أو شيطاناً أو إنساناً ، على أن كل ذلك لا فائدة فيه فلنبحث في المهمّ .

– حسناً ، فقل لي كيف عرفت ما عرفته عني ؟

– ذلك بسيط سهل ، وهو أني قفوت أثرك فعلمت ما أريد أن أعلمه عنك .

– ولماذا حادثتني عن بيانكا وعما افتكرته بشأنها فإن ذلك سر من أسراري لم يقف عليه أحد ؟

– لقد وصلنا الآن إلى المسألة الحقيقية ، فإنك تعتقد يا حضرة الكردينال أن غرامك ببيانكا سر من أسرارك فكان مثلك بذلك مَثَلَ سائر العشاق الذين يتوهمون أن سر غرامهم لا يعلمه غير النجوم التي يرقبونها، وهو بادٍ في عيونهم وفي كل ما يقولون ويفعلون فلا يخفى على الذين بحثوا في الغرام ، وإني أعرف فتى مثلك كان يرود حول منزل من يحب وكان مثلك يسترسل إلى نجواه فلا ينتبه إلى من يراقبه في حبه ولكن المنكود لم يكن سعيداً في حبه .

– ماذا حدث له ؟

– إنه قتل لنكد طالعه . وأما أنت فإنك موفّق في غرامك فإن الذي يقفو أثرك لا يريد قتلك ولو أراده لفعل من زمان ولكنه يريد أن يساعدك . فالفرق بعيد كما ترى بينك وبين ذلك المنكود .

– أنت تريد مساعدتي ؟ ولماذا ؟

– وأية فائدة لك من معرفة حقيقة أفكاري ؟ ألا يمكن أن يكون لي صالح بأن أرى ابنة أمباريا خليلتك ؟

فارتعش بمبو سروراً وقال في نفسه : إذا كان هذا الرجل

يريد الانتقام من أمباريا فقد اتضح الأمر وذلك معقول ، فقد يكون اتفق له مع أمباريا ما دعاه إلى الانتقام منها . ثم التفت إلى رولاند وقال : لننظر الآن كيف تستطيع مساعدتي ، وما تسألني مقابل هذه المساعدة .

– سأجيبك عن المسألتين ، ولكني أختصر فأجيبك عن المسألة الثانية : إني لا أريد منك شيئاً .

– ذلك كثير .

– إطمئن ، فقد أكون نلت جزائي من موضع آخر . ولنبحث الآن في طريقة مساعدتك .

– إني مصغ إليك .

– إذن فاعلم أني أستطيع اختطاف بيانكا وتسليمها إليك.

فكاد الكردينال يطير سروراً وقد تمثل له في تلك اللحظة أنه قد ضم تلك الفتاة إلى صدره وسار بها وهي تخفق خفوق أجنحة الطائر دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها ، فقال رولاند : ما بالك لا تجيب ؟ أم يعجبك هذا الاقتراح ؟ قال : بل إني أمنحك كل ما تطلبه إذا فعلت ذلك .

– ألم أقل لك إني كوفئت من موضع آخر ؟ فقل ، أترضى بهذا المشروع ؟

– نعم !

– إذن تعال في الساعة التاسعة من مساء غد إلى نفس هذا الموقف الذي أنت فيه الآن أمام قصر أمباريا .

– وإذا رأتني ؟

– لا بأس من ذلك فإني أؤثر أن يروك كي أقنع بعض رجالي . وعلى ذلك فإن بيانكا تكون لك في الساعة الحادية عشرة .

– كيف تصنع ؟

– ذلك منوط بي ، فاحرص على أن تكون غداً في الموعد الذي عيّنته لك .

– ولكن ما الذي يضمن أنك لا تنصب لي شركاً ؟

– وأية فائدة لي من نصب الشرك ؟ فاني لو كنت أريد قتلك لقتلتك منذ ساعة فقد تيسّر لي مائة مرة أن أهاجمك على غرة .

– ذلك أكيد .

– إذن ستحضر في الموعد المعين .

– أحضر .

وعند ذلك افترق الاثنان فسار بمبو مسرعاً ووقف رولاند يشيعه بالنظر وقد تبيّن الحقد في عينيه حتى إذا توارى عن أنظاره سار إلى جهة الميناء إلى أن وصل إلى منزل عليه ظواهر الفقر ، فقرع بابه ففتح له رجل وكان هذا الرجل سكالا برينو. وكانت علائم الهم والكآبة بادية على وجه سكالا برينو فتنهد حين رأى رولاند وقال له : أسألك العفو أيها الرئيس ، فقد تركتك دون استئذان لأني كنت شبه المجانين لهذا النبأ الذي أخبرتني به فولّد في نفسي أفكاراً كثيرة . ولكن كل ذلك قد انتهى الآن . فأجابه رولاند برفق وحنان :

– قل يا سكالا برينو ما هذه الأفكار ولا تكتم عني أمراً فإن ذلك يريحني من عناء محادثة جرت لي منذ قليل .

فهز سكالا برينو رأسه وعاد إلى التنهد دون أن يجيب فقال له رولاند : ألعلك تؤثر أن تكتم عني أفراحك وأحزانك ؟

– كلا ، كلا يا مولاي ، ولكن هذا الخاطر الذي خطر لي علمت أنه حلم باطل لا يمكن تحقيقه .

– ماذا حلمت ؟ أحلمت أنك أخذت بيانكا وخرجت بها من فينيسيا فابتعدت بها عن تلك الوحوش الضارية التي ترود حول منزلها كي تنشب براثنها فيها ؟ أم حلمت أنك تريد إبعادها عن تلك الأم الفاسدة التي قد ينتهي بها الضعف والخوف أو الطمع إلى بيع ابنتها بيع السلع ؟ قل ، أليس هذا الذي خطر لك ؟

فضم سكالا برينو يديه الكبيرتين وأشار برأسه إشارة إيجاب . فقال رولاند : وقد حلمت أيضاً أنك ابتعدت ببيانكا وجعلت تعاملها بحنو ورفق إلى أن أحبتك وقالت إنك كريم الأخلاق رقيق القلب فلماذا لم تكن أبي ؟ فضممتها إلى صدرك وقلت لها ودموع الفرح تنهل من عينيك : نعم إني أبوك الحقيقي وإنك ابنتي العزيزة !

– هذا أكيد يا مولاي ، فقد خطرت لي هذه الأفكار .

– ثم قلت في نفسك إن ذلك مستحيل ، وإن تلك الحظية تراقب بنتها أشد المراقبة ، وإنك قضي عليك أن تعيش بعيداً عنها .

– اليست هي الحقيقة ايها الرئيس ؟

– كلا ، فإننا سنختطف بيانكا في الساعة الحادية عشرة من مساء غد .

فوثب سكالا برينو من موضعه وقال : مولاي ، إنه عمل عظيم ! فقال رولاند : لقد عملنا أعظم منه يا سكالا برينو فثق بأننا سنختطف بنتك غداً .

– إنك تفتح لي أبواب السماء يا مولاي !

– هل جاء رفاقنا كلهم إلى فينيسيا ؟

– لقد جاء معظمهم ومن تأخر منهم يحضر غداً دون شك.

– إذن إتفق معهم على الاجتماع عند قصر أمباريا ، وفي الساعة العاشرة أذهب إليهم فألقي عليهم التعليمات اللازمة .

أأكون أنا معهم يا مولاي ؟

– كلا !

– كيف ذلك ؟ ألا أحضر اختطاف بنتي فأحملها ؟

– كلا ، بل يجب أن تنتظر في قارب سريع إلى أن آتي بها إليك فتسير بها إلى السفينة التي تنتظرنا في الميناء . وعندما تصل بها إلى ظهر السفينة دعها هناك وتعال إلي ، وأنت تثق بي كما أظن فتعلم أني ساع إلى سعادة بنتك .

– إني أثق بك يا مولاي كما يثق المؤمنون بالله .

أما جبو فإنه ذهب إلى منزله القريب من سانت مارك وكانت الساعة قد اقتربت من الرابعة بعد انتصاف الليل وانبثق الفجر ، ففتح نافذة غرفته وجعل يسير ذهاباً وإياباً في تلك الغرفة .

وكانت بيانكا تعتقد أنه لم يرها غير مرة أو مرتين ، ولكن الحقيقة أنه رآها منذ جاءت بها أمها إلى فينيسيا وبدأ غرامه بها منذ ذلك اليوم .

ولقد يعجب القراء كيف تسري عاطفة الحب إلى قلب مثل هذا الوحش الضاري ، ولكن بمبو قد ترك رسائل تثبت هذا الحب ، فإنه لم يحبّه أحد ولم يحب أحداً قبل أن يعرف بيانكا فعرف عند ذلك جور الحب وسلطان الغرام . وقد كان يحسب في البدء أن الظفر بها سهل ميسور ، وأنه سينالها من أمباريا بأبخس الأثمان . ولكن ما لقيه من مقاومة أمباريا العنيفة أثار هياجه . ثم قال في نفسه إنه يجدر به الرجوع عن حب هذه الفتاة . ولكنه لم يكد يعاهد نفسه على سلوانها حتى باتت تتمثل له في كل تخيل وشعر أن هذا الغرام سيورده موارد الحتف إذا لم يخرج منه ظافراً غانماً .

وقد عرف في هذا الحب جميع أنواع الشقاء ، من الأرق إلى اليأس إلى البكاء . فلما لقيه رولاند في تلك الليلة تحت نوافذ بيانكا كان قد أتى يضع خطة جريئة يرجو أن يظفر بعد تنفيذها ببيانكا وهي خطة تشبه الخطة التي اقترحها عليه رولاند غير أنها كانت لا تزال مبهمة في أفكاره حتى جلاها رولاند .

وقد أخذ يسير في غرفته وهو لا يفتكر إلا بذلك الرجل وبأقواله التي كانت لا تزال ترن في أذنه فجعل يقول : لا بد لي من قتل هذا الرجل فإنه واقف دون شك على أعمالي وعارف

بنياتي . فمن هو هذا الرجل ومن أين أتى وماذا يريد ولماذا ينبغي أن يسلمني بيانكا ؟ نعم يجب أن أعرف غايته من ذلك. إن هذا الرجل لا يزال في مقتبل الشباب ، ألا يمكن أن يكون عاشقاً مثلي ؟

نعم إن الغرام قد يكون دفعه إلى ذلك ... ولكن ترى من يحب ؟ ألعله يحب بيانكا وأنها صدّته فحاول أن ينتقم منها ! كلا ، إن ذلك غير معقول . وكيف يسلّم مَن يحبها إلى مزاحمه فيها ؟ أم لعله يحب أمباريا ! إن ذلك بعيد أيضاً فان أمباريا من الحظيات وقد رأيت في وجه هذا الرجل وتبيّنت من لهجته أنه لا يتدانى إلى صغار الأمور فلا شك أنه يضمر وراء هذه الظواهر أموراً خفية . وما هذا الذي يضمره ؟ ثم إنه عرف غرامي ببيانكا وأدرك مقاصدي ، فهو إذن يراقبني ويهتم بي منذ عهد بعيد فما هو قصده يا ترى ؟

إني قتلت كثيراً من الناس، فإنّ مَن يسير في طريق السلطة والأثرة ويكون له مطامعي فلا بد له أن يكون فاتكاً ظالماً منزّهاً عن تلك العاطفة التي يدعونها الرحمة . ومَن اجتمعت لديه هذه الصفات كان قوياً . إذن أنا من الأقوياء ما زلت قد انتزعت من قلبي كل عدالة ورفق وإشفاق !

نعم ، ولكن من يفتك بالناس هذا الفتك يجب عليه أن يسحقهم سحقاً ، فهل أبقيت سهواً على عدوّ يحاول الآن ...

وعند ذلك ضم يديه إلى صدره ووقف هنيهة يتأمل ثم عاد إلى مناجاة نفسه فقال : نعم ، لا بد لي من قتل هذا الرجل !

فلأستخدمه في البدء ثم أقتله . والآن فلأبحث عن وسيلة ، فإنه في هذه الليلة سيلقى بيانكا فيجب أن أمتنّ منه أعظم امتنان، ولكي أظهر له امتناني أدعوه إلى العشاء عندي ، وهو سيحضر دون شك . ولكن أتراه يقبل أن يأكل من طعامي ؟ نعم ، إنه يقبل بشرط أن أحمله على الثقة بي وذلك سهل علي ، ومتى رضي أن يأكل من طعامي قضي الأمر ووفيته حقه من الجميل .

وقد ظهرت عليه عند ذلك علائم الرضى لوثوقه من أنه سيقتله بالسم وأنه سينال بيانكا . فجعل يفتكر بترتيب حياته السعيدة القادمة إلى أن نادى رئيس قصره فقال له : أريد أن تخصص مكاناً أنيقاً في القصر لإقامة امرأة فيه بضعة أيام ، وبعد ذلك تبحث لي عن منزل موافق يكون معتزلاً تسهل مراقبته فتقيم فيه .

قال رئيس القصر : سأفعل يا مولاي . ثم انصرف . وبعد ذلك بساعة لبس الكردينال بمبو ملابس النهار ، أي ملابسه الأسقفية ، وذهب إلى آريتان الشاعر فوجده جالساً يكتب . فأحسن الشاعر استقباله وقال له : أترى كيف أبكر إلى العمل بكور الطيور ؟ قال : ماذا تصنع ؟

– إني أنظم قصة لملك فرنسا .

– كم ترجو أن تنال منه ؟

– ألف ريال على الأقل لأني توعّدته سلفاً . فضحك بمبو وقال : بماذا أنذرك الملك ؟

– بطبع القصة التي أنظمها له .

– ما هي هذه القصة ؟

– إنها قصة صحيحة إذ لا يوجد مَن ينقضها . وهي أن أم الملك أحبت في شبابها رجلاً يستحق الحب ...

– أتظن أن الملك يخاف من طبع هذه القصة ؟ وأية ملكة من أسرته لم تعشق ؟

– هو ذاك . ولكن هذا الرجل الذي أحبته كان من خدام الإسطبل ، فيكون جلالة الملك ابن سائس ...

– إذا كان ذلك فهو يخاف دون شك . ولكن ما الذي يدعوك إلى ولوج مثل هذه الأبواب ؟ ألعلك في حاجة شديدة إلى المال ؟

– وأية حاجة ! فإني ليس لي حتى ثمن الخمر .

– مسكين !

– ولا بد لي في هذا العام أن أكسب اثني عشر ألف ريال ، فقد وضعتُ الضرائب وفرضت على الامبراطور شارل ثلاثة آلاف ريال ، وعلى الملك فرنسوا ألف ريال ، وعلى الدوق دي فرّارا خمسمائة ...

– وأنا كم ينالني من هذه الضرائب ؟

– أنت ؟

– نعم أنا، أو الذين أستطيع أن أدعهم يتحملون ضرائبك.

فدنا الشاعر من بمبو وقال ؟ هل تستطيع أنت أن تنقدني شيئاً ؟

– إني أستطيع أن أعطيك أربعة آلاف ريال .

– متى ؟

– إني أعطيك نصفها اليوم إذا شئت .

– إذا كنتُ أريد ؟ قسماً بثغر مرغريتا ...

– إذن تعالَ معي .

– إلى أين ؟

– تعالَ فسوف ترى . وأسرع بلبس ملابسك فتسير معي في مركبتي .

فأسرع الشاعر إلى لبس ملابسه وبعد هنيهة عاد إلى بمبو فقال له : هلمّ بنـــا . قال : إلى أين تذهب بي ؟ قال بمبو : إلى الدوج .

– الدوج ؟

– نعم ، فهل ترعبك مقابلته ؟

– كلا ، فإن أمثالنا لا يخافون أحداً .

*

وبعد هنيهة كان الكردينال يجتاز قاعـــة في سراي الدوج غصّت بالقوّاد والأسياد ، فإن فوسكاري كان قد جعل بلاطه شبه بلاط الملوك . وقد فعل ذلك تباعاً بحيث لم ينتبه له مجلس العشرة إلا بعد أن فات أوان الاعتراض وباتت السلطة المطلقة بيده . فإنه قد استأثر بقوّتَي الكنيسة والجيش، فكان يستولي بقوّة الكنيسة على عقول الأحداث والنساء، ويستولي على الرجال بالنساء وبالأحـــداث ، بحيث لم يبقَ رئيس عائلة لم ينتهِ أمره

بالخضوع لامرأته وبنيه . وكان بقوة الجيش يستولي على الثائرين ومَن يجنح إلى الثورة .

وكان رئيس الجيش ألتياريْ ورئيس الكنيسة بمبو . فكان الأول سائداً على الضباط والجنود والثاني على الكهنة بحيث كان فوسكاري يقمع الثورات ويخمد العصيان بجند ألتياريْ ويضغط على الأفكار ويستولي على القلوب بقوة بمبو .

هذه كانت خطة فوسكاري . وقد لبث يعمل ستة أعوام حتى تمكن من الاستيلاء على هاتين السلطتين بحيث بات قادراً الآن على استخدامها في سبيل نفسه .

الدوج

*

مرّ الكردينال والشاعر بقـــاعة كان الناس فيها عصابات يتحدثون وكلهم ينتظرون أن يجيء دوره في مقابلة الدوج . فلما مرّ بهم الكردينال جعل الجميع يحيونه بملء الاحترام فشعر آريتان بنفوذ صديقه وقال في نفسه :

يا ليتني انتظمت في سلك الكهنة وأرحت نفسي من عنـــاء البحث عن المال ، فهذا الكردينال يقبّل الناس يده ويعطونه ما

يحتاج إليه صاغرين . وأخلِقْ بمن خُلق كسولاً مثلي أن يلبس لباس الكهنة ويمتهن هذه المهنة فقد باتت وظائف الكهنوت في هذه الأيام مهنة من المهن الرابحة ...

وقد قطع الكردينال عليه حديث نفسه ودعاه إلى الجلوس بجانبه على كرسي . ثم أشار إشارة إلى أحد الحجاب وعاد إلى محادثة آريتان فقال له بصوت منخفض: إن الدوج سيستقبلنا في الحال لأنه ينتظرنا وفي خلال ذلك نستطيع أن نتحدث .

– بماذا ؟ ما الذي سنقوله ؟

– إني أريد أن أسألك عن رجل تعرفه .

– من هو ؟

– إنه رجل حاذق يجيد نظم الشعر وقد عيّنته في المنصب الذي أراده ، فهل يهمّك أمره ؟

– كثيراً .

– إذا كان ذلك فإني سأرقّيه .

– من هو هذا الرجل ؟

– كنت أتوقّع أن يخبرني شيئاً عنه ما زلت تريد خيره . أما أنا فإني لم أعرفه إلا برسالة جاءني بها من الشيطان الأكبر .

– الشيطان الأكبر ؟

– نعم ، أي من جان دي مدسيس[1] .

---

١ – كان جان دي مدسيس يلقبه جنوده بالشيطان لشدة بلائه في الحرب .

– إذن لا تعرفه ؟

– كلا !

– ولكن يجب أن تعرف من هو ومن أين أتى وماذا يريد .

– ذلك سهل معرفته فإنه شاعر وقد أتى من فلورنسا وهو يريد الثروة .

– كل ذلك ظواهر يضمر وراءها دون شك مقاصد خفية أريد أن أعرفها .

– حسناً ، فسأسأله عن كل ما تريد معرفته .

وعند ذلك جاء الحاجب وأخبر الكردينال والشاعر أن الدوج ينتظرهما فدخلا إليه .

*

لما مثل آريتان بحضرة فوسكاري نظر إليـــه الدوج نظرة الفاحص ثم قال له فجأة : إنك صديق جان دي مدسيس ؟قال: نعم يا سيدي الدوج ، فإنه شرفني بصداقته منذ عهد بعيد ولم يرضَ فراقي إلا مكرهاً .

– إذن لماذا فارقته ، فإن رضى مثله خير من رضى الملوك !

– هو ذاك يا سيدي ما خلا رضاك .

– ولكني لست من الملوك !

– لقد سمعت أهل فينيسيا يتكلمون عن فوسكاري باحترام كان له عليّ تأثير أعظم . ورأيت قصرك الفخم يحيط به الحراس فشبهته بقصر اللوفر الملكي الذي رأيته في باريس وبقصر سانت

آنج في روما . ودخلت إلى قصرك فما شبهت بلاطك إلا ببلاط مدريد ، ثم رأيتك ورأيت قصرك ورأيت شعبك فعلمت أنهم خير أبطال يقيمون في أمنع حصن ويخضعون لأعظم أمبراطور.

فاهتز فوسكاري لهذا الثناء ولا سيما لكلمة أمبراطور فقال في نفسه :

— لا شك أن هذا الشاعر غير أبله كما يتوهم بمبو، فإنه عرف عني لأول وهلة ما لا يعرفه هو طيلة حياته ، بل ما لا يعرفه سواي . ثم قال للشاعر :

— لا يوجد ملك في فينيسيا ولن يوجد فيها ملوك . ولكن لنعد إلى جان دي مدسيس الشهير فإني أظن أنك فارقته لسبب آخر غير السبب الذي ذكرته .

— إن السبب شخصي محض يا سيدي ، فإن جان دي مدسيس النبيل لا يعيش إلا في ساحات المعارك ولا يتنشق المرء من حوله غير رائحة البارود ولا يسمع غير دويّ الطلقات بحيث يكون معرضاً في عشرته لأشد الأخطار في كل يوم .

— تريد أن تقول إنك لا تحب الحروب ؟

— ليس هذا الذي أعنيه يا سيدي فإني لست من الجبناء ، ولكن الحروب لا تروق لي .

— وعلى ذلك فلو طلبت إليك أن تعود إلى جان دي مدسيس ألا تكون راضياً ؟

— دون شك يا مولاي ، ومن يروق له أن يبرح مدينة الماء الساحرة إلى معامع القتال ، إلا إذا أراد مولاي أن يبعثني

بمهمة فإني أعدُّ نفسي عند ذلك سعيداً بأن أكون سفير الدوج فوسكاري إلى جان دي مدسيس .

فنظر الدوج إلى بمبو نظرة خفية أجابه عليها بمبو بهز رأسه، فأطرق الدوج هنيهة مفكراً ثم التفت إلى آريتان وقال له :

— ماذا أتيت تعمل في فينيسيا ؟

— أتيت لأتملى بعشرة قومها وأتمتع بظرفهم وأدبهم .

— أهذا كل قصدك ؟

— كلا ، بل أتيت أيضاً لالتماس الثروة .

— إني أستطيع أن أعينك على قصدك .

— يا له من عمل صالح !

وعند ذلك تدخّل بمبو فقال مخاطباً الدوج : إسمح لي يا مولاي أن أقول لك إن صديقي بيار آريتان لا يقدر أن يقول عن نفسه ما أقوله عنه، فهو لم يقتصر على أنه الشاعر المجيد النابغ في كل مطلب بل هو الفيلسوف المفكر والذكي الحاذق والمجرب الخبير ، وهو يفهم بالإشارة وينقل الأفكار دون أن يضطر صاحبها إلى تدوينها بالأوراق . وقد امتاز بسلاسة التعبير وبقوة الإقناع وبمخاطبة الناس على قدر عقولهم .

قال فوسكاري : إني أعلم ما تقوله ودليل ذلك أني سأعهد إليه بمهمة خطيرة . ومثل هذه المهمة ما كنت أعهد بها إلى سواك لولا أن أعمالك تقضي ببقائك في فينيسيا . وكفى بذلك دليلاً على مبلغ ثقتي به .

فأجابه آريتان قائلاً : لك يا سيد أن تعتبرني رسالة مختومة

لا يستطيع فضّها غير صاحبها ، فإن مــا تقوله لي ينقش على صفحات قلبي ويصل إلى المرسل اليه . فابتسم الدوج وقال : إذن لم يبق إلا أن نعرف تكاليف شحن الرسالة. فأجابه الكردينال قائلاً : لقد شغل الشعر صديقي عن الاهتمام بهذه الدنايا ، فهو يعلم أن ما سيناله من المجد بقضاء هذه المهمة لا يقابل معه جزاء ولا يذكر في جانبه مال. فهلع قلب الشاعر من الخوف وقال: ولكن إسمح لي يا سيدي ...

فقاطعه الكردينال قـائلاً : نعم ، إن صديقي لا يبحث إلا عن المجد وخلود الذكر . فأجابه الشاعر قائلاً وهو يبتسم : هو ذاك ، ولكني قبل أن أخلد أريد أن أعيش ! فقال الكردينال مخاطباً الدوج : ولكن إذا كان شاعرنا الشهير لا يحفــل بالمال وبضروريات الحياة المادية فإن الصداقة تقضي عليّ بأن أتولى عنه هــذا الشأن ، ولذلك رأيت أن يُعطى ألفي ريال قبل سفره ومثلها عند عودته .

فوافق الدوج على ذلك وكتب حوالة بألفين وخمسمائة ريال دفعها إلى الشاعر وقال له : سيكون لك مثلها عنـد الرجوع . فأخذها الشاعر وقـد أبرقت عيناه بأشعة الفرح وقال : إني لا أستطيع مكافأتك على ثقتك بي .

— إنك ستذهب إلى جان دي مدسيس . وأسرع في سيرك ما أمكنت السرعة .

— سأسير الليل والنهار .

— كم تبلغ قوات الشيطان الأكبر ؟

— خمسة عشر ألفاً من حملة البنادق وأربعــة آلاف فارس وعشرة مدافع .

فابتسم فوسكاري وقال : إذن قل له من قبل فوسكاري ، دوج فينيسيا ، إنه يستخدم جيشه وقواه الحربيــة في أمور هي دون استحقاقه بمراحل . وإني أقترح عليه أن يكون بيننــا محالفة ، فأقدّم له عشرين ألف جندي بحيث يصبح عدد جنده مضاعفاً وإننا نستطيع بمثل هذه القوة العظيمة أن ...

وهنا تردّد وتوقف عن إتمام جملته فأتمها آريتان عنه وقال : إنك تشبه يا سيدي بهذه القوة سيد إيطاليا بجملتها ، أليس هذا الذي تعنيه ؟ ثم أقول له إن الحروب ناشبة بين الولايات الإيطالية وإنها لا تستطيع مقاومة جيشكما إذا اتفقا ...

— إنك لا محالة شديد الذكاء .. نعم قل له هــذا القول وأضف إلى ذلك أني أنا فوسكاري دوج فينيسيا أخجل من أن أرى الولايات الإيطالية يمزق بعضها بعضاً، وأن وادي بو الخصيب معرّض للنهب في كل يوم ، وأن الأنهار الإيطالية تصبغ مياهها بدماء الرجال ، وأني قد خطر لي خاطر عظيم أحب أن أطلعك عليه ...

— إنك ستكون يا سيدي في مأمن عليه .

— إن هذا الخاطر العظيم جدير بقائد عظيم مثل القـــائد مدسيس وجدير بأن أسهر عليه الليل والنهار ، فإني أريد توحيد البلاد الإيطالية .

— أتجعل يا سيدي البـــلاد الإيطالية مملكة واحدة ؟ الله

ما أشرف هـذا الرأي وما أعظمه ، فإنه إذا تحقق اضطرب له العالم .

– إن فينيسيا سيدة إيطاليا لا يمكن توحيد البلاد إلا بها . وقد كفانا خـدمة لأغراض الغير وإرسال أساطيلنا لمساعدة الملوك ! إنه يجب بعد الآن أن نحارب بهذه الأساطيل في سبيل نهضتنا ، فإن فينيسيا سيدة البحار ولا بد لهـا أن تغدو سيدة إيطاليا وتنتزع من روما تلك السلطة . وما هي روما ؟ إنهـا ليست عظيمـة إلا بماضيها ، فهي تشبه ذلك الشفق الذي يظهر قبل ظهور الشمس . وما هي فينيسيا ؟ إنهـا المستقبل ، نور الشمس الذي يتلو ذلك الشفق ! إنها هي التي تستطيع أن توقف رحى الحروب فتستولي على إيطاليا العليا ثم على إيطاليا بجملتها ثم تقف في وجه أوروبا فتقول :

– لقد كان لي من قبل الشعر وسائر الفنون ! وأما الآن فلي القوة أيضاً . فلتبحث فرنسا وألمانيا عن فريسة في غير بلادنا . أما إيطاليا فإنها تستطيع الدفاع عن نفسها .

هذا هو الخاطر الذي خطر لي فما تقول فيه ؟

– أقول إنه أشرف خـاطر وأعظم فكر سيقيم إيطاليا ويقعدها .

– هو ذاك . غـير أن الأمراء سيكونون من أخصامنا ، ولذلك يجب أن يدير هذا المشروع رجلٌ مثلي وأن يتولى تنفيذه رجل حربي مثل مدسيس .

– بماذا يجب أن أعده ؟

– بالقسمة بعـد الفوز . فهو يكون سيد روما وأنا أكون سيد فينيسيا فيكون له الجنوب ولي الشمال ويكون البابا بيننا .

هذا هو مجمل خطتي . وأما تفصيلها فسنبحث فيه فيما بعد . إنما يجب أن أعلم قبل كل شيء إذا كان الشيطان الأكبر يوافق على هذه المحالفة التي أقترحها عليه . وهنا دقة مهمتك ، إذ يجب أن تسبر غوره في البدء وتخبره عن هـذه الخطة بطريقة الألغاز بحيث لا تكون قد كشفت له كل الحقيقة إذا لم تجد منه رغبة في قبول المشروع .

– إني أضمن لك يا سيدي فوز المشروع ، فقد عرفت جان مدسيس حق العرفان فنمت وإياه في خيمـة واحدة وأكلت وإياه على مائدة واحدة وكان يكاشفني بكل ما يجول بأفكاره ، وفوق ذلك فإن هذا الرجل سليم النية بسيط القلب ليس له غير لذة واحدة وهي لذة الحروب . وما زلت سائراً اليه بمشروع حربي كبير فهو يقبله دون شك .

– إذن سافر بأقرب حين واعلم أن سعادة إيطاليا قـد أصبحت بين يديك . فقال آريتان : بل في يدي ويدك . ثم انحنى وخرج مع بمبو !

فلما برحا القصر قال له بمبو : ماذا تقول في هذه الحادثة ؟

قال : أقول إن السر يساوي أكثر من خمسة آلاف ريال .

– صبراً أيها الصديق ، فإنك لا تزال في البدء .

– ليكن ما تريد فإني معتمد عليك .

المغارة السوداء

*

عندما عاد بمبو إلى قصره لم ينتبه لرجلين كانا قد تبعاه إلى سراي الدوج ثم اقتفيا أثره إلى باب منزله وهناك لقيهما رجل كان لابساً ملابس البحارة فاستوقفهما وسأل أحدهما قائلاً: ماذا حدث ؟ قال : إنه ذهب إلى قصر الدوج !

— وحده ؟

— كلا، بل كان يصحبه الشاعر ولكنه حين عاد عاد وحده.

— يجب أن تبالغا في مراقبته ولا تنسيا الساعة الحادية عشرة والعلامة المتفق عليها . والآن أين السفينة ؟

— إنها راسية أمام قصر أمباريا .

فأظهر البحّار إشارة رضى وانصرف عنهما .

وقد مرّ ذلك النهار على بمبو دون حادث ، ولكن ساعاته لديه كانت تشبه الأيام بطولها ، إذ لم يكن يجول في خاطره غير فكر واحد وهو بيانكا .

وفي الساعة الثامنة من المساء لبس بمبو ملابسه وتدجّج بالسلاح ثم اتشح بوشاح وخرج من القصر فسار تواً إلى قصر

أمباريا ولكنه وجد أن الوقت المعيّن لم يأزف بعد فركب قارباً وأمر النوتي قائلاً : سرْ بي إلى حيث تريد وعُدْ بي إلى هنا في الساعة التاسعة تماماً . قال النوتي : حسناً يا سيدي .

فارتعش بمبو لصوت ذلك البحّار وجعل يتمعّن فرآه يجذف دون اكتراث فاطمأنّ دون شك إذ جعل ينظر إلى المياه وإنما ينظر في الحقيقة إلى بيانكا بعين الخيال .

وفي الساعة التاسعة عاد به النوتي فصعد بمبو من القارب وذهب فوقف تحت نوافذ أمباريا وهو يقول في نفسه : ترى لماذا أراد هذا الرجل أن أكون هنا في الساعة التاسعة ؟

*

في الساعة التاسعة والنصف كان سكرتير الشاعر آريتان ، أي رولاند ، يتحدث مع أمباريا . وقد سار بها إلى النافذة المشرفة على المكان الذي كان الكردينال واقفاً فيه فدلّها على بمبو وهو يسير ذهاباً وإياباً على الرصيف . فارتعشت أمباريا وقالت : أهذا هو ؟ قال : نعم فهو يرود في كل ليلة تحت نوافذ بيتك ويترقب الفرصة المناسبة . قالت : أواه ، إنك وعدتني أن تنقذ ابنتي منه .

— سأنقذها إذا لم يكن قد فات الأوان .

فجمد الدم في عروق المحظية وقالت : ماذا تعني بذلك ؟

قال : أتحسبين أنه يرود حول المنزل ليناجي بغرامه النجوم ...

كلا، بل إنه يعدّ خطة أخاف أن يتمكن من إنقاذها بعد يومين

أو ثلاثة أيام . ولكن سأبدأ منذ الغد . فضمّت يديها وقالت له بلهجة المتوسل : أنقذ ابنتي .

قال : لقد قلت لك يا سيدتي إن ابنتك ستنجو غداً فرجائي أن لا يكون قد فات الأوان ، فإن مثل الكردينال قد يأتي بما لا يكون في الحسبان .

وعند ذلك دقت الساعة العاشرة فاستأذن رولاند من أمباريا وذهب إلى القارب فارتدى ثوب النوتي الذي كان يلبسه حين سار بالكردينال منذ ساعة . وعند ذلك طاف حوالى القصر فوجد أن جميع نوافذه مقفلة ورأى بمبو واقفاً تحت إحداها وهو جامد جمود الأصنام .

أما أمباريا فإنها بعد أن ذهب رولاند عادت إلى تلك النافذة ورأت بمبو لا يزال متربصاً في مكانه وقد وقف وقفة الوحش الضاري يترقب الفريسة ، فهلع قلبها من الخوف وقالت في نفسها: لمن عساي أشكو ؟ ألفوسكاري والتياري وقد طالما أخافاني كما أخافني هذا الكردينال ؟ وعند ذلك أخذت مصباحاً وذهبت إلى حيث تقيم بنتها .

ولم تكن بيانكا نامت بعد فلما رأت أمها داخلة أسرعت إليها فعانقتها أمها وهي تقول لها : ألا تخافين يا ابنتي أن يتعبك السهر ؟ قالت : إني كنت أنتظر أن تأتي إليّ كما كنت تأتين في كل مساء .

– إذن أنت غير حاقدة عليّ ؟

– كيف أحقد عليك يا أماه ؟ ولكنك لو أصغيت إليّ لسافرنا في الحال .

فقطبت أمباريا حاجبيها ثم قالت : نعم يا ابنتي سنسافر في أقرب حين .

وعند ذلك كسر زجاج النافذة فجأة ودخل منها رجلان فوثبا إلى الغرفة ثم وثب إليها إثنان آخران فصاحت أمباريا صيحة رعب وهرولت إلى الباب لمناداة الخدم ولكن الباب كان مقفلاً من الخارج . فهمّت أن تصيح ولكن قبل أن يخرج الكلام من فمها انقضّ عليها رجلان فوضعا كمامة في فمها وأحكما وثاقها.

أما بيانكا فإنها صاحت صيحة رعب هائلة ، ولما رأت ما حلّ بأمها جعلت تصيح مستغيثة فحملها الرجال الأربعة وخرجوا بها من النافذة فأنّت أمباريا أنين الموجع إذ لم تكن تستطيع أن تستغيث وأغمي عليها . ولما عادت إلى رشدها بعد هنيهة ورأت خادمات بنتها قد فككن قيودها ، لم تجد بنتها ، فنادتها نداء يفتت الأكباد وأسرعت إلى تلك النافذة فرأت سلماً معلقاً وهو السلم الذي علّقه أولئك الذين اختطفوا ابنتها فصاحت صيحة منكرة خرج بها اسم بمبو وحده من فمها .

*

كان رولاند عند أسفل ذلك السلم حاملاً بيانكا وهي تكاد تجنّ من رعبها وهو يقول لها :

– لا تخشي يا ابنتي فقد وعدتك أن أنقذك وقد أنقذتك .

فعرفت بيانكا صوت ذلك الرجل الحنون واطمأنت إليه وقالت : وأمي ؟ فارتعش رولاند وقال لها : ثقي يا ابنتي فلا خوف عليك ولا على أمك .

وعند ذلك سار بها إلى قارب فوضعها تحت خيمة وقال لها : سأعود إليك قريباً فلا تجزعي. فضمت يديها وقالت له : أواه ! لا تتركني . قال : ذلك لا بدّ منه يا ابنتي ، وسنجتمع قريباً . أما الآن فإني أعهد بك إلى هذا الرجل الذي ترينه فثقي به كما تثقين بأبيك . قالت: بأبي؟ ثم نظرت إلى ذلك الرجل فوجدت رجلاً هائل الخلقة كان ينظر إليها نظرات ملؤها الحنوّ .

وعند ذلك سار القارب مسرعاً وكان رولاند قد وثب إلى قارب مجاور وأمر النوتيّة أن يقفوا به إثر قارب بيانكا فسار به ذلك القارب ، ولمّا مرّ بقصر أمباريا سمع في ذلك الليل الساكن صوت أمباريا تقول بلهجة اليأس «بمبو» فابتسم ابتسامة هائلة ونظر إلى قعر السفينة فقال لرجل كان مقيداً فيها :

— أسمعت يا بمبو ؟ إن هذا صوت أمباريا تلعنك وتنقم عليك .. إنه صوت أم تبحث عن بنتها التي اختطفتها ، والويل لك إذا اجتمعتْ بك بعد الآن .

وكان هذا الرجل المقيد الكردينال بمبو نفسه ، فأجابه بصوت لم يعلم إذا كان أنيناً أو إنذاراً ، فان الكمامة كانت في فمه . ولكن رولاند لم يجبه . واستمر القارب مسرعاً في سيره إلى أن وصل إلى ميناء ليدو والتصق بسفينة كبرى كانت تنتظر فيها .

وبعد هنيهة كان رولاند والكردينال وبيانكا وسكالا برينو على ظهر تلك السفينة . فقال رولاند لسكالا برينو : يجب الآن أن تعود إلى فينيسيا فتذهب إلى بيار آريتان وتقول له إنه يجب أن ينتظرني مهما حدث . فنظر سكالا برينو نظرة وداع إلى بيانكا وعاد إلى القارب .

أما بمبو فإنهم ألقوه وهو مقيّد في عنبر السفينة فأطبق عينيه ولم يعد يتحرك حتى خيّل للناظر إليه أنه مغميّ عليه . ولكن الحقيقة أنه كان يفتكر بمصيره .

وأما رولاند فانه أدخل بيانكا إلى غرفة الربان وأخذ يديها بين يديه وقال لها بلهجة الأب الحنون : لقد اضطررت يا ابنتي إلى استعمال هذه الوسيلة العنيفة لإنقاذك من الخطر الذي كان يتهددك أما الآن فقد زال الخطر بإذن الله. قالت: وهذا الرجل الذي لقيته ؟ قال : اطمئني فقد نجوت منه. فإن هذا الرجل ذو سلطة عظيمة فلم أجد بداً من إخراجك من فينيسيا لحمايتك منه دون أن يعلم أحد ما جرى لك .

— حتى أمي ؟

— حتى أمك !

فسالت الدموع من عينيّ الفتاة لأنها لم تكن تفهم شيئاً مما كان يقال لها ولكنها كانت واثقة بأن أمها لا تستطيع إنقاذها من الخطر الذي كان يتهددها كما أنقذها هذا الرجل الذي كانت كل كلمة منه تزيدها به وثوقاً .

أما رولاند فإنه خرج من عندها إلى ظهر السفينة التي كانت

قد خرجت من الميناء وسارت إلى جهة الشمال فجعل يسير ذهاباً وإياباً وعلائم الاضطراب بادية عليه فيقول : إذن ، هذه الفتاة بل هذه الملاك تحب أمها حباً عظيماً ، فهل يحق لي أن أقلق راحتها للانتقام من أمها ؟ وهل يحق لي أن أفرق بين الأم وبنتها لأن الأم أثيمة ؟ وهل يحق لي أن أبكي البنت لأني أريد أن تبكي الأم ؟

ثم جعل ينظر إلى أمواج الأدرياتيك التي كانت تتكسر على السفينة وهي تشق عباب البحر فقال : ولكن ألعلّهم أشفقوا عليّ عندما انتزعوني ليلة خطبتي من نعيمي وألقوني في سجن تفصله جهنم . وعندما أرادت أمباريا أن تبكيني ، ألعلّها أشفقت وخطر لها أنه يوجد أيضاً من يبكي لبكائي ؟ وهل خطر لهؤلاء حين انتقموا مني أنهم ينتقمون أيضاً من أبي وأمي ؟

وهنا أنّ أنين الموجع وقال : ولا أقول شيئاً عن تلك .. فإنها تعزت بالسلوان وبزواجها سواي ...

وقد تنهّد عند ذلك تنهداً تمزق له صدره والتفت إلى جهة فينيسيا فرأى أنها قد توارت عن الأنظار فعاد إلى السير فوق ظهر تلك السفينة وقد خفق قلبه فوق خفوقها واضطرب عقله أكثر من اضطراب الأمواج المزبدة حولها .

وما زال على ذلك حتى انبثق الفجر فجاء ربان السفينة وقال له : أيجب أن تظهر تلك العلامة أيها الرئيس ؟ قال : نعم .

فأسرع الربان فرضع نوراً في أعلى الصاري ثم أطلق من بندقيته ثلاث طلقات في الهواء فلم تكن غير لحظة حتى أجيب

بمثلها من البرّ فقال : إذن تستطيع أن ننزل إلى البر .

وعند ذلك أمر بإلقاء المراسي وحلّ القلوع وعاد إلى رولاند فقال له : أيجب أن أنتظر هنا يا سيدي الرئيس ؟ قال : كلا ، بل تعود إلى فينيسيا .

وبعد هنيهة أنزلوا قارباً إلى البحر فأنزلوا إليه بيبو وهو مكموم الفم مكتوف اليدين والرجلين وذهبوا به إلى البر . وكان هناك مركبة بجوادين تنتظر فحملوه إلى المركبة وانطلقت به تسابق الرياح .

وعند ذلك عاد القارب إلى السفينة فأنزلوا بيانكا ونزل رولاند فجلس بجانبها فسار بها إلى البر ، وهناك كانت مركبة أيضاً تنتظر فسارت المركبة بها وعند الساعة التاسعة من الصباح دخلت بها إلى مدينة صغيرة ووقفت بأمر رولاند عند باب منزل صغير .

وكان هذا المنزل نفس المنزل الذي وضع فيه رولاند جوانا وأباه ، فأقام فيه ساعتين وغادره تاركاً فيه بيانكا وجوانا وأباه . وقد امتطى جواداً وسار في طريق تريفيز ثم في طريق تريفيزا حتى وصل إلى مغاور بيافا .

وكان يمر خلال مسيره تارة براعٍ يرعى خرافه وتارة بفلاح يظهر أنه يعالج زرعه فيشير لمن يراه منهما إشارة فيقف لها مسرعاً فيظهر أنه مدجج بالسلاح .

وما زال على ذلك إلى أن ترجّل عن جواده عند باب المغارة السوداء ودخل إليها فوجد فلاحاً مسلحاً يحرس بابها فقال له :

هل جاؤوا بالرجل ؟ قال : نعم أيها الرئيس !

– أوَضعوه في القاعة التي أرشدتهم إليها ؟

– نعم !

– ألم يحدث شيء جديد في الضواحي ؟

– كلا ، سوى أن ساندريجو عاد إلى الظهور فيها وقد أفلت أيضاً هذه المرة .

فتركه رولاند ودخل إلى المغارة فسار فيها بضع خطوات ثم نزل في سلم إلى باطن الأرض وهناك أسرع حارسٌ إلى إنارة مصابيح فقال له رولاند : هل أتى الزعماء ؟ قال : نعم أيها الرئيس ! قال : حسناً ، فقل لهم أن يحضروا .

فامتثل الحارس وأخذ رولاند المصباح بيده وتفقد في اليد الأخرى خنجره ثم فتح باباً ودخل منه إلى قاعة مظلمة تشبه السجون ففحصها وهو يبتسم وقال: لقد أتقنت صنع هذا السجن حتى بات يشبه سجني القديم أتم الشبه ، وهذا بابه فقد صفحته بالحديد كما كان ذلك الباب الذي طالما أدميتُ يدي في محاولة فتحه . وهذا الخبز الأسود .. وهذا إبريق الماء .. وهذا السرير الحجري الذي كنت أنام عليه.. وهذه الجدران المظلمة الرهيبة.. إن كل ذلك يشبه السجن الذي كنت فيه !

وعند ذلك دخل ستة رجال إلى السجن فعلق رولاند المصباح في جداره وقال : هاتوا الأسير !

وبعد هنيهة أقبل اثنان يحملان ذلك الأسير وألقياه فوق السرير الحجري وهو ينظر إلى ما حواليه نظرات ذعر لا توصف

وقد كاد يجنُّ من الرعب . ولكنه ما لبث أن استأنس بالظلام فقال لأولئك المحيطين به : ماذا تريدون مني ؟ فأجابه رولاند قائلاً : سوف تعلم يا بمبو !

فتلعثم لسان بمبو من الخوف وقال : سكرتير آريتان ... أواه ! لقد حدثني قلبي بأن هذا الرجل شؤم عليّ .

وقد رفع عينيه إلى السماء كأنه يلتمس عون الله ثم نظر إلى سكرتير آريتان وهو واقف قرب المصباح فلم يكد يراه هذه المرة حتى وقف شعر رأسه وجمد الدم في عروقه وصاح صيحة تمثل بها الرعب فقال : ويلاه إنه هو !

فقال رولاند لرفاقه : فكوا الآن قيوده .

فامتثلوا . وتراجع بمبو إلى زاوية السجن كأنه يريد الفرار من نظرات رولاند، ولكن رولاند سار إليه وقال بلهجة كئيبة:

– أتعرفني يا بمبو ؟

فأجابه بصوت أجش :

– رولاند كانديالو !

وعند ذلك سقط جاثياً على ركبتيه وبسط يديه أمامه وهو يقول : رحماك أعف عني ! قال رولاند : أرى أنك عرفتني الآن ؟

– رحماك .. رحماك .. نعم نعم لقد ارتكبت جناية عظيمة ولكنك كنت تحبني و كنت مثال المروءة فاعف عني !

قال رولاند : سوف نرى . ثم التفت إلى الزعماء وقال لهم :

– أيها الرفاق ، إني دعوتكم لتكونوا قضاة هذا الرجل

ولتكونوا شهوداً على ما سأصنعه به .

إنكم أيها الرفاق تعيشون غير مقيّدين بشريعة، وهذا الرجل يمثلها ، وإنكم تقاتلون الأغنياء دون أن تكونوا حاقدين عليهم لأنكم تحبون استقلالكم فوق ما تحبون حياتكم .

على أن هذا الرجل قد حارب في معترك الحياة يدفعه قلب ملؤه الحقد ، وإنما بسطت هذه المقدمة لتعلموا أنكم أشرف قلوباً وأطهر نفوساً من هذا الغني وأمثاله .

وعند ذلك أخذ رولاند يحدثهم بسلطان ، فكان الجميع يصغون إليه أتم الإصغاء ويعجبون لأقواله التي لم يسمعوا مثلها قبل الآن ويرتاحون إليها كل الارتياح ، ولا سيما حين يذكر لهم كلمة الاستقلال فإنهم كانوا يتكهربون بها وهم كانوا زعماء عصابات اللصوص الذين ألقوا الرعب في القلوب وتحدّث بنوادرهم الركبان .

إن هذه العصابات كانت سائدة في الجبال والسهول يسلبون وينهبون ويهجمون غير هيّابين ويجهلون كل ما يوجد في المدن من الدين والشرائع والنظام والبوليس والضرائب . ولكنهم كانوا عادلين بالطبع طيبين بالفطرة لا ينهبون مال الغني إلا لحاجتهم إلى ذلك المال ، ولا يسيئون إليه بغير ماله إذ لا حاجة لهم بغير هذا المال ، ولا يحقدون على الجنود فإذا قاتلوهم فإنما يقاتلونهم مدافعين وإذا تمكنوا منهم لا ينكلون بهم بل يطلقون سراحهم مكتفين بما أدركوه من الفوز .

ولذلك فهموا لأول وهلة كل ما كان يقوله لهم رولاند ووافقوا

عليه بملء الرضى لأنه كان يخاطبهم على قدر عقولهم ويحدثهم بما يوافق أهواء نفوسهم .

حتى إذا آنس منهم ذاك الرضى سكت قليلاً ثم استأنف الحديث فقال :

— إن رجلاً منكم طاهر القلب شجاع النفس شديد الوطأة على أعدائكم كثير الرفق بالفقير عظيم الجور على الظالم جاء يوماً إلى فينيسيا ووثق بكلام هذا الأسير الواقف بينكم فكان جزاء هذه الثقة أنه عذّبه ستة أعوام عذاب الشهداء !

أما هذا الرجل فهو سكالا برينو !

وكنت في ذلك العهد أعرف بمبو ، وكنت غنياً قادراً ، فكنت أرى بمبو فقيراً معدماً لا نصير له فأشفقت عليه وجعلته في عداد أصدقائي وأحييت الرجاء في قلبه بعد اليأس فكان سميري في مجالسي وشريكي في أفراحي، وإنما اخترته دون سواه لتخلّي جميع الناس عنه ونفورهم منه ، فعاش بفضلي أفضل عيش وصار له بين الناس مقام . أتعلمون كيف كافأني هذا الرجل عن إحساني إليه ؟

إنه فقأ عينيّ أبي وصيّره مجنوناً وقتل أمي يأساً وحبسني ستة أعوام في قبر ، وأبعدني عن خطيبتي وحمّلها على هجراني بحيث أصبحتُ أشقى عباد الله بعد أن كنت أسعدهم .

فلما أتيح لي الخروج من سجني قبضت على هذا الرجل وهو يتأهب لجريمة جديدة أشد فظاعة من جرائمه السابقة، فماذا يجب أن أعاقبه ؟

فصاح بمبو قائلاً : العفو العفو !

وقال أحد الزعماء : ليمت ! فوافقه آخرون .

فقال رولاند : ليمت كما تقولون ، ولكن يجب أن يلقى من العذاب ما لقيته بسببه ، وأن يموت قانطاً في شبه ذلك السجن الذي أنزلني إليه ، وأن يموت وهو يعلم أن تلك الفتاة الطاهرة النقية التي تجاسر على أن يحبّها لن تكون له أبداً .

ثم مشى إلى بمبو وقال له : بمبو ، إني أعفو عن قتلك كما عفوت عن قتلي من قبل ... بمبو ، إني حكمت عليك أن تعيش في هذا السجن كما حكمت عليّ أن أعيش في تلك الآبار .

فقال بمبو : ولكنك تظلمني ، فإني لم أرتكب الجريمة وحدي . فاصفرّ وجه رولاند من الغضب وقال : صبراً يا بمبو ، فإن شركاءك فوسكاري وألتياري ودندولو سيجيء دورهم !

قال : رحماك دعني ، أرجوك !

فأشار رولاند إلى الزعماء فخرجوا ، ثم نظر النظرة الأخيرة إلى بمبو وخرج في أثرهم ثم أقفل ذلك الباب الضخم المصفح بالحديد ، فلبث بمبو وحده في ذلك السجن الرهيب المظلم وذكر لفوره ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى سجن رولاند متنكراً بزيّ كاهن وما شعر به من الفرح حين علم عذابه ، فتنهد تنهداً خرج من صدره كالزئير ووثب إلى الباب يخمشه بأظافره ثم انقلب على قفاه مغمياً عليه .

ساندريجو

*

بعد أن أقفل رولاند ذلك الباب سار مسرعاً إلى غرفة مقابلة لباب السجن ، وهي غرفة صغيرة كان قد دخل إليها الزعماء الستة ، وقد فُتح في أحد جدرانها خرق شبه خزينة وضع فيه عدة صناديق . فقال لهم رولاند : يجب أن أعود مسرعاً إلى فيليسيا فتوافونني إليها فنتحدث هناك . والآن أخبروني كم غنمنا من الحملة الأخيرة ؟

قال أحد الزعماء : ثلاثة آلاف ريال . وقال آخر : عشرة . وقال سواه : سبعة . وقد حسبوا كل ما غنموه فبلغ أربعين ألف ريال . قال : حسناً، أحضروا لي عشرين ألف ريال ويكفي أن تضعوها في سفينتنا الكبرى .

وقد خلا بهم ربع ساعة كانوا يعجبون في خلالها برئيسهم الأكبر أعظم إعجاب . وبعد ذلك امتطى جواده وسار في طريق مستتر فوصل إليها عند هبوط الظلام .

وكان رجل يتبعه على قيد مئتي خطوة دون أن يراه رولاند، فلما ترجّل رولاند عن جواده ترجّل الرجل أيضاً فربط جواده

إلى شجرة وتبع رولاند حتى رآه قد دخل إلى منزل فلبث كل تلك الليلة يراقب ذلك المنزل .

وعند الفجر رأى رولاند قد خرج من المنزل تصحبه امرأة كان يكلمها بصوت منخفض ثم امتطى جواده وسار في طريق البحيرات . وكان هذا الرجل ساندريجو ، فقال في نفسه : إن هذه جوانا ، فماذا تصنع هنا ؟

وعند ذلك أسرع إلى جواده وسار في أثر رولاند ، ولكنه لم يستطع إدراكه هذه المرة . فرجع عنه وهو يقول في نفسه : إنه ذاهب إلى فينيسيا دون شك ، فلأعُدْ الآن إلى جوانا كي أعلم ماذا تصنع في مستتر وفي هذا المكان المعتزل ؟

وقد أقام كل ذلك اليوم يرود حول المنزل دون أن يراه أحد وفي المساء سار هو أيضاً في طريق فينيسيا .

*

ننتقل الآن بأذهان القرّاء إلى قصر دندولو ، رئيس مجلس التفتيش ، وذلك في الساعة العاشرة من المساء . فبينما كان دندولو يحاول أن ينام في تلك الساعة دخل إليه خادم غرفته وقال له : إن على الباب يا سيدي رجلاً يريد أن يكلمك في شأن خطير .

فأمر دندولو بإدخاله وبادره بسؤاله : مَن أنت ؟ فانتزع الرجل خنجره وغدّارته فألقاهما على مقعد وقال : إني يا مولاي أدعى ساندريجو ، وأنا اللص الشهير الذي كان رفيق سكالا برينو . وقد أتيت أسلم نفسي إليك ، ولكن لي بعض شروط أقترحها .

فنظر دندولو إليه نظرة المنذهل وقال : أتكون هذه منزلتك وتخبرني بشرط ؟

— وما يدعوك إلى العجب يا مولاي ؟ فإني لست أسيراً بل أنا أسير بمحض إرادتي . أنت لا تقبض عليّ إلا إذا كنت أريد ، فإذا كنت أتيت وسلمت نفسي فما ذلك إلا لأني أردت أن أعتزل الجبال وأعيش عيش أشراف الناس .

فقال دندولو في نفسه : إني أعجب كيف يستطيع اللصوص أن يكونوا من الأشراف .

وأتمّ ساندريجو حديثه فقال : وفوق ذلك ، فإنك إن قبضت عليّ لا تعلم شيئاً مما أتيت لأقوله لك .

فتاق دندولو إلى معرفة ما يريد أن يخبره به فقال له : حسناً ، فإني أوافقك على المخابرة ما زلت رغبت عن سيرتك السابقة ، فقل إذن ما تريد قوله وأوجز في القول . قال : أول ما أسأله ضمانة حياتي وحريتي بيمين تقسمها لي . قال : أقسم لك بأن أبقي على حريتك وحياتك ، وبعد ذلك ؟

قال ساندريجو : إنك يا سيدي رئيس ديوان التفتيش في فينيسيا ، أي أنك أعظم عظيم فيها ، فإنك بكلمة تخرج من فمك ترسل أشد الناس نفوذاً إلى آبار السجون . أما أنا يا سيدي فلست من العظماء القادرين وما أنا غير لص بل إن رجالي قد ثاروا عليّ فأصبحت ضعيفاً في الجبال كما أني ضعيف هنا .

— إذن لقد اتضح سرّ توبتك .

— إني غير نادم يا سيدي فلا يندم غير الجبناء ، ولكني أنا

ساندريجو الزعيم دون عصابة والملك دون جيش أستطيع أن أخدم الجمهورية خدمة جليلة لا يستطيع أن يخدمها بها سواي . وأنا أطلب مكافأة عن هذه الخدمة .

– قل ماذا تريد ... تريد مالاً ؟

فهزّ ساندريجو رأسه وقال: سأقول لك يا سيدي ما أريده. أما الآن فيجب أن تعرف مقدار هذه الخدمة الجليلة التي سأؤديها للجمهورية ولك وللدوج نفسه ...

وهنا توقف هذا اللص هنيهة كأنه خشي مغبة خيانته. ولكن ذلك لم يطل فعاد إلى حديثه فقال : لقد قلت لك يا مولاي إن رجالي ثاروا عليّ واختاروا زعيماً غيري . ولكن هذا الزعيم يخضع لرجل يخضع له جميع الزعماء إذ هو الرئيس الأكبر لعصابات الجبال والسهول . وقد امتدت سلطة هذا الرئيس في زمن وجيز من جبال الألب إلى أدج ومن تريستا إلى أوفيجر، أي أنه محيط بفينيسيا بشكل نصف دائرة متسعة. ولكن هذه الدائرة آخذة بالضيق كل يوم .

فذهل دندولو وقال : كيف عرفت ذلك ؟

– عرفته لحقدي على رفاقي القدماء، فما زلت أترقب وأسأل وأتجسس حتى وقفت على الحقيقة . فإن العصابات الخاضعة الآن لهذا الرجل يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف .

– إنها بمثابة جيش !

– لقد أصبت يا سيدي بهذا التشبيه ، فإن هذا الرجل الذي يلقبونه بالرئيس الأعظم يشبه أيضاً قائد الجيوش، فإنه قد درب

رجال عصاباته كما يدربون الجنود بحيث لم يعد واحد منهم يأتي بأمر من تلقاء نفسه . وقد تمكن من تدريبهم وتنظيم أمورهم في مدة ثلاثة أشهر فقط .

– ثلاثة أشهر فقط ؟ إذن إنه رجل شديد وله جيش هائل! ولكن بأية قوة نال هذه الزعامة الكبرى ؟

– بقوة الكلام يا سيدي . فإنه يُلقي عليهم الخطاب الوجيز بما ينطبق على أهواء نفوسهم فيثير كوامن أحقادهم على الحكومة ويجمع كلمتهم على طاعته لا سيما حين يكلمهم عن الاستقلال والحرية والفتوحات .

– ماذا يُدعى هذا الرجل يا ساندريجو؟ قل اسمه إذا أردت أن تستحق المكافأة .

– سأذكره لك يا مولاي بعد أن أبيّن لك مشروع هذا الرجل، فإن عصاباته لا تشبه الآن عصابات اللصوص الماضية ولا تقطع الطرق على الناس بل إن زعيمها يفرض الضرائب على من يختارهم من الأمراء والدوقات ويرسل شراذم رجاله يقبضون هذه الضرائب . ولهم الآن خزينة خاصة لم أكتشف مكانها لنكد الطالع . ولهم الآن عدة سفن كبرى تشبه بمجموعها الأسطول . أتعلم ماذا يريد أن يصنع بهذا المال وهذا الجيش وهذا الأسطول ؟

فارتعش دندولو وقال : ماذا يريد أن يصنع ؟

– إنه يريد أن يستولي على فينيسيا يا مولاي. فاحذر لنفسك وقد أتيت أنا اللص لأخبرك أن الجمهورية في أشدّ خطر من هذا

الرجل ، فإذا لم تقبض عليه قبض عليها .

– قل ما اسمه ... اسمه ؟

– صبراً يا مولاي ، فإني مخبرك في البدء باسم الرجل الذي سلبني زعامة عصابتي .

– من هو ؟

– إنه يدعى سكالا برينو يا مولاي .

فاصفرّ وجه دندولو ولم يعد يسأله عن اسم الزعيم الأكبر إذ كان يرن في أذنيه . ولكن ساندريجو لم يدعه يسأله فقال له : وأما الزعيم الأكبر يا مولاي فهو رولاند كانديانو .

فقال دندولو في نفسه : يا للهول ! فقد كنت أحسب أن رولاند قد برح فينيسيا إلى الأبد يوم قتلت ذلك الجاسوس الذي كان يعرف مكانه . إذن لقد ذهب هذا القتل سدىً ! فقد جاء رجل آخر يشي به ويرشد إلى مكانه .

وعند ذلك التفت إلى ساندريجو وقال له : إنك خدمت الجمهورية وخدمتني خدمة جليلة وقد بقي عليك أن تعيّن المكافأة التي تريدها ، فإنك لا تريد مالاً كما تقول !

– إنك يا سيدي سترسل دون شك بضع فرق تقبض على رولاند وسكالا برينو .

– ذلك لا ريب فيه !

– إذن فاعلم أنه لا حاجة إلى إرسال من يتعقب رولاند في الجبال !

– لماذا ؟

– لأنه في فينيسيا ، فما عليك إلا أن تقبض عليه !

فقال له دندولو بلهجة القانطين : أين هو ؟

– لا أعلم ، ولكني أعرف رجالاً لو علموا أنه هنا لمّا كانت تمضي ثلاثة أيام حتى يقبضوا عليه .

فتنفس دندولو الصعداء إذ بات يستطيع الآن أن يتمعن بضع ساعات قبل أن يعزم على أمر جازم فقال : ولكنك لم تذكر مكافأتك بعد ؟ قال : إن مكافأتي لا تتحملون بها خسارة كبرى . وكل ما أسأله هو أن تأذنوا لي ، حين تعرفون موضع رولاند ، أن أتولى قيادة الذين يقبضون عليه .

– أهذا كل ما تطلب ؟

– نعم يا سيدي هذا كل ما أطلبه عن رولاند ، ولكن بقي سكالا برينو ...

– ماذا تطلب عن هذا الرجل .

– أطلب أن أقف مع الجلاد وأعينه على إعدامه يوم تحكمون عليه بالإعدام فإني أحب أن أقول له كلمة لا قيمة لها إلا في ذلك الموقف .

– سنمنحك كل ما طلبت ، والآن قل لي أين أجدك حين أحتاج إليك .

– إنك حين تحتاج إليّ يا سيدي تقف في نافذة غرفتك المطلة على الترعة فتجد نوتياً جالساً في قارب تحتها وهو لا يفارق هذا المكان ، فتدعوه وتذكر له اسمي فلا يمضي ربع ساعة حتى أكون ماثلاً لديك .

— حسناً فاذهب الآن في شأنك وخذ غدّارتك وخنجرك .
فتقلّد اللص خنجره وغدارتـــه وانصرف دون أن يلتفت إلى ورائه . أما دندولو فقد بقي وحده .

إمرأتان

*

لقد كان ساندريجو صادقاً في ما رواه فإن رولاند عـاد إلى فينيسيا حيث كان سكالا برينو ينتظره بجزع لا يوصف .

وقد كان يحترمه احتراماً عظيماً حتى أنه حين لقيه لم يجسر على سؤاله فأصدر إليه رولاند بعض أوامر كي يبلّغها إلى رجال العصابات المقيمين في فينيسيا ثم وقف أمام المرآة فغيّر شكله إذ بات من البارعين بالتنكر حتى أنـــه حين يتنكر لا يعرفه من خلصائه أحد .

فلما تم تنكره نظر إلى سكالا برينو وقال له : مــا بالك لم تسألني عن نتائج رحلتي ؟ فارتعش سكالا برينو وقال : ماذا تعني بذلك يا مولاي ؟

قال : إني هنا منذ ساعة وأنت تكاد تذوب شوقاً إلى معرفة أنباء بيانكا .

— هذا أكيد يا مولاي .

— أتحب إذن بنتك مع أنك لم تكن تراها ؟ ولكن جمالها يدهش العقول بحيث أن من ينظر إليها نظرة واحـــدة لا يبرح خيالها ذهنه .

— أواه يا مولاي ! إني أوثر أن تكون قبيحة الوجه فإن جمالها يرعبني وأخاف أن يكون شؤماً عليها . أما إذا كانت غير حسناء فإنها تكون بجملتها لي . وما قولك في أني أحبها ؟ فإني لا أعلم حق العلم ما أشعر به ، فإن قلبي لم يلهج بمثل هذه العاطفة في حياتي ، وإني أشعر بأنه يخفق هذا الخفوق لأول مرة ، بل أشعر أني لم أعد وحدي في هـــذا الوجود وأني أصبحت معلقاً بهذه الفتاة التي هي بضعة من دمي .

وسكت هنيهة ثم قال :

— ألعلّها الآن في مأمن يا مولاي ؟

فنظر رولاند إليه محدقاً دون أن يجيبه على سؤاله وسأله قائلاً :

— وإذا قلت لك إنه لا يجب أن تراها بعد الآن ، وإنه يجب علينا أن نهجر هذه الأوطان ، بـل إذا قلت لك يا سكالا برينو إن حياتي باتت شقية في فينيسيا وإنه لا بـدّ لي من الذهاب إلى أقصى بلاد المعمور ، وإني في حاجة إلى صديق وفيّ مخلص مثلك يمنعني وفاؤه عن أن ألعن الإنسانية إلى أن تنقضي أحزاني بانقضاء حياتي . نعم إذا قلت لك إنه يوجد سفينة تنتظرنا هـــذه الليلة للسفر فماذا تقول ؟ أجب يا سكالا برينو بمـا يوحيه إليك قلبك

فقد تركت لك مطلق الخيار !

فاصفرّ وجه سكالا برينو ولكنه أجابه لفوره قائلاً : مولاي إنك أنشأتني وجعلتني رجلاً فوهبتك نفسي والمرء لا يهب ما يملكه مرتين . فمرْ يا مولاي أمتثل .

وكان الجهد الذي بذله كي يمتنع عن البكاء ظاهراً للعيان .

فأخذ رولاند بيده وقال له بلهجة حنوّ : إنك صديق مخلص ورفيق أمين لا تخدع ولا تخون . أحببْ ابنتك وهي ستحبك أيضاً ، فقد خبرت أخلاقها ورأيت من جمال نفسها ما يزيد على جمال وجهها . ولقد يندر أن تجمع امرأةٌ بين هذين الجمالين . ومثل هذه المرأة تكون أعظم من كنوز الأرض . أما أنا فلم أدخل أبواب هذا النعيم وهيهات أن يظفر الرجال بمثل هذه الأمنية فما ابنتك إلا من شواذّ النساء .

ثم هز رأسه كأنه يحاول نفي تلك الأفكار المحزنة التي تسلطت عليه ، وتابع يقول :

— إن ابنتك الآن مقيمة مع أبي وجوانا ، فكلما خطر لك أن تراها تذهب إليها إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي ينتهي فيه عملنا من فينيسيا فلا نعود نفترق عنها .

فصاح سكالا برينو صيحة فرح وتركه رولاند يبكي لسروره وانصرف . وبعد نصف ساعة بلغ جزيرة أوليفو وسار إلى منزل دندولو فكانت المرة الأولى التي رأى فيها هذا المنزل في النهار بعد خروجه من السجن .

فلما دخل إليه تمالك نفسه بحيث لم يظهر عليه شيء من علائم

الاضطراب . وهناك استقبله شيخ يدعى فيليب وهو خادم قديم وكان رولاند يعرفه حق العرفان ولكنه تجاهل معرفته وقال له: هل أنت صاحب هذا المنزل ؟ قال : كلا يا سيدي ، فما أنا إلا حارسه . ولكن إذا أحببت أن تستريح فيه فافعل فإن سيدي دندولو يحب ضيافة الغرباء .

فدخل رولاند إلى المنزل وجلس على مقعد فقال : إن المنزل جميل تحدق به حديقة غناء يندر وجود مثلها في فينيسيا . قال: هو ذاك يا سيدي ، إذ لا يوجد في هذا البلد غير حدائق قليلة ، وهذه الحديقة أجلها دون شك .

— ولكنكم لا تعتنون بها العناية الكافية كما يظهر .

— ذلك بأمر سيدي بل بأمر السنيورا ألتياري .

— ولكنه أمر غريب ، فإن للنساء شغفاً خاصاً بالأزهار .

— إن الآنسة ليونور ، عفواً يا سيدي بل السنيورا ألتياري أرادت أن يبقى كل شيء في هذا المنزل على مثل ما تركته يوم خروجها منه للإقامة في منزل زوجها ألتياري .

فنهض رولاند وفتح نافذة تشرف على الحديقة وأخذ يتمعّن فيها فقال فيليب: إن إهمال هذه الحديقة الفيحاء خسارة كبرى ، ولكن هي التي تريد أن تبقى على ما هي عليه ، حتى أنها تأتي أحياناً إلى هنا لتعلم إذا كنتُ قد غيرت شيئاً في المنزل أو في الحديقة .

فقال له رولاند وقد أخفى اضطرابه : عجباً كيف تأبى هذه السيدة أن ترتب المنزل ؟

– نعم يا سيدي ، فإنها تريد أن يبقى كل شيء في هذا المنزل كما كان من قبل حين كانت سعيدة فيه .

– ماذا تقول ؟

– لا شيء ، لا شيء ... فانها أمور عائلية قديمة لا دخل لي بها .

– ألم تقل إن سيدتك تأتي أحياناً إلى هنا ؟

– نعم يا سيدي إنها تأتي في الليل فتجلس هناك تحت هذه الأرزة الكبرى إلى أن ينتصف الليل فتذهب ... ولكن كل ذلك لا يفيدك دون شك .

فلم يجبه رولاند ولكنه أدار وجهه إلى جهة أخرى من الحديقة كي لا يظهر اضطرابه ثم ملك نفسه والتفت إلى الشيخ فقال : لقد ساءني ما سمعته منك ، فقد كان في نيتي أن أستأجر هذا المنزل .

– ولكن ذلك لا يمنعك يا سيدي عن استئجاره ، بل إنك تستطيع أن تشتريه .

– لا أدري كيف ينطبق قولك هذا على الأوامر التي تلقيتها.

– إن المنزل يا سيدي لصاحبه دندولو وأنا مضطر إلى تنفيذ أوامره ، فإنه يرغب في التخلص من هذا المنزل بقدر ما ترغب ابنته في استبقائه ، وقد أصدر إليّ أمره بأن أبحث عن مشترٍ للبيت فقال لي آخر مرة لقيته فيها إني إذا لم أجد من يشتريه أضطر إلى نقضه وتخريب حديقته .

– إذن لقد حدثت جريمة في هذا المنزل ؟

– كلا يا سيدي ، ولكن حدث بين الأب وبنته في هذا المنزل ما دعاهما إلى الاختلاف بشأنه .

– ماذا حدث ؟

فأطرق الخادم ولسان حاله يقول : إنه لا يستطيع الإباحة بهذه الأسرار العائلية . فقال له رولاند : لقد كنت في البدء أنظر إلى هذا المنزل بغير اكتراث ، أما الآن وقد سمعت منك هذه الأقوال فقد بتّ مهتماً كل الاهتمام وأصبحت بالرغم مني من حزب السيدة ... ما تُدعى ؟

– ليونور ألتياري .

– نعم ، ولقد يسوءني أن ينهدم هذا البيت دون رضاها ، فقل إذن لسيدك إنك وجدت من يشتري البيت والحديقة كما هما أي مع الأثاث ، وقل للسيدة إن كل ما في المنزل يبقى على حاله. ثم قل لها إني سأقيم في فينيسيا خمسة عشر يوماً ثم أذهب وربما لا أعود بحيث أنها تستطيع أن تزور هذا المنزل كلما خطر لها زيارته فتجده على حاله .

وأما أنت فإذا أحببت أن تبقى في المنزل فلك أن تبقى فيه بنفس شروطك القديمة مع سيدك ما خلا أني أضاعف راتبك مهما كان فهل يوافقك ذلك ؟

– أواه يا سيدي ، إني لو قضي عليّ أن أبرح هذا المنزل لمتّ أسفاً .

– إذن أنت راضٍ بما اقترحته عليك ؟

– أقبل به بملء الرضى . وأما الراتب فإن راتبي القديم كان

يكفيني .

– أنت رجل كريم القلب ، والآن أصغ إليّ فاني أشترط عليك شرطاً واحداً .

– ما هو ؟

– هو أن يتم هذا البيع في أقرب حين .

– إنه يتم منذاليوم إذا أردت فأسلمك المفاتيح في هذا المساء.

– إذن سأحضر هذه الليلة بالنقود ، فكم يبلغ الثمن ؟

– لقد أمرني سيدي دندولو أن أطلب عشرة آلاف ريال ولكن ...

فقاطعه رولاند قائلاً: سأحضر هذه الليلة بعشرة آلاف ريال فأعدّ العقد .

– إنه معدّ لا ينقصه غير أن نذكر فيه اسمك .

– نعم ، لقد فاتني أن أذكر لك اسمي .

ثم كتب له اسماً على ورقة وأعطاه إياها فلما ذهب رولاند قرأ فيليب اسم المشتري فإذا هو : جان دي لورنزو من مانتو .

وأما رولاند فإنه ذهب تواً إلى قصر أمباريا ودخل إليه وقال لأحد خدمه : قل لسيدتك إن رجلاً غريباً يلتمس مقابلتها .

فأجابه الخادم قائلاً : إن سيدتي مريضة لا تستطيع أن تقابل أحداً . قال : إذهب إليها وقل لها إني قادم إليها بأنباء خطيرة من شخص تحبه .

فامتثل الخادم وعاد بعد هنيهة فقال : إن سيدتي مستعدة لاستقبالك فتفضل واتبعني .

وقد استقبلته أمباريا وقالت له بعد أن نظرت إليه نظرة الفاحص : تفضل يا سيدي بالجلوس ، فقد قيل لي إنك قادم إليّ بأخبار من شخص أحبه ولا أحب في هذا الوجود غير شخص واحد . قال : إنك تعنين ابنتك ، أليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي ، فإذا كنت تعرف شيئاً عنها فأسرع بإخباري .

وهنا لا بد لنا أن نقول إن رولاند كان قد تنكّر فلم تعرف أمباريا وجهه ثم إنه غيّر لهجته أيضاً فإن اللغة الإيطالية كثيرة اللهجات ولكل بلد لهجة خاصة بحيث لم تشتبه بصوته أيضاً لشدة تباين لهجته هذه عن لهجته التي تعرفها ، فأجابها على سؤالها قائلاً :

– إن ما أعرفه يا سيدتي يكفي لتلطيف أحزانك فإني أطمئنك قبل كل شيء أن ابنتك سليمة نقية .

فاقتربت أمباريا إليه وأخذت بيده وقالت : أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ فإنك قد رددت إليّ روحي بهذا النبأ . ولكن كيف عرفته ومَن أنبأك به ومَن أنت فإني لم أرك في فينيسيا قبل الآن ورجائي أن تعذرني على هذه الأسئلة .

– إن عذرك واضح يا سيدتي ، وأنا أجيبك على أسئلتك فأقول إني أدعى جان دي لورنزو من مانتو وقد سافرت أخيراً إلى ألمانيا وعدت بطريق تريفيز فلقيت أمس في طريقي أحد أصدقائي . أما سمعت يا سيدتي باسم آرتيان الشاعر ؟

– نعم ، وقد عرفته .

– ولهذا الشاعر سكرتير غريب الأطوار يُدعى باولو .
– باولو ؟
– نعم ، وهذا هو الصديق الذي لقيته . فإن هـذا الرجل يستطيع أن يعيش بملء الرفاه والسكينة ولكنه عاهد نفسه على أن يقوم بمهمة صعبة وذلك لشدة ذكاء فؤاده وعلى غرابة أطواره.
– لقد عرفت هذا الرجل أيضاً فما هي المهمة التي عاهد نفسه عليها ؟
– هي أن يبحث عن التعساء فيعمل على إزالة شقائهم !
– إنهـا مهمة سامية فقد لقيت باولو كما قلت لك وحادثته فعلمت أنه من نبلاء الأخلاق .
– ولكن أخلاقه غريبة نادرة .
– ماذا تعني بذلك يا سيدي؟ فإن لي بهذا الرجل ثقة لا حدّ لها . ألعلّي مخطئة بهذه الثقة ؟
– كلا يا سيدتي فإن صديقي باولو جدير بكل ثقة غير أنه ينظر إلى الأمور بغير ما ننظر إليها نحن ، وعلى الجملة فإني رأيته أمس في مركبته فأشار إلى صبية كانت معه لم أجد أجمل منها .
– بيانكا ؟
– نعم ، إن الصبية تُدعى بهذا الإسم فاسمعي يا سيدتي ما حدثني عنها فقد قال إنها كانت تقيم في فينيسيا مع أمها .
– معي أنا فأنا أمها ...
– إني أعيد يا سيدتي قوله بنصه : قال إن الأم قد أذهلتها عواطف الأمومة عن أن ترى ما يحدق ببنتها من الخطر بالإقامة

معها ، أفهمت يا سيدتي ؟
– نعم وا أسفاه !
قال : ومما قاله لي إن هذا الخطر المحدق ببيانكا قد تحقق ، فإن رجلاً بل وحشاً ضارياً رأى هـذه الفتاة الطاهرة فأحبها وهو لا يقف في جرائمه عند حد .
– بمبو ... إنه بمبو الهائل !
– هذا هو الاسم الذي ذكره لي صديقي باولو ، ويظهر أن هذا الرجل كردينال وأسقف فينيسيا .
– نعم .
– وقـد عزم بمبو أن يختطف بيانكا وعزم صديقي على إنقاذها ، ولكنه لنكد الطالع عزم هذا العزم بعد فوات الأوان أي بعد أن اختطفها بمبو .
– ولكن صديقك أنقذها أليس كذلك ؟
– هذا الذي قلته في البدء يا سيدتي وهو ما أردده الآن فلم يبقَ خطر على بيانكا فإن باولو اقتفى أثر بمبو حين اختطفها فأنقذها منه وقتله .
فارتعشت أمباريا سروراً وقالت : أمات بمبو ؟
– نعم فقد نجوت ونجت بنتك منه إلى الأبد .
فقالت له بصوت يضطرب : إذا كان صديقك أنقذ بنتي كما تقول فلماذا لم يردّها إليّ وماذا ينتظر ؟
فأطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال لها بصوت اضطرب له أعضاؤها: إن صديقي ارتأى أن ينقذ بنتك منك بعد أن أنقذها

من بمبو .
— مني ... أنا ؟ أنا أمها .
— لقد أخبرتك بغرابة أطوار صديقي ، فقد أكد لي أنه إذ انتزع بيانكا ...
— أينتزع ابنتي مني ... أيريد أن يحتفظ بها ؟
— نعم يا سيدتي .
— ولا أراها إلى الأبد ؟
— ربما !
فضحكت أمباريا ضحكاً هائلاً وقالت :
— إن صديقك مجنون وأنت مجنون أيضاً ما زلت جئت تخبر أماً بأنها لن ترى ابنتها... ومن أنباك يا سيدي أن ابنتي تكون في خطر عندي كما كانت قبل أن تنجو من الخطر الأخير وهو خطر تتعرّض له كل فتاة... ويحٌ لأولئك الأشقياء إنهم يريدون إنقاذ البنت وقتل الأمّ.. ومن يعلم فقد يقتلها الفراق.. ولكنك لا تعلم ماذا أستطيع أن أعمل ، فإني أطوف الأرض حتى أظفر بباولو والويل له حين ألقاه .
ثم جعلت عند ذلك تشهق بالبكاء فكان رولاند ينظر إليها نظرات تشفُّ عن السويداء إلى أن نظرت إليه وقالت : أسألك المعذرة يا سيدي فقد اتهمتك أيضاً. ولكن ما فعلوه هائل عظيم لا يحمله عقل بشر . قال : دعيني يا سيدتي أتمّم حديثي .
فخامر أمباريا شيء من الرجاء وقالت : تكلم . قال : إن صديقي يرتئي أنه لا يجب أن يقتصر فقط على إنقاذ البنت بل

يجب معاقبة الأم .
— يعاقبني أنا ؟
— نعم ، إذ يظهر أنك ارتكبت من قبل جريمة اعترفت له بها .
فوقفت أمباريا وقالت: بأيّ حق يريد أن يقف هذا الرجل موقف القضاة ؟ وبأي حق يختلس سرّي ثم يعاقبني به ؟
فوقف رولاند أيضاً وقد اتّقدت عيناه ببارق مخيف وقال: أأنت تتكلمين بالحقوق ؟ إذن لنبحث فيها ما زلت تعرفينها ، فاسمعي : إنه حين يخطفون رجلاً من عالم الأحياء ويسجنونه ستة أعوام في سجن لا فرق بينه وبين القبر ، وحين يجنُّ هذا الرجل يأساً ويموت كل يوم مراراً من البرد واليأس والجوع ، وحين يعلم أن عالم الأحياء قد تخلّوا عنه وألقوه في ظلمة الأبد... فمتى عاد هذا الرجل إلى عالم الأحياء الذي خرج منه ورأى أنه قد فقد الأب والأم والحبيبة والثروة والمقام، ألا يحق له أن يلقى أعداءه الذين نكلوا به هذا التنكيل ويقول لهم بعد أن ظفر بهم : لقد جاء دوركم الآن وعين بعين وسنّ بسنّ ؟ فذوقوا كما غرستم وتعذبوا كما تعذبت واشقوا كما شقيت ، وما زلتم لم يشفق أحد منكم عليّ أيحق أن تلتمسوا مني الرحمة والإشفاق ؟
كانت أمباريا تسمع كلامه وهي ترتعش لنبرات صوته ولاتّقاد عينيه حتى إذا أتمّ حديثه قالت له بلسان يتلعثم : مَن أنت ... قل مَن أنت ؟ فضبط رولاند نفسه وعاد إلى سكينته وقال :
— إن الأمر غير خاص بي يا سيدتي بل بصديقي باولو وأنا

شبه صدى أردد أقواله التي رواهـا لي ، فهل أنت من أولئك الأعداء الذين عذبوه ؟ ذلك ما أجهله ! وهل هو وحده الشهيد الذي تعذب ؟ ذلك مـا أجهله أيضاً ، ولكني سمعتك تذكرين كلمة الحقوق فأجبتك عنها بما سمعته منه وربما اتصل به أنك ارتكبت جريمة من قبل وأنت تعلمين أن الجريمة لا بد أن يعاقب مرتكبها ولو بعد حين .

قالت : نعم فإن عين الله ساهرة لا تنـام ولكن كل ذلك بقضاء الله . قال : ليس ذلك يا سيدتي ، فإن لصديقي مبـدأ خاصاً غريباً في بابه ولكنه قد يكون صحيحاً ، فإنه يعتقد أن كرم الأخلاق والمروءة ونقاء القلب ومـا ينتج عنها من الأعمال الطيبة إنما تكون خير دليل على الذكاء الإنساني ، أي كلما اشتد ذكاء المرء زادت حسناته . ولا ينكر أن بعض أهل الشر قـد يكونون من أهل الذكاء ، ولكن يكون لهم في عقولهم زوايا مظلمة تدفعهم إلى الشر . يريد بذلك أن يقول إن المجرم لا يكون له خالص الذكاء ، فلو خلص ذكاؤه لمـا ارتكب الجريمة . ومن هنا تأتي الذنوب ويدفع الشر وتتوالى السيئات ، أي من النقص في الذكاء والاضطراب في الأفكار لا من الأقدار .

كان رولاند يلقي هـذه القاعدة الفلسفية على أمباريا وهو يتكلم بملء السكينة خلافاً لأمباريا ، فقـد كانت تضطرب اضطراباً عظيماً حتى إذا أتمّ كلامه قالت له :

– وإذا اعترفت بجريمتي وسألت العفو ألا يرحمون قلب أم والهة ؟ وبعد ، فإنهم يريدون معاقبتي لذنب ارتكبته فيرتكبون

مثل ذنبي بالتفريق بيني وبين بنتي ، فكيف يكون صاحبك من أهل الذكاء ويأتي مثل هذا الشر ؟ وكيف يضع القواعد الفلسفية ولا يعمل بها ؟ لا ! قل له إن خير الحسنات الصفح عن الزلاّت .

فتمتم رولاند في نفسه قائلاً : الصفح ! لقد خطر لي أن أعفو .. ولكن عذابي كان شديداً ولا أزال أتعذب ! ثم قـال لأمباريا بصوت مرتفع :

– أعتبر الآن يا سيدتي أن مهمتي قـد تمّت ، وخلاصة ما أستنتجه من كلام صديقي أنه يعد نفسه بإنقاذ بيانكا من بمبو ، ولكنه يرى أنه لا يجب أن يردّها إليك .

– إنها سفالة لا تحتمل . وما أنت إلا من السافلين ما زلت قد رضيت قبول هذه المهمة .

فوقف رولاند عند ذلك وانحنى أمامها وقال :

– هذا كل ما عهد إليّ أن أقوله يا سيدتي ، وأظن أن من واجبات صديقي أن ينبئك بأخبـار بنتك من حين إلى حين ، ولكني لا إخاله يفعل .

– ألا أرى ابنتي ولا أسمع أخبارها ؟ لتلعنك السماء وتلعن صديقك وتلعن رولاند كانديانو فإنكما لا تعملان إلا للانتقـام له ، فهو الذي أرسلكـا وهو الذي اختطف بنتي وهو الذي انتزع قلبي .

فاضطرب رولاند ودنا من أمباريا وقبض على يدها وقال لها بصوت يتهدج من الغضب : أتلعنين رولاند كانديانو قبـل أن تذكري مـا فعلتِه وفعله شركاؤك بهذا الرجل ؟ ! إبكي إذن

واقنطي فإنك لن تري ابنتك إلى الأبد .

فسقطت أمباريا جاثية على ركبتيها وجعلت تنظر إلى رولاند نظرات ملؤها الرعب وتحاول أن تلتمس وتتوسل فــلا يخرج الكلام من فمها .

أما رولاند فإنه بعد أن قال لها هذا القول وقف ينظر إليها نظرات المنتقم الجبار وهي قـد تمكّن منها الرعب فباتت من نظراته كالحمامة أدركها الصياد ثم ابتعد عنها .

وعند ذلك حلت عقدة لسانها وزال رعبها فوقفت واندفعت في أثره وهي تقول : إقبضوا على هــذا الرجال فانه رولاند كانديانو .

أمـا رولاند فقد كان بلغ عند ذلك إلى آخر درجات السلم فسار سيراً بطيئاً إلى القارب فنزل إليه ولم تكن غير هنيهة حتى توارى به عن الأنظار . فعادت أمباريا إلى غرفتها واليأس ملء قلبها فأقامت نحو ساعة تناجي نفسها ثم لبست ثيابهـا وسارت إلى قصر دندولو رئيس مجلس التفتيش ، وهناك اجتمعت بـه فنزعت برقعها وقالت له :

ـ لا أعلم يا سيدي إذا كنت تعرفني ، فقد اجتمعنا مرة واحدة منذ سبعة أعوام في حادثة ... قال : نعم هي حادثة لا يمكن نسيانها وقد عرفتك يا سيدتي .

وقد جعل يتمعن بهـا وهي ساكنة مضطربة مرتعدة ثم قال لهـا : إن أول مرة رأيتك فيها كانت في قصركِ وقد سار بي ألتياري إليك ، وكان عندك أيضاً فوسكاري ، وهو اليوم دوج

فينيسيا ، وبمبو وهو اليوم كردينال . وكان ذلك عند انتصاف الليل أي بعد أن قُبض على رولاند ، فاجتمعنا لنتداول فيما نفعله برولاند وأمه وأبيه ، أليس كذلك يا سيدتي ؟ وقد عقدنا اتفاقاً عليه جميعاً. وما زلتِ قد أتيت فلا بدّ أنك آتية لمخابرتي بشأن هذا العقد .

ـ نعم يا سيدي فاسمع ما جئت أقوله لك ، فإن أحد الذين حضروا اجتماعنا بات مقتولاً .

فلم يظهر على دندولو شيء من علائم العجب فإنـه كان يتوقع كل أمر بعد ما عرفه من ساندريجو ولكنه سألها بصوت أجش قائلاً :

ـ من هو هذا الذي بدأ رولاند بالانتقام منه ؟

فارتعشت أمباريا إذ علمت أن دندولو عـالم بوجود رولاند في فينيسيا وأنه لم يقبض بعد على هـذا العدو الهائل الذي أقسم على أن ينتقم من الجميع ، فأجابته قائـلة : إن القتيل الأول كان الكردينال بمبو .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ من رولاند كانديانو .

فاصفرّ وجه دندولو بالرغم من توقعه مثل هـذه الحوادث لا سيما حين قالت له أمباريا إن رولاند كانديانو قد خرج من عندي الآن .

وقد أخبرته عند ذلك بما كان من غرام بمبو وأن سكرتير آريتان وجان دي لورتز ورولاند كانديانو هم واحد .

وهذا الذي بدأ به رولاند ، فإنه قتل ببو وأبعد عني بنتي
إلى الأبد وأعدّ لي الخنجر ، فيا ويح هذا الشقي لماذا لم يقتلني ؟

– تشجعي يا سيدتي .

– كيف تقول لي تشجعي يا سيدتي. ألا تعلم حنوّ الأمهات؟
لقد عشت من أجل ابنتي بالرجاء . أما وقد اختطفوها مني
وقضوا عليّ بأن لا أراها إلى الأبد فما بقي عليّ إلا أن أحبس
نفسي في زاوية وأعيش قانطة من الحياة إلى أن ينقذني الموت .
ولا شك يا سيدي أن هذا الرجل قوي قادر ، فإنه عرف كيف
ينتقم مني وضربني في قلبي ، فما أحلى الموت الآن بعد فراق
بنتي وهي عندي أعز من الروح .

فاضطرب دندولو لحزنها وقال : وأنا يا سيدتي لي بنت .

– نعم يا سيدي . ولأجل ذلك أتيت إليك لأخبرك بأن
رولاند كانديانو لم يمت كما كنا نظن وأنه يسعى للإنتقام منا .

– إني عارف بذلك .

كيف تكون عارفاً بوجود رولاند في فينيسيا ولا تنذرني ؟

– إني ما عرفت به إلا الليلة فقد أخبرني أحدهم بوجوده .

– وأنا أتيت إليك بهذا الخبر ، فقد دعا نفسه في البدء باولو
وهو الآن يدعى جان دي لورنزو فاحذر لنفسك يا سيدي واعلم
يقيناً أنك إذا لم تقبض على هذا الرجل أثرت عليك أهل فينيسيا
بجملتهم . فإني أريد ابنتي ، أسمعت ؟ وإذا كان قد انتبذ بها
مكاناً قصياً لم أستطع إدراكها فيه فاني أريد أن أنتقم وأريد
أن تقبضوا على رولاند وأن أحضر محاكمته وأن يعذبوه إلى أن

يعترف أين توجد ابنتي ... نعم إني أريد ذلك وإذا لم تفعل
فاحذر لنفسك !

قال : لا شك أن الحزن قد أضلّ رشدك فمن أنبأك أني لا
أريد القبض على رولاند كانديانو ؟

– نعم ... نعم . فاصفح عني فإني لا أعلم ما أقول وقد
خيل لي أنك متردد فما قرأت في عينيك العزيمة بل قرأت
الرعب ... ولكني مخطئة دون شك ، أليس كذلك ؟

– كوني مطمئنة يا سيدتي فان جميع بوليس فينيسيا يبحث
الآن عن رولاند ولا بدّ أن نقبض عليه قبل ثلاثة أيام .

– ثلاثة أيام ؟ إنه أمد طويل !

– إذن صفي لي تنكره ما زلتِ قد رأيته ، فقد قلت إنه
يدعى جان دي لورنزو ، أليس كذلك ؟

– نعم ، وهذا وصف تنكّره فاسمع .

وهنا وصفت ملابسه وجميع صفات تنكره بالتدقيق ثم
ودعته وانصرفت . فلما خرجت لقيت عند الباب رجلاً كهلاً
يقول لأحد الخدم بلهجة سرور: أبلغ سيدنا أني وجدت مشترياً
لمنزله وأنه لا بدّ من مقابلته الآن .

ركبت أمباريا قاربها وأمرت النوتي أن يسير بها إلى منزلها
حتى إذا ابتعدت قليلاً نظرت إلى منزل دندولو الذي فارقته ،
فخامر قلبها الشك وقالت للنوتي : لا تذهب بي إلى منزلي بل
إلى منزل ألتياري .

والآن قبل أن نتبع أمباريا إلى حيث ذهبت نعود إلى

دندولو فانه بعد أن ذهبت أمباريا جلس على كرسيه ووضع
رأسه بين يديه وجعل يناجي نفسه فيقول : إذن لم يبقَ بدٌّ من
القبض على رولاند بعد بضع ساعات ... وهذه المرأة التي أتت
تقول لي إنها تحب بنتها فما أقول أنا إذا وقفت أمامي ليونور
وناقشتني الحساب عن ذنوبي إليها ؟ رباه ، إن ذلك هائل مخيف
وما توقعت أن يبلغ إلى هذا الحد فقد قضي عليَّ القضاء المبرم !
ترى ألا يجدر بي الانتحار ؟

وعند ذلك دخل إليه خادم غرفته وأخبره بقدوم خادمه
فيليب حارس منزله في جزيرة أوليفو فأوعز إليه باشارة أن
يدعه ينتظر وعاد إلى مناجاة نفسه فقال : إن رولاند يستحيل
أن يدع الجند يأخذونه على غرة ... وأنا الذي يتولى أمر القبض
عليه ، فلماذا لا أضلل الجنود وأرسلهم إلى غير المكان الذي
يكون فيه بحيث أدع له سبيلاً للفرار ؟ بل لماذا لا أنذره بالخطر
المحدق به فيكتفي بقتل بيبو وباختطاف بنت أمباريا ويهجر
فينيسيا ما زلنا فيها ؟ فإذا تم ذلك وسافر رولاند، لبثت ليونور
جاهلة كل ما مضى وانتهى الأمر معها بالسلوان .

وقد سكن اضطرابه لهذا الخاطر فأمر بادخال الخادم الشيخ
إليه وقال له : هل وجدت من يشتري المنزل كما قيل لي ؟

— نعم يا مولاي !

— إذن يجب بيعه في الحال ، فمن هو المشتري ؟

— إنه رجل غريب وقد طلب إليَّ أن أبقى في هذا المنزل كما
كنت فيه إذا كنت تأذن لي بذلك .

— لا فرق عندي بشرط أن تكون راضياً .

— إن أعظم سعادة عندي أن أبقى في هذا المنزل القديم .

— حسناً فابق فيه ، فهل اتفقتما على الثمن ؟

— لقد رضي بالثمن الذي عيّنته دون مساومة .

— إذن لم يبقَ غير عقد البيع .

— وهو يريد عقده اليوم فانه سيحضر هذه الليلة بالنقود .

— إذن أبقِ لنفسك منها مائتي ريال .

— أشكرك يا مولاي لكرمك . وهذا هو العقد فلم يبقَ إلا
أن توقع عليه . فأخذ دندولو العقد من يد خادمه وقرأه فقال :
ولكني لا أجد اسم المشتري .

— هذا هو يا سيدي فانه كتب اسمه على ورقة وأعطاني
إياها .

فأخذ دندولو الورقة ولم يكد يقرأ فيها اسم جان دي لورنزو
حتى اصفرَّ وجهه وتمتم قائلاً : هو... أواه من الأقدار. ثم التفت
إلى خادمه وقال له : في أية ساعة يحضر ؟

— بين الساعة السابعة والثامنة من المساء .

— حسناً ، أبقِ هذا العقد عندي وعد إليَّ بعد ساعتين .

فانحنى الشيخ وانصرف .

والآن فلنعد إلى أمباريا فإنها ذهبت تواً إلى قصر ألتياري
واجتمعت به فدهش القائد لقدومها وقال لها : إنك لم تأتي إليَّ
في رابعة النهار إلا لحدوث حادث خطير دون شك . ألا تخافين
الأقاويل يا سيدتي بعد هذه الزيارة ؟ ألم تتفق بعد تلك الليلة

على أن لا نجتمع أبداً في مكان ؟ قالت : إنك تعني بها تلك الليلة التي ارتكبنا فيها الجريمة ووشينا الوشاية الكاذبة أليس كذلك ؟

فنظر ألتياري إلى ما حواليه نظرة الخائف وقال : اسكتي فقد يسمعوننا .

– من الذي يسمعنا ؟ أم الجنود ؟

– كلا ، بل إمرأة !

– من هي ؟ ليونور ؟

فظهرت على وجهه علائم الجزع وقال : بربك يا سيدتي أسرعي باخباري عن السبب الذي أتيت من أجله. فنظرت إليه محدقة وقالت له ببطء : إن رولاند كانديانو في فينيسيا .

فسمع عند ذلك من وراء الباب صوت يشبه الأنين غير أن أمباريا لم تسمع هذا الصوت لاشتغالها، وألتياري لم يسمعه أيضاً لاضطرابه فقد اصفرّ وجهه وظهر عليه الرعب ، فإنه كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن رولاند مات غريقاً في الترعة. ورأت أمباريا ما كان من اضطرابه فقالت له : كيف رأيت يا سيدي ؟ أتعتقد بعد الآن أني مخطئة بقدومي إليك ؟ قال : يجب الإسراع إلى رئيس ديوان التفتيش وإخباره بالأمر .

– لقد أخبرته .

– إذن فجميع البوليس يبحثون عنه .

– هو ذاك .

– يجب إخبار الدوج .

– ذلك من شأنك .

– والكردينال بمبو ؟

– إنه مات .

– مات ؟ بمبو مات ؟

– إنه مات قتيلاً بيد رولاند .

فوقف ألتياريْ وأخذ غدارتين من الجدار فوضعهما أمامه على المائدة ثم تفقّد الدرع التي يلبسها وفتح الباب فافتقد الجنود الذين يحرسونه . وعند ذلك اطمأن وعاد إلى مجلسه فقال لأمباريا : أخبريني بكل ما تعلمين ولا تكتمي عني حرفاً أو يقضى عليّ القضاء المبرم فاني أعرف رولاند حق العرفان ، فإذا لم نقتله انتقم منا أفظع انتقام .

– نعم إن انتقامه فظيع هائل وقد انتقم من بمبو ومني .

– أنت ؟ وكيف انتقم منك ؟

– لقد اختطف ابنتي ، أي أنه ضربني الضربة القاضية .

– يجب أن أقف على كل ما حدث فأخبريني بكل ما تعلمينه بالتدقيق .

فأخبرته عند ذلك تفصيلاً بجميع ما عرفه القراء من أمر رولاند حتى إذا أتمت حديثها أطرق ألتياريْ هنيهة مفكراً ثم قال : لماذا أتيتِ لإخباري بعد أن أخبرت رئيس ديوان التفتيش؟

– ذلك لأني غير واثقة من دندولو فإنه رجل ضعيف كثير التردد ، وقد أكون مخطئة في حكمي عليه . أما أنت فلا شك عندي بصدق عزيمتك .

فذكر ألتياري ما لاحظه من دندولو يوم أخبره بفرار رولاند من سجنه فقال في نفسه : لم يبقَ لديّ شك بإحجام دندولو ، ولكني سأكرهه على الإقدام . ثم أجاب أمباريا قائلاً : لقد أصبتِ ، فاني صادق العزيمة لا أتردد في أمري فاطمئني ، فان واحداً منا يجب أن يموت وهو الذي سيموت دون شك .

قالت : هو ذاك . ولكن قبل أن يموت رولاند كانديانو أحب أن أعلم أين ذهب بابنتي فاعلم أنه إذا لم تردّ ابنتي إليّ ألقيت التبعة عليك وعلى دندولو وعلى فوسكاري .

وقد قالت هذا القول بلهجة تبيّن فيها الوعيد وذعر لها ألتياري فطمأنها وأوصلها إلى باب خفي ففتحه وقال لها : اخرجي من هذا الباب كي لا يراك أحد واعتمدي عليّ في إنقاذ بنتك .

فأجابته بلهجة وعيد قائلة : حسناً ، فاني معتمدة عليك .

ثم انصرفت فأقفل ألتياري الباب ثم وضع يده على قبضة خنجره وهو يقول : سأقتله في البدء ثم أقتلها بعده .

وعند ذلك خرج من منزله وسار مسرعاً إلى دندولو يخفره ثانية من أبسل قواده .

أما دندولو فانه ، بعد خروج فيليب من عنده ، وضع عقد البيع أمامه وجعل يتمعّن فيه وهو في الحقيقة يناجي نفسه بما كان يشغله في تلك الساعة من الخوف المحدق برولاند ، إلى أن أخذ القلم فجأة وكتب اسم جان لورنزو فيه ، أي اسم رولاند كانديانو .

وعند ذلك دخل إليه ألتياري فأقفل الباب بعد دخوله ودنا منه وقال : لقد أتيت لأخبرك أن رولاند كانديانو في فينيسيا وأنه متنكر فيها باسم جان لورنزو ، فماذا عزمت أن تفعل هذه المرة ؟

فاضطرب دندولو وحاول إخفاء العقد الذي كان أمامه ، ولكن ألتياري رأى ما كان من اضطرابه ومحاولته إخفاء هذا العقد فأيقن أنه يتضمن أموراً خفية ولا بدّ له من الإطّلاع عليها ، فأسرع ووضع يده عليه قبل أن يتمكن دندولو من إخفائه ونظر إليه نظرة ملؤها الإنذار وقال :

ـ إنك تحاول إخفاء هذه الورقة .

فعجب دندولو لجرأته وقال له : ألا يحقّ لي إخفاؤها ؟

ـ إني أريد الاطّلاع عليها .

ـ ما هذا النهج الذي تنهجه ؟ فهو غير معقول .

ـ ولكني سأقرأها ؟

ثم انتزع الورقة من يد والد امرأته وابتعد وجعل يقرأها حتى إذا قرأ اسم جان دي لورنزو صاح صيحة منكرة . فارتعد دندولو لهذه الجرأة النادرة وأراد إنقاذ نفسه فقال : إنك انتزعت مني بالعنف سراً من أسرار الحكومة فاني تمكنت من أن أنصب فخاً لرولاند فوقع فيه ، وسيحضر هذه الليلة إلى منزلي في جزيرة أوليفو فاقبض عليه دون شك لأني أمرت أن يطوّق المنزل بالجنود . فاعلم الآن أن كلمة تخرج من فمك أو إشارة تبدو منك تفسد عليّ هذا الأمر الذي طالما أجهدتُ نفسي

حتى توصلت إليه وتكون التبعة في ذلك عليك .

فأطرق ألتياري مفكراً ثم قال: أسألك العفو عما بدا مني من الحدة ، فقد كان اضطرابي شديداً لهذا النبأ حتى لم أعلم ما أفعل ، فمد دندولو إليه يده وهو يقول : إجلس لنتحدث .

فامتثل ألتياري ونظر إليه دندولو نظرة حقد خفية ثم قال له: كيف عرفت ذلك ؟ قال : إن أمباريا حذرتني ! فقال دندولو: نعم: فانها جاءت إليّ أيضاً منذ ساعة وهي تعتقد أنها تحمل إليّ خبراً جديداً مع أني أتعقب رولاند منذ خمسة أشهر ، وأنا الذي حملته على العودة إلى فينيسيا وأنا الذي دفعته تباعاً إلى هذا المنزل لتذكاراته السابقة فيه. ولكنك عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء. فان رولاند يقود الآن جيشاً كثيفاً من اللصوص يبلغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف ، وله سفن ومدافع ، وربما خطر له أن يهاجم فينيسيا بهذا الجيش ، فهل عرفت الآن أنك اطلعت على سر عظيم من أسرار الحكومة ؟

– نعم ، وإن الدوج قد علم بذلك دون شك .

فارتعش دندولو وقال : كلا، فاني لم أخبره بعد وقد أرجأت ذلك إلى أن يتيسر لي القبض على رولاند .

– حسناً تفعل ، والآن فهل أعددت المعدّات لهذه الليلة ؟

– دون شك !

– إذن أتأذن لي أن أساعدك في القبض عليه ؟

– إنك ستكون لنا خير معين .

– في أي ساعة يكون في المنزل ؟

– في الساعة التاسعة .

فودع ألتياري عند ذلك عمّه وخرج وهو يقول في نفسه: لا شك أني أتيت قبل فوات الأوان .

*

بينما كانت هذه الحادثة تجري في قصر دندولو كانت حادثة أخرى تجري في قصر ألتياري وذلك أنه حين أخرج أمباريا من ذلك الباب السري كي لا يراها أحد، مشت في رواق مظلم انتهت منه إلى سلم قليل الدرجات يؤدي إلى باب صغير يخرجون منه إلى الشاطىء .

فلما نزلت الدرجة الأولى شعرت أن يداً قد وضعت على كتفها فالتفتت فرأت امرأة مقنّعة الوجه ... أما هذه المرأة فقد قالت لها بصوت خافت : تعالي ! فترددت أمباريا هنيهة ونظرت إلى ما حولها نظرة ريب ، ولكن تلك المرأة كانت قد قبضت على ذراعها وسارت بها إلى غرفة معتزلة .

وهناك أزاحت البرقع عن وجهها فدهشت أمباريا وصاحت قائلة :

– ليونور ؟

نعم إنها كانت ليونور . وتفصيل أمرها أنها نهضت في صباح ذلك اليوم مبكرة وانصرفت إلى أشغال المنزل الداخلية حسب عادتها في كل يوم . وإنما كانت تعمل هذه الأعمال على كثرة الخدم في قصرها كي تشغل أفكارها وتتعزى بالعمل عما هي فيه ، فإن

العمل أعظم دواء للأحزان . وكذلك كانت تعالج نفسها به من حب رولاند حتى إذا استفحل داؤها وعجز هـذا الدواء عن تسكين جأشها ذهبت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو وجلست تحت تلك الأرزة التي تعاهدت عندها مع رولاند على الحب مدى الحياة بتلك القبلة الأولى عند انتصاف الليل ، أي في ساعة الفراق .

ففي صباح ذلك اليوم بينما كانت تشتغل حسب عادتها شعرت بضيق عظيم في صدرها فذهبت إلى نافـذة تشرف على الطريق وفتحتها ووقفت فيها تمعن الطرف بمناظر البحيرات وتموّج أشعة الشمس الذهبية عليها . وفيما هي على ذلك رأت قارباً وقف عند باب القصر ورأت امرأة صعدت منه فعرفت أنهـا أمباريا علة نكبتها وسبب حزنها الدائم فوضعت يدها على قلبها لاضطرابه كأنها خشيت أن يثب من صدرها واصفرّ وجهها حتى باتت كالأموات .

ولكنها تغلبت على نفسها وأسرعت إلى غرفة ملاصقة لغرفة أشغال ألتياري فدخلت إليها وهي لم تدخل إليها من قبـل ، فسمعت صوت امرأة تقول إن رولاند في فينيسيا .

فصاحت صيحة تشبه الأنين وانقلبت لفورها مغمياً عليها .

فلما عادت إلى رشدها كان الحديث قد انتهى بين أمباريا وألتياري ولكنها سمعت صوت فتح الباب فأيقنت أن أمباريا تحاول الانصراف وأسرعت وهي شبه المجانين فوضعت برقعاً كثيفاً على وجهها وأدركت الحظية .

والآن فإن المرأتين جالستان وجهاً لوجه وهما لم تلتقيا منذ تلك الليلة الهائلة ، ليلة قبضوا على رولاند منذ سبعة أعوام .

وكانت كل منهما تنظر إلى الأخرى نظرات هائلة كأنها كانت تتمة تلك النظرات التي تبادلتاها أمـام قضاة رولاند في مجلس العشرة . وقـد لزمتا الصمت إلى أن فتحت أمباريا الحديث فقالت : ماذا تريدين مني يا سيدتي ؟ قالت : أريد أن أقف منك على الحقيقة بجملتها .

— أية حقيقة تعنين ؟

— كل ما تعرفينه عن رولاند . قالوا لي إن الحكومة عفت عنه ليهرب من فينيسيا ثم مات ، ولكن كل ذلك كان كذباً وبهتاناً ، أريد الحقيقة فتكلمي .

— وإذا لم أتكلم ؟

— تموتين .

فضحكت أمباريا ضحك المتهكم . أما ليونور فانها استلت مدية وقالت لهـا : أقسم بحبي أنك إذا لم تقولي الحقيقة بجملتها أغمدتُ هذه المدية في صدرك .

فنظرت أمباريا إلى مـا حواليها فرأت أن الغرفة لا نوافذ فيها . وكانت أمباريا قوية كبيرة الجسم متينة الأعضاء ، أمـا ليونور فقد كانت نحيفة الجسم ممشوقة القامة عصبية المزاج فكانت الأولى تمثل الجمال الروماني والثانية الجمال الفينيسي .

فلما سمعت أمباريا هـذا الوعيد ألقت وشاحها عن كتفها

وأسرعت إلى فكّ أزرار ثوبها فأخرجت خنجراً من صدرها وقالت :

ـ لا أعلم كيف خطر لك أن من كانت مثلي تأتي إلى منزل ألتياريّ دون سلاح . فالبثي في مكانك أو أقتلك دون إشفاق.

فكان جواب ليونور على إنذارها انها ذهبت إلى الباب فأحكمت إقفاله وعادت إليها فوقفت أمامها وجعلت كلّ منهما تنظر إلى الأخرى نظرة المبارز إلى خصمه قبل القتال ، وكل منهما موقنة انها لا تخرج من هذه الغرفة إلا قاتلة أو مقتولة .

وعند ذلك هزت أمباريا الخنجر بيدها وهجمت على ليونور ولكنها قبل أن تبلغ إليها بخنجرها صاحت صيحة ألم فان ليونور قبضت على يدها بعنف عظيم حتى كادت تسحقها . وسقط الخنجر من يدها فتراجعت مذعورة وليونور قابضة على يدها مشهرة خنجرها عليها حتى التصقت بالجدار وسقطت جاثية على ركبتيها . وعند ذلك وضعت ليونور خنجرها على عنق أمباريا ووخزتها به فسالت نقطة دم فوق ذلك العنق الأبيض تشبه ياقوتة على مرآة. وقد هاج غضب ليونور وزادها الحقد قوةً على قوة فألقت أمباريا على الأرض وقد وهت قواها من الرعب وركعت فوق صدرها وهي قابضة على عنقها باحدى يديها وخنجرها باليد الأخرى .

فصاحت الحظية تلتمس العفو ، وقد تمثّل لها الموت في نظرات ليونور . فأجابتها ليونور قائلة : أتقولين الحقيقة ، قالت : نعم .

فرجعت ليونور بالخنجر عن عنقها ولكنها لبثت راكعة على صدرها وقالت لها : إذن قولي .

ـ ماذا تريدين أن تعرفي ؟

ـ أين رولاند ؟

ـ في فينيسيا ... وهو متنكر باسم ... جان دي لورنزو.

ـ منذ متى ؟

ـ منذ فراره دون شك .

ـ من أين هرب ؟

ـ من آبار فينيسيا .

ـ أكان سجيناً في تلك الآبار !

ـ نعم !

ـ منذ متى ؟

ـ منذ قبضوا عليه ليلة خطبته .

ـ ومتى هرب ؟

ـ منذ ستة أشهر .

ـ وأنت ، ماذا أتيت تعملين هنا ؟

ـ لأخبر ألتياريّ !

ـ ومن أخبرت أيضاً ؟

ـ دندولو !

ـ أبي ؟ حسناً ، فعلى ما عزّما ؟

ـ على أن يقبضا عليه .

ـ متى ؟

– في أقرب حين .
– أهذا كل ما تعلمينه ؟
– نعم هذا كل شيء !
فمدت ليونور يدها إلى ستارة فانتزعتها من الجدار وقطعتها بخنجرها وهي لا تزال راكعة فوق صدر الحظية التي كادت تجن من رعبها ثم ربطت يديها ورجليها ووضعت كمامة في فمها وأقفلت باب الغرفة عليها ثم أخذت مفتاحها وانصرفت إلى الغرفة التي يضعون فيها المشروبات الروحية فأخذت زجاجة فيها أقوى المشروبات وجرعت منها جرعة كبرى فعاد الاحمرار إلى خديها وسكن اضطرابها .
وعند ذلك لبست ملابسها وخرجت من القصر .

نصف الليل

*

فلندع الآن ليونور سائرة لتنفيذ قصدها السري ولنعد إلى غرفة دندولو فإن رئيس ديوان التفتيش بعد أن خرج التياري من عنده مرّت به ساعة هائلة تزاحمت فيها الأفكار في مخيلته فخطر له أن ينتحر، وخطر له أيضاً أن يقتل ابنته التي يعبدها.

ولكنه طرد هذا الفكر من مخيلته وعاوده فكر الانتحار . ثم خطر له خاطر آخر اطمأنّ له وأعاد إليه سكينته .
ذلك أنه قال : لست أنا وليست ابنتي من يجب أن يموت ، بل رولاند . ويجب أن يكون هذا الموت سريعاً فإن ذلك خير من القبض عليه .
وعند ذلك خطر له اسم ساندريجو فنهض إلى النافذة المشرفة على الشاطىء ونظر منها فرأى بحاراً جالساً إلى القارب وهو ينظر إلى القصر . فأشار إشارة فأسرع البحار بالنهوض ودنا من النافذة. فأطل دندولو منها وذكر اسم ساندريجو. فأشار البحار إشارة تدلّ على أنه فهم وابتعد مسرعاً وبعد نصف ساعة كان ساندريجو ماثلاً بحضرة دندولو فقال له دندولو : أرأيت كيف أني وفيت بوعدي ؟ فارتعش اللص وقال له : هل وقفت على أثر رولاند ؟
قال : نعم .
فبرقت عينا اللص وقال : متى تريد القبض عليه ؟
– هذه الليلة، فاحضر إلى جزيرة أوليفو في الساعة العاشرة.
– في أية جهة ؟
– قرب الكنيسة .
– حسناً ، فأنتظر هناك في الساعة العاشرة .
– وأنا آمرٌ بك في تلك الساعة فتذهب معي .
– لا تنسَ يا سيدي ما وعدتني به .
– أي وعد ؟

– أن أتولى أنا إدارة القبض عليه .

– سأفي بوعدي .

– إذن لقد بقي علينا سكالا برينو وسننظر في أمره . والآن إلى اللقاء يا سيدي في الساعة العاشرة .

ثم تركه وانصرف فأوصله دندولو إلى باب الغرفة وهناك وضع يده على كتفه وقال له : أرجو أن لا تتجاوز الحدّ . قال: ماذا تعني بذلك ؟ قال : أعني أننا نحتاج إلى القبض على رولاند وهو في قيد الحياة وأخاف أن يدفع بك الحقد إلى قتله .

فظهرت علائم التردد على ساندريجو ولم يجب فقال له دندولو: أسمعت ما قلت لك ؟ فأقسم أنك لا تتجاوز حدود حقدك .

فارتعش ساندريجو لهذا الطلب الغريب ووقف الاثنان وكل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يتكلم إلى أن أدار اللص وجهه وقال : حسناً ، فسأفعل . ثم هرول مسرعاً . فعاد دندولو إلى غرفته وهو يقول : إن رولاند سيموت الليلة لا محالة .

*

أما رولاند فإنه حين خرج من عند أمباريا ذهب تواً إلى الشاعر آريتان فاستقبله الشاعر باحتفاء وقال له : إني كنت أنتظرك وقد نفد مني الصبر . قال : لقد كنت في سراي الدوج أليس كذلك ؟

– نعم ، فقد ذهبت إليه مع بمبو ، وعجيب كيف أني لم أرَه بعد ذلك ؟

– إذن أخبرني بما فعلت هناك .

فأطرق الشاعر مفكراً وجعل يوازن بين ما يرجوه من الدوج وبين ما يتوقعه من رولاند فقال : لم أفعل شيئاً يذكر . فقال رولاند : ولكني كنت أعتقد أنه حدث بينكما أمور خطيرة ، فما هذا الخطأ الذي صدر مني ؟

– أعلمت أني قابلت الدوج ؟

– ألم أقل لك ؟

– أنت تعلم كل شيء ، فما أنت إلا من السحرة !

– كلا ، ولكنك ستعرف كيف عرفت ذلك ، فقد سألتني منذ هنيهة ماذا حدث لصديقك العزيز بمبو ؟

– نعم ، وقد ذكرت الآن أنك تريد أن تتناول الطعام معه عندي .

– لم يبقَ حاجة إلى ذلك فقد دعوت بمبو إلى أن يقيم عندي بضعة أيام في قصر جميل في ضواحي فينيسيا ، فهو الآن عندي وهو الذي أخبرني أنك قد قابلت الدوج .

فذهل الشاعر وقال : أهو بمبو الذي أخبرك بهذا ؟

فابتسم رولاند وأومأ برأسه إيماء إيجاب . فقال آريتان : إذن لا بدّ أن يكون قد أخبرك بكل ما حدث فلماذا تسألني ؟

فانقطع رولاند عن الابتسام ومشى إلى آريتان فوضع يده على كتفه وقال له : يظهر يا مسيو آريتان أنك نسيت ما اتفقنا عليه ؟

فنظر آريتان إلى رولاند وقد راعته نظراته دون شك إذ

قال له : إني مستعد لإخبارك بكل ما تريد أن تعلمه .

فعاد رولاند إلى مجلسه وقال : لنبدأ حديثنا من أوله ، فقد قلت لي إن بمبو سار بك إلى الدوج فأحسن استقبالك ؟

– هو ذاك ، وقد شرفني بثقته وأطلعني على أفكاره وعيّنني سفيراً .

– أهنئك بهذه السفارة . فإلى مَن يريد إرسالك ؟

– إلى جان مدسيس .

– الشيطان الأكبر ؟

– هو بعينه ، وقد عهد إليّ أن أقترح عليه اقتراحات أقسمت على المبالغة بكتمانها .

– إنك تستطيع كتمانها عن جميع الناس دوني .

فاصفرّ وجه آريتان وقال : سلني يا سيدي كل ما تريده ما عدا الإباحة بهذا السر .

– أسألك كل ما أريد ؟

– نعم ، ما خلا هذا السر فإني لا أستطيع خيانته .

– إذن أسألك حياتك !

فارتجف آريتان وقال : حياتي ؟

– نعم حياتك ! فإني أنقذتك من اللصوص وحرمتهم من ثروة طائلة وقد ندمت أشد الندم لإساءتي لأولئك التعساء ، فما بقي عليّ إلا أن أقيد يديك وأضع الكمامة في فمك وأذهب بك إلى المكان الذي أنقذتك منه فأردك إلى أولئك اللصوص الذين سرقتك منهم .

– سرقتني منهم ؟

فوقف رولاند وقال : نعم ، ألا تعدّ ذلك سرقة ؟ إلى اللقاء يا مسيو آريتان ، فتجلد والتمس معونة الدوج عند الاقتضاء لأني سأخطفك قبل المساء وغداً أردّك إلى اللصوص في مغاور بيافا.

وقد مشى رولاند ثلاث خطوات فهلع قلب آريتان وقال له: قف أيها الرئيس .

– لماذا ؟ أعزمت على الإباحة ؟

– إني أبوح لك بكل شيء .

– إذن قل لي كم ترجو أن تقبض من الدوج .

– خمسة آلاف ريال ، قبضت نصفها .

– حسناً ففي هذا المساء أرسل إليك خمسة آلاف ريال فوق ما تقبضه من الدوج .

فتلعثم لسان آريتان ولم يدرِ كيف يشكره . فقال رولاند : والآن تكلم واحذر أن تفعل مرة أخرى ما فعلته هذه المرة فإني لا أستطيع الصبر عليك كما صبرت اليوم وقد عقدنا اتفاقاً فوفيت بعهدي ووجب عليك أن تفي بعهدك . واعلم أن حياتك منذ خمس دقائق كانت معلقة بخيط أوهى من خيط العنكبوت .

قال : إني سأخبرك بكل شيء .

– قل ، فإني مصغ إليك .

فروى له آريتان عند ذلك جميع ما دار بينه وبين الدوج حتى إذا أتم حديثه قال في نفسه : إني أخبرت هذا الرجل وأنا لا أعرفه بسر عظيم لا أدري ما تكون فائدته منه ، ولكنه

أنقذ حياتي ، وهو الآن يهبني خمسة آلاف ريال وقد رأيته في جميع أعماله وأفكاره أشرف من الدوج ، وقد رضيت به صديقاً .. أنا الذي أهزّ بقلمي عروش الملوك . ثم قال له بصوت مرتفع : بماذا تأمر يا سيدي ؟ أيجب أن أقضي مهمة الدوج ؟

فابتسم رولاند وقال : لقد أخطأ فوسكاري ، فإن فينيسيا يجب أن تبقى فينيسيا وهي مدينة الماء ومجدها من الماء فيجب أن تلتفت إلى جهة البحر لا إلى البر !

ثم أطرق هنيهة وقال : إن هذه المهمة التي عهد إليك الدوج قضاءها سأتولاها عنك وأذهب أنا إلى جان مدسيس ، وفي خلال ذلك تختبيء في منزلك إلى أن أعود فأخبرك بجواب الشيطان الأكبر إلى فوسكاري . فقال آريتان : سيكون لك ما تريد .

فانصرف رولاند عند ذلك وهو واثق من أمانة آريتان .

وذهب إلى ذلك المنزل الحقير الذي كانت تسكنه جوانا وماتت أمه فيه ، وكان جائعاً فأكل قطعة من الخبز الذي كانت تأكله أمه ، وشرب من قدح الماء الذي كانت تشرب فيه أمه . ثم افتكر بقرب موعد ذهابه إلى جزيرة أوليفو فوضع عشرة آلاف ريال ثمن البيت في كيس وأقام ينتظر حلول الموعد وهو يناجي نفسه فيقول : لقد عاقبت بيو وانتقمت من أمباريا وسيعلم فوسكاري وألتياري ودندولو أية صاعقة سوف تنقضّ عليهم !! ولكن هي ... ! أواه يا ليونور ! إن أشد ما ألقاه من العذاب هو منكِ فإنك أشدّ أولئك الأعداء إساءة إليّ لأني ائتمنتك على قلبي وعلى حياتي .

وعند ذلك حاول أن يبعدها عن فكره ، فإنه كان كلما افتكر بها يتولاه ضعف شديد ، ولكنه لم يستطع . وشعر أن حبها لا يزال مكيناً في قلبه وأن الخيانة لم تؤثر على ذلك الحب لا سيما حين كان يفتكر أنه ذاهب إلى منزلها القديم الذي تلقّن فيه آيات حبّها فإن قلبه كان يخفق خفوق أجنحة الطائر .

وما زال على ذلك إلى أن هجم الليل فالتفّ بردائه وحمل كيس النقود وسار إلى جزيرة أوليفو فمشى تواً إلى البيت فلقي فيه الخادم الشيخ ينتظره في قاعة الطعام . فأعطاه الخادم العقد وسلمه المفاتيح وقبض الثمن وعرض عليه أن يطوف معه الغرف .

فقال له رولاند : لا حاجة إلى ذلك فسأتفقده وحدي . وإني أحب هذه الليلة أن أبقى وحدي في المنزل فاذهب إلى حيث شئت وعد إليّ في الغد . قال: أشكرك يا سيدي وسأقضي هذه الليلة في قصر دندولو . ثم انحنى أمامه بملء الاحترام وانصرف .

فذهب رولاند في أثره إلى باب الحديقة وأقفله وعاد ببطء إلى المنزل فأطفأ أنواره وجعل يتنقل فيه من غرفة إلى غرفة حتى انتهى إلى غرفة ليونور فوقف عند بابها وقفة الخاشع ثم وضع المفتاح في قفلها ، ولكنه ما لبث أن أخرجه وهو يرتعد فإنه لم يكن دخل مرة إلى غرفة الفتاة حين كان خطيبها .

وقد رأى أنه لا يجسر أن يرى ذلك الأثاث الذي كانت تراه ليونور ولا أن يمس تلك الأمتعة التي كانت تمسها فاضطرب اضطراباً عظيماً وعاد إلى الحديقة فسار دون قصد إلى تلك

الأرزة الكبرى فقال : هنا كنت سعيداً .

والغريب أنه نسي في ذلك الموقف جميع ما مر بـه من أيام السجن والشقاء كأنها لم تكن ، وخيّل له أنـه كان تحت تلك الأرزة بالأمس مع ليونور ، وأنه جاء اليوم حسب عادته لزيارة خطيبته .

ولكنه ما لبث أن ذكر الحقيقة فلم يطق احتمال تلك الذكرى وهرب وهو يشهق بالبكاء .

وعلى ذلك فإن هذا البيت الذي اشتراه لتنفيذ مقاصد حقده وانتقامه لم يجد فيه غير الحب الذي يقتل مثل هـذه المقاصد ، فجعل يهرب من شجرة إلى شجرة في تلك الحديقة كما يهرب الطير من سهام الصيّاد حتى انتهى إلى آخر الحديقة على رجاء أن يتسلق سورها ويعود من حيث أتى .

وقـد تسلق السور وبلغ إلى أعلى الجدار وهمّ أن يثب من فوقه ... غير أنـه توقف فجأة إذ رأى رجالاً مختبئين تخفيهم ظلمات الليل عن العيون .

وقد أيقن أنهم جنود كامنون هناك للقبض على رجل فمن عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وحاول عدّ أولئك الجنود فرأى أنهم كثيرون وأنهم يمتدّون إلى آخر الحديقة كأنهم يطوّقون سورها . فنزل عن السور وذهب إلى جهـة ثانية من الحديقة وتسلّق جدارها فرأى هناك كثيراً من الجنود أيضاً ، فأيقن أن الحديقة مطوّقة وعلم عند ذلك أن الذي يريدون القبض عليه إنما هو رولاند !

فعادت إليـه سكينته ولم يفتكر إلا بطريقة تمكّنه من الفرار . وعند ذلك مشى ببطء إلى الأرزة الكبرى دون قصد ، ولكن الحب الذي كان متغلباً عليه في تلك الساعة دفعه إلى تلك الأرزة كأنما خطر له أن يموت تحت تلك الشجرة التي عندها نعيم الحياة . وربما خطر له أيضاً أنه إذا هوجم في ذلك المنزل فخير له أن يكون في حديقة لاتساع المجال .

بينما كان رولاند يسير إلى الأرزة سمع وقع خطوات من ورائه فالتفت فرأى رجلاً قد سقط من فوق الجدار وتقدم في الحديقة، ثم رأى غيره فعل فعله ، ثم رأى ثالثاً ثم رأى كثيرين غيره قد هبطوا من فوق الجدار وانسلوا في تلك الحديقة كما تنسل الأفاعي وتواروا فيها . فقـال في نفسه : ترى ، من الذي وشى بي وأرشدهم إليّ ؟

وعند ذلك ابتسم وخطرت له أمباريا .

وكان قد بلغ الأرزة ورأى أولئك الجنود الذين كانوا قـد تواروا عن أنظاره قد عادوا إلى الظهور وجعلوا يبحثون في تلك الحديقة كما تبحث الكلاب عـن الطريدة ، فأيقن أنهم سيصلون إليه قريباً وجرّد خنجره عازماً على أن يموت تحت تلك الأرزة. وقد انقبضت نفسه لا جزعاً من الموت بل لأنه سيموت قبل أن يدرك مرامه من الانتقام .

وفي تلك الساعة الرهيبة التي كان يودع فيها الحياة ظهر الحب في قلبه بأشدّ مظاهره فتمثلت له ليونور وذكر اسمها كأنـه يكلّمها !

وعند ذلـــك دقّت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل حتى إذا دقت آخر دقاتها قال بصوت المحتضر :

— ليونور ... ليونور !

فأجابه صوت خافت حنون قائلاً :

— رولاند هو ذا أنا !

فلبث رولاند في موقفه وقــد جحظت عيناه وجمد الدم في عروقه وجعل العرق ينصب من جبينه وهو يرتجف فخيل له أنه يحـلم ونسي كل ماضيه بل نسي تلك الآبار التي أقام فيها ستة أعوام ونسي أعداءه وانتقامه فلم يذكر غـير تلك الحبيبة ولم يسمع غير قولها الذي قالته له بالأمس وهو: « لقد انتصف الليل أيهــا الحبيب فلنفترق ! » ، وأنها ستأخذ بيده وتشيعه إلى باب الحديقة ...

وقد ارتعد وشعر كأنما صوابه قد ضلّ ، فإنه رأى ليونور لابسة نفس الملابس التي كانت تلبسها حين كانت خطيبته وعلى كتفيها إشارة من الحرير الأبيض كان قــد أهداها إليها ، وهي جميلة كما كان يعهدها ... غـير أنها لم تكن تبتسم ذلك الابتسام الذي كان يسحره .

نعم إنه رأى ليونور كما رآها أمس وأخذ بيدها بل أخذت بيده وسارت به لأنه أصبح من غير قوى .

ولم يكن يرى إلى أين تسير بـــه إذ لم يكن يرى سواها ولا يفتكر إلا بها ولا يشعر إلا بيدها تتصل بيده فتمدّه بالحياة .

وبعد هنيهة وجد نفسه في ذلك المنزل عند باب تلك الغرفة

التي لم يجسر على أن يفتحها ، أي غرفة خطيبته .

كان الظلام حالكاً ، غير أنه كان يراها كما يراها في رابعة النهار وقــد رآها فتحت ذلك الباب وأشارت إليه بالدخول فدخل وأقفل الباب ... واختفت ليونور !

— وعند ذلك سقط على ركبتيه وبسط ذراعيه وجعل يشهق بالبكاء .

وفي ذلك الوقت علت الأصوات في الحديقة وأضاءت ليونور مصباحاً ومشت به إلى تلك الأصوات وهي آمنة مطمئنة !

هي وهو

*

بعد أن قيّدت ليونور أمباريا وسجنتها في الغرفة كما تقدم ، خرجت من قصر ألتياري وهي لا تعلم غير ما علمته من المحظية ، وهو أن رولاند في فينيسيا وأنــه متنكر باسم جان دي لورنزو وأن أباها وزوجها عارفان بذلك .

وقد سارت تواً إلى قصر أبيها ولكنها حين وصلت إلى الباب وقفت مضطربة كأنها أنفت أن تلتقي برئيس مجلس التفتيش ،

أي أبيها الذي كان منهمكاً دون شك في تلك الساعة بالقبض على رولاند .

وكانت مبرقعة ببرقع كثيف كي لا يعرفها من يراها فجلست على مقعد هناك معدّ لجلوس من ينتظرون صدور الإذن لهم بمقابلة الرئيس .

ولم تكن ليونور قد وضعت خطة ظاهرة ، فإن أفكارها كانت مضطربة بالفرح وبالرعب . أما الفرح فلأنها وثقت الآن أن رولاند لم يهجرها وأن الأعوام الطويلة التي أبعد عنها فيها كان يقيم في خلالها سجيناً في الآبار ، وأنه أخيراً لم يمت بل هو في قيد الحياة . وأما رعبها فلأنها كانت عالمة بأنهم سيقبضون عليه .

وقد تمثل لها في تلك الساعة ما كان يعانيه خطيبها المنكود في سجنه مدة ستة أعوام ، فطردت هذا التصور من مخيلتها لأنه يحول دون التفكير في طريقة إنقاذه . وحصرت أفكارها في البحث عن وسيلة هذا الإنقاذ .

نعم ، إنها كانت تريد إنقاذه وهي لا رجاء لها به بعد أن أصبحت زوجة ألتياري . ولكنها كانت عازمة بعد الفوز بإنقاذه على أن تنتقم من أبيها الذي خدعها ومن زوجها الذي كذب عليها انتقاماً هائلاً دون إشفاق فتقتلهما ثم تقتل نفسها .

غير أنها كانت تقول في نفسها كيف يحقّ لي أن أنتقم للخيانة ؟ ألم أخنه أنا أيضاً ؟ أما كان يجب عليّ أن أقاوم إلى النهاية ولا أرضى بألتياري زوجاً ولو انتقم من أبي ؟

وفيما هي تفكر بذلك رأت فيليب الشيخ خارجاً من القصر

فلم تستغرب وجوده في قصر أبيها ولكنها كانت شديدة الاضطراب لا تجد من تعتمد عليه فأرادت الاعتماد عليه وتبعته حتى وصلت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو . فلما رآها الخادم الشيخ صاح صيحة فرح ودخل معها إلى المنزل فقال لها : إني أنبئك يا سيدتي بنبأ سارّ وهو أن المنزل لا ينقض بعد الآن كما كان يريد أبوك . قالت : لماذا ؟

— لأنه بيع .

— أباع أبي المنزل ؟

— نعم يا سيدتي، ولكن الذي اشتراه تعهّد أن لا يغيّر شيئاً فيه بل قال أيضاً إنه لا يقيم فيه أكثر من أسبوعين .

— ما هذه الشروط الغريبة ؟

— لقد تمّت يا سيدتي ، وهذه شروط البيع الذي أمضاها أبوك وسيسلم الرجل المنزل في هذه الليلة .

وناولها العقد مفتوحاً فما بدأت قراءته حتى ارتعشت وقالت : جان دي لورنزو ؟ غير أنها تمكنت من ضبط نفسها وهي تعلم أن هذا المشتري رولاند وأنه سيحضر بعد هنيهة فقالت له : أهو جان دي لورنزو الموقّع على هذا العقد الذي اشترى المنزل ؟ قال : نعم يا سيدتي .

— وأبي وقّع عليه ؟

— نعم يا سيدتي، فهل ما يبدو عليك من الاضطراب بسبب البيع ؟

— نعم ... نعم .

– إن سيدي دندولو قد وقّع على عقد البيع ولكني أعيد عليك ما قلته وهو أن المنزل لا يتغير فيه شيء، وأن صاحبه لا يسكنه غير أسبوعين وأني سألبث حارسه كما كنت ، أي أنك تستطيعين أن تأتي إليه حين تشائين حسب العادة .

فأطرقت ليونور مفكرة وقد تمثّلت لها خيانة أبيها فعلمت الآن كيف أنه لم يتأثر يوم قبضوا على رولاند وكيف أنه باعها بيع السلع بالمنصب الذي هو فيه . فتألمت لهذه الخيانة ولكنها أبعدتها عن أفكارها إذ يجب عليها أن تنظر إلى الحاضر لا سيا وقد خطر لها أن بيع هذا المنزل لم يكن إلا مكيدة للقبض على رولاند فنظرت إلى الخادم وقالت له : متى يحضر هذا المشتري؟

– في هذه الليلة .

– أية ساعة ؟

– في الساعة الثامنة .

– أيعلم أبي بذلك ؟

– نعم يا سيدتي .

– يا للهول ... يا للفظاعة !

ذلك أنها أيقنت الآن أن بيع المنزل كان فخاً منصوباً ، فلم يعد يخطر لها إلا أن تكون بجانب رولاند ، فإما تنقذه وإما تموت وإياه .

وقد عزمت عند ذلك عزماً باتاً ظهر من إتقاد عينيها ، فسألت الخادم أسئلة مختلفة ثم عادت إلى قصر زوجها . وهناك رأت من دلائل اهتمام القوّاد والجنود ما استنتجت منه أن

ألتياري سيكون مع الذين يقبضون عليه . وفي الساعة الثامنة من المساء برحت القصر وعادت إلى جزيرة أوليفو فدخلت إلى المنزل من باب في الحديقة كان لديها مفتاحه، ودخلت إلى غرفتها القديمة فيه دون أن يراها الخادم . وقد هاجت أحزانها في تلك الساعة وذكرت سابق هنائها في ذلك البيت فارتأت أن تظهر لرولاند بتلك الملابس التي كان يراها فيها أيام الخطبة . فلبست تلك الملابس ونزلت إلى الحديقة فسارت إلى تلك الأرزة الكبرى التي كانت ملتقى الحبيبين .

*

وفي الساعة الثامنة كان ألتياري ودندولو قد شرعا بالعمل فطوّقا الحديقة بالجنود . وفي الساعة العاشرة وصل دندولو إلى الجزيرة يخفره ألتياري الذي تولّى بنفسه إدارة هذه المهمة . وقد التفت عند ذلك إلى دندولو وقال له : لماذا لا نقبض عليه في الحال؟ فأجابه دندولو قائلاً: إني أعرف رولاند حق العرفان، فهو لا بدّ له أن يبيت الليلة في هذا المنزل إحياءً لتذكاراته القديمة ، وفوق ذلك فإن المنزل مطوّق فلننتظر الساعة الموافقة.

فأطرق ألتياري هنيهة ثم قال : هل افتكرت بما يجب أن نصنع به حين نقبض عليه ؟ قال : إننا نحاكمه لتهمة الحرب والمؤامرة والعصيان وتسليح اللصوص وكل تهمة من هذه التهم كافية للحكم عليه بالإعدام .

وعند ذلك رأى دندولو رجلاً قد دنا منه فقال : من هذا ؟

ساندريجو ؟ قال : نعم يا سيدي ، فقد رأيت كل ما فعله الجند ولم يبقَ مناص له منا .

وعند ذلك وضع يده على قبضة خنجره ورأى ألتياري بريق عينيه فسأل دندولو قائلاً : من هذا الرجل ؟ فأجابه قائلاً : ألم تقل لي إنك تخاف محاكمة رولاند وإنك تؤثر قتله حين القبض عليه ؟

— كلا ! إني لم أقل لك شيئاً من ذلك .

— ولكنه خطر في بالك دون شك ، وهذا الرجل يكفينا مؤونة المحاكمات .

فاطمأن ألتياري وتبادل مع عمه نظرة رضى . ثم سار الاثنان يتفقدان الجنود فوجداهم في المراكز التي عيّناها لهم . وسأل ألتياري دندولو قائلاً : كم لدينا من الجنود ؟ قال : مئتان.

فضحك ألتياري ضحكاً عصبياً وقال : إن مَن رآنا يحسب أننا نريد الهجوم على قلعة محصنة . فقال ساندريجو وقد سمع الحديث : لقد كان يكفي أن أكون أنا وحدي . وعند ذلك قال دندولو : لقد انتصف الليل . وأشار إلى الجنود الإشارة المتفق عليها فاندفعوا جميعهم يتسلقون الأسوار ويثبون إلى الحديقة .

أما ألتياري ودندولو وساندريجو فقد دخلوا من أحد أبواب الحديقة ومشوا إلى المنزل حتى إذا أصبحوا على قيد عشرين خطوة منه ظهر لهم نورٌ فجأةً فاصفرّت وجوههم وجرّدوا خناجرهم ثم اندفعوا إلى ذلك النور وصعدوا إلى المكان الذي كان ينبعث

منه فرأوا ليونور تحمل بيدها مصباحاً وقد وقفت أمامهم وقوف الخيال وقالت : ادخلوا فإني بانتظاركم .

فلبث دندولو في موقفه وقد وقف شعر رأسه وجمد الدم في عروقه . وهاج ألتياري هياج الثور الضاري وقد قطعت الغيرة قلبه فصاح بها قائلاً : ماذا تعملين هنا ؟

فوضعت ليونور مصباحها على المائدة وأجابت زوجها بملء السكينة قائلة : سأجيبك على سؤالك ، ولكن ادخل في البدء وادخل أنت يا أبي ولا حاجة إلى أن يعلم جميع جنود فينيسيا أسرارنا العائلية . فدخل دندولو وجلس على كرسي واهي القوى وهو يقول : ويلاه ! إنها عارفة بكل شيء !

أما ألتياري فإنه لبث واقفاً ينظر إلى ليونور وهو يكاد يفترسها بنظراته . غير أن ليونور لم تكترث لهذه النظرات وقالت بصوت مرتفع: إن الرجل الذي تبحثون عنه غير موجود هنا ، فاخرجوا من هذا المنزل الذي تدنسونه فهو منزل أبي .

فنظر رئيس البوليس إلى دندولو وقال له : أيجب أن نطيع يا مولاي ؟ فأجابه بصوت مختنق قائلاً : نعم أطيعوا .

فخرج الجميع . وعند ذلك وقفت ليونور وقفة الملكات وأشارت إلى ألتياري أن يجلس فجلس وجلست وبينها دندولو. وعند ذلك التفتت إلى أبيها وقالت :

— إني أبدأ بك يا سيدي لانك تعلم أني لم أعد بنتك، وأنك تعلم أيضاً فيما أظن بأني عرفت تلك الحقيقة الشائنة . نعم عرفتها . فإنك بعتني بلقب ومن أجل منصب سحق قلبي ...

لا . لا تجب بشيء ودعني أتكلم .. نعم لقد عرفت أنه أقام ستة أعوام في الآبار ، وأنك ارتكبت أقبح آثام الكذب . إنه كان هنا منذ هنيهة فأخبرته بعزمكم على القبض عليه وسهّلت له سبيل الفرار !

نعم إنه نجا ولكن قُضي عليّ أن أتعذب من أجلك ... إذن فاعلم أني لست بنتك ولا أريد أن تكلمني ولا أن تنظر إلي . وفي مقابل ذلك أعفو عنك ، أي أني لا أجمع نساء فينيسيا وأفضحك أمامهن . أرضيت بهذا العفو ؟ أترضى أن لا تكلمني ولا تراني ولا تكون أبي ؟ لا تتكلم فإن صوتك يؤلمني ، وإذا كنت رضيت فأوضح عن قبولك بخروجك من هنا .

وكان دندولو يسمعها وهو يحسب أن الأرض تغور به وقد صبغ وجهه بلون المحكوم عليهم بالإعدام فلم يستطع أن ينظر إلى ابنته بعد أن علم منها أنها عرفت الحقيقة . ونهض فخرج من الغرفة دون أن ينبس بكلمة ولكنه حين بات خارج الغرفة تنهّد تنهداً يشبه صوت الثور المذبوح .

وأما ألتياري فإنه نظر إلى امرأته بعد انصراف أبيها نظرة دموية وقال لها : وأنا ؟ ماذا عسى أن تقولي لي ، أي لزوجك وسيدك ؟

قالت : أقول إنك تحملني على الإشفاق عليك بهذا التبجح ، فإنك منذ رأيتني هنا تلتمس قوة تعينك على قتلي فلا تجدها . والذي أقوله لك ، إنه إذا كان دندولو جباناً سافلاً فأنت أشدّ جبناً وأحطّ نفساً . فقد خنت رجلاً كان يعدّك من أخلص

إخوانه ... أنت الذي يخونه الآن أيضاً ! أنظر إلى ما حواليك واحذر .

غير أن ألتياري لم يسمع هذه الكلمات الأخيرة إذ لم يفتكر إلا بأمر واحد وهو أن ليونور رأت رولاند وأنها تقرّ بذلك . ولم يكترث لِمَا قالته من أنها ساعدته على الفرار بل كان همه منصرفاً إلى ما دار بينهما من الحديث وأنه كان حديث غرام دون شك ، فنهض والنار تتوهج في عينيه وخطا خطوتين إلى ليونور فقال لها : إذن لقد رأيته ؟

— لقد قلت لك ذلك .

— وليست هذه المرة وحدها دون شك ... قولي ... إني أريد أن أعلم هذه الحقيقة منك ولو صرعتني الغيرة أمام قدميك ! وبعد ، فإنك تتكلمين عن الخيانة فمن الذي خنته أنت ؟ أخنت العاشق أم خنت الزوج ؟ فإنك كنت خطيبته وكان الخوف لديك أشد من الحب ؟

فاضطربت ليونور لهذه الأقوال وقالت في نفسها بلهجة القنوط : نعم هذا هو ذنبي فقد كنت خائنة مثلهم .

وعاد ألتياري إلى الحديث فقال : إنك تخليت عنه في أشد ساعات شقائه ولماذا ؟ لتضمني مستقبل أبيك وتحققي أطماعه . وهذه هي خيانتك الأولى التي لا علاقة لي بها في شيء . وأما خيانتك الثانية فهي أنك خنتني أنا وأنا الآن أناقشك الحساب وذلك من حقي ، فألقي التهمة إذا كنت تجسرين .

وقد ضغط عند ذلك على قبضة خنجره فأيقنت ليونور أن

ساعة موتها قد دنت وسرّت بهذا الموت لأنها تجد به راحتها الكبرى ولكنها ذكرت لفورها أن رولاند مختبىء في غرفتها وأنهم قد يعثرون به وأنها تستطيع إنقاذه فرغبت في الحياة بضع ساعات إلى أن تأمن عليه ، وأجابت زوجها قائلة : إنك منخدع فإني لا أخاف قضاءك . فقال : ماذا تعنين ؟

أعني أنهم إذا لم يروني صباح غد ، يذهب صديق مخلص لي إلى فم الأسد ، أي إلى المكان المعدّ لوضع تقارير الوشايات ، فيضع فيه تقريراً يثبت فيه أن ألتياري قائد جيش فينيسيا العام يأتمر مع ضباطه على الدوج ومجلس العشرة . والآن فاطعن صدري بخنجرك .

فسقط الخنجر من يد ألتياري وتراجع منذعراً مصعوقاً . ثم وثب إلى الباب ونظر نظرة الفاحص إلى الحديقة فعلم أنه لم يسمعها أحد فعاد إليها وهو يرتجف ونظر إليها نظرة نفّست عن رعبه ونسي في تلك الساعة حبه وغيرته وباتت ليونور غريبة لديه لا يرى فيها إلا امرأة واقفة على سرّه .

وأي سرّ هو ؟ فإنه يقوده إلى الشنق أو يصيبه بما أصيب به رولاند . ولذلك دنا منها وقال لها بلهجة المستعطف : كيف عرفت هذا السرّ ؟

قالت : ذلك لا يفيدك ، فإني واقفة على سرّك منذ عامين . فلم أكن أكترث له إذ لا فرق عندي بين أن تكون أنت حاكم فينيسيا أو فوسكاري . ولكنك إذا أنذرتني أنذرتك ، وإذا طالبتني بحقوق لا أريد أن أعرفها دارت الدائرة عليك . والآن

فاسمع ما أريد أن أقول لك :

— إني ، حرصاً على شرف اسمي ، لا أريد أن أغيّر شيئاً من حياتنا الظاهرة ، ولكنك تراعي شرطنا القديم فلا أكون زوجتك إلا في أعين الناس ، وفي مقابل ذلك أنسى مؤامرتك . أيوافقك هذا الشرط ؟

فأجابها بصوت مختنق قائلاً : نعم . قالت : إذن إنصرف من هنا كما انصرف أبي .

فتراجع ألتياري وهو ينظر إلى هذه المرأة التي باتت حياته في يديها . ولما رأت ليونور أنها باتت وحدها تنهدت تنهداً طويلاً وشعرت أن قواها قد تلاشت . ولكنها علمت أن مهمتها لم تنته بعد فشدّدت نفسها وصعدت إلى غرفتها التي خبأت فيها رولاند ففتحتها وقالت له :

— رولاند ، إنك حرّ طليق ؟

فحدّق بها رولاند فوجد أنها لم تتغيّر ما خلا أن علائم الهمّ كانت بادية عليها .

وكانت واقفة مطرقة الرأس تحمل المصباح بيدها فكانت تشبه التمثال . فهاجت الأفكار في مخيلة رولاند ونظر إلى هذه المرأة التي وقفت أمامه دون أن تتكلم ، تلك التي كان يعبدها وينتظر أن يسمع كلمة منها لينطرح على قدميها ، تلك التي تزوجت سواه وهو طريح في آبار السجن ، فكبرت عليه خيانتها واشتدّ به اليأس فقال في نفسه : أية فائدة بقيت من الكلام ! وبعد ، فماذا أقول لها ، أؤنبها وألومها ؟ وأي لوم يفيد وهي

قد اشترت سعادتها بيأسي الأبدي ؟ كلا ، إني لا أقول لها كلمة فإن الكلام لا يفيد .

وعند ذلك انحنى أمامها ومرّ بها فقال : الوداع يا ليونور .

ثم مشى ببطء ، وتوغّل في الحديقة إلى أن أخفاه الظلام .

أما ليونور فانها سارت في أثره وقد كاد يقتلها الحزن وقد أضلّ اليأس رشدها فنسيت أن تطفىء المصباح وأن تقفل الأبواب وذهبت تواً إلى قصر زوجها ففتحت الغرفة التي سجنت فيها أمباريا ففكت قيودها وقالت لها : إذهبي دون أن تزيديني حرفاً .

وكذلك أمباريا فانها نظرت إليها نظرة ملؤها الوعيد وانصرفت دون أن تتكلم . وعند ذلك ذهبت ليونور إلى غرفتها وقد وهنت قواها ، فلم تستطع الوصول إلى سريرها وسقطت على الأرض شبه مغميّ عليها وهي تشهق بالبكاء وتقول : يا ويح نفسي ، إنه لم يغفر لي ... إنه لا يحبني ، فأية فائدة بقيت لي من الحياة ؟

*

ولم يكن رولاند بأقل منها يأساً فانه اختبأ في الحديقة إلى أن رأى ليونور خارجة منها ، فحاول أن يخرج من مخبئه إليها ، ولكنه توقف فجأة وقال في نفسه : أية فائدة من الكلام فاني لم أقل لها شيئاً حين أنقذتني فلا أقول لها شيئاً الآن ، إذ أن كل شيء قد انتهى بيننا منذ أخبرني حارس هذا المنزل أنها تزوجت .

نعم ، إنها ماتت في عرفي ولست أراها الآن ، بل أحلم أني أراها .

وقد قام على ذلك نحو ساعة إلى أن تمثل له أعداؤه فهاج ثائره وخرج من تلك الحديقة ، حتى إذا وصل إلى بابها لمح ظلاً ينتصب وسمع صوت رجل يقول له بلهجة مهدّدة : إلى اللقاء يا رولاند ، وما لقاؤنا ببعيد !

فلم يكترث رولاند لهذا الرجل الذي توارى عنه في الظلام ولم يقتفِ أثره إذ لم يعد يبالي بأمر وهام على وجهه في تلك الليلة كما هام يوم عرف بخيانة ليونور . ولبث على ذلك إلى الصباح فذهب إلى المنزل الذي تقيم فيه جوانا وهناك لقي سكالا برينو ينتظره فقال له : إن رجالنا قد حضروا بجملتهم وسيحضرون الليلة إلى المنزل الذي عينته لهم في جزيرة أوليفو .

فقال له رولاند : لم يعد الاجتماع ممكناً في هذا المنزل لأنه غير آمن وأظن أننا سنلتقي في المغارة السوداء . فنظر سكالا برينو إليه نظرة انذهال وقال : والذي كان يجب أن نفعله ؟

— سنفعله بعد الآن ، فاذهب أيها الصديق وأخبر الرفاق أني بعد ثمانية أيام سأكون في المغارة السوداء . وأنت حرّ في هذه المدة .

فقال له بصوت يضطرب : إذن أستطيع أن أذهب إلى قرية ميستر فأقيم فيها هذا الأسبوع ؟

— نعم إنك ستوصل أوامري إلى هناك ثم تذهب إلى تلك القرية فترى بنتك .

— ما هي الأوامر يا سيدي ؟

— إنك ستذهب على سفينتنا الكبرى بما سأكتبه إليك من

الرسائل ، فانتظر قليلا .

ثم قام فكتب ست رسائل فدفعها إليه فقال له سكالا برينو: إن هذه الرسائل ستصل إلى أصحابها بعد يومين. قال: هو ذاك ، أي أنك بعد ثلاثة أيام ستكون سعيداً .

فبرقت عينا سكالا برينو بأشعة الفرح وأوصاه رولاند بما يجب أن يفعله مع الزعماء . وبعد ساعتين ركب سكالا برينو السفينة فبلغ بها الشاطىء ثم سافر من هناك إلى المغارة السوداء .

البيت القروي الصغير

*

إن ذلك الرجل الذي توعّد رولاند حين خروجه من حديقة منزل دندولو توارى مسرعاً في الظلام إلى جهة الميناء فذهب إلى خمارة حقيرة مقفلة الأبواب لا يجتمع فيها غير اللصوص والمتشردين.

وهناك قرع بابها بشكل خاص ففتح له ودخل فمشى إلى رجل كان جالساً على المائدة ولمس كتفه ، فالتفت الرجل وهو بملابس البحارة وقال : ساندريجو ؟ قال : نعم ، لقد دنا الوقت. قال البحّار : حبذا ذاك فإني أنتظر هنا منذ ثلاث ليال . قال : تعال معي .

وخرج الاثنان من الخمارة فقال ساندريجو للبحار : يجب أن تجتاز بي البحيرات بأقرب حين .

— كيف ذلك ؟ ألعلهم يطاردونك ؟

— كلا ، بل إني أصبحت قريباً من أرباب الثروة وستنال حظك منها .

فظهرت علائم السرور على وجه النوتي ، وبعد ربع ساعة كان القارب يجتاز البحيرات بملء السرعة .

*

عندما كانت الجنود تزحف من حديقة منزل الجزيرة إلى المنزل للقبض على رولاند كان ساندريجو واقفاً بجانب دندولو وألتياري وخنجره بيده فلو ظهر له رولاند في تلك الساعة لَطَعَنَهُ به لا محالة .

فلما وصل الجنود إلى باب المنزل وفتح ذلك الباب فظهرت منه ليونور دون رولاند ، دهش اللص دهشاً عظيماً وأيقن حين رأى اضطراب دندولو وألتياري أنه ستجري أمور غير عادية، فتراجع مسرعاً واختبأ تحت شجرة بجانب الباب وجعل يصغي، فسمع ليونور تأمر الجنود بالانصراف بملء العظمة ورأى أن رئيس ديوان التفتيش أصدر أمره إلى رئيس البوليس بالامتثال ، فكاد يجن من حقده وأيقن أن رولاند قد نجا .

ولكن ساندريجو لم ينصرف مع الجنود بل تقدم من النافذة التي كانت مفتوحة وسمع كل ما دار من الحديث بين ليونور وبين

أبيها وزوجها . وكان يعتقد من قبل أن رولاند قد هرب ، ولكنه حين سمع كلام ليونور أيقن أنه لا يزال في المنزل وعزم على الكمون له إلى أن يخرج فينقضّ عليه ويقتله .

على أنه انثنى عن هذا العزم حين رأى ليونور تفضح سرّ زوجها وحين علم أن ألتياري يأتمر على الدوج فقال في نفسه :

إن حياة رولاند تفيدني الآن أكثر مما يفيدني موته ، وسأقتله بعد أن أبلغ مرامي من ألتياري وأنال ثروتي. وقد رأيناه كيف أنه توعّد رولاند حين خروجه من الحديقة دون أن يحاول قتله وذلك لأنه أراد أن يجعله باباً لمخابراته مع ألتياري .

*

هذا ما كان منه في تلك الحديقة ، وقد ركب السفينة مع النوتي كما تقدم فاجتازت به البحيرات مسرعة حتى بلغ الشاطىء عند طلوع الفجر فسار توّاً في طريق قرية ميستر ، أي إلى ذلك المنزل المعتزل الذي لقي فيه جوانا .

وبعد هنيهة عرف أن ضيوف المنزل لا يزالون فيه. فلما وثق من ذلك عاد إلى أحد الفنادق فاستأجر فيه جواداً وأوهم صاحب الفندق أنه سائر في طريق تريفيز حتى إذا توارى عن الأنظار ربط الجواد إلى شجرة وعاد إلى القرية فكمن على مسافة قريبة من منزل جوانا. وقد صبر إلى أن هجم الظلام فمشى إلى ذلك المنزل.

وكان والد رولاند قد نام وكذلك بيانكا ، فلم يبقَ ساهراً غير جوانا فكانت جالسة مطرقة تفكر ولعلّها كانت تفكر في

غرامها الزائل . ولا نريد بغرامها ذلك الغرام السافل الذي اضطرت إليه مكرهة لإنقاذ أمّ رولاند من الجوع ، بل غرامها الصادق ، فإن قلبها قد يكون سرت إليه أشعة هذا الحب كما سنرى .

ولبثت مدة طويلة وهي مطرقة مفكرة إلى أن عزمت على الرقاد وسارت إلى غرفتها فسمعت عند ذلك طرقاً على الباب .

فوقفت تصغي دون أن تخاف فإنها تعوّدت الأخطار فلم تعد تكترث لها ، ويا طالما كبس الجنود بيتها للبحث عن سكالا برينو ورجاله كساندريجو وسواه .

ولكن رولاند كان قد أوصاها أن تبالغ بالحرص وأن لا تفتح الباب لأحد إلا بإشارة خاصة لم يعرفها غير رولاند وسكالا برينو . فلما سمعت ذلك الطرق أسرعت إلى إطفاء المصباح ولبثت في موقفها وهي عازمة على أن لا تفتح فإن الطرق كان على الباب الداخلي فلا بدّ أن يكون هذا الطارق قد تسلّق سور الحديقة وهو دون شك غير رولاند وسكالا برينو لأنه لم يطرق الباب بالشكل السري المصطلح عليه بينهم .

وبينما هي تسمع الطرق سمعت أيضاً ذلك الطارق يناديها باسمها بصوت منخفض .

فارتعشت حين سمعت هذا الصوت واصفرّ وجهها. ربّاه... هذا هو !

وردد الصوت نداءه قائلاً :

— جوانا ... إني عالم بأنك في المنزل ، وإنهم يطاردونني

الآن أترضين أن يقبضوا عليّ ؟

فأضاءت عند ذلك المصباح بيدين تضطربان وذهبت إلى الغرفة التي ينام فيها والد رولاند وبيانكا فأقفلت بابها ووضعت المفتاح في جيبها . وعادت إلى الباب فسمعت الطارق يقول : إفتحي يا جوانا إذا لم يكن لعاطفة أخرى فمن قبيل الإشفاق ، وأسرعي إلى تخبئتي عندك قبل أن يدركني المطاردون ويفوت الأوان .

فأسرعت جوانا عند ذلك إلى الباب ففتحته وقالت : أهذا أنت يا ساندريجو ؟ قال : نعم أنا هـذا ، ألم تعرفيني من صوتي ؟ ثم دخل وقال : لقد كنت أحسب أنك ستدعينني على الباب .

فذعرت جوانا لما رأته منه ، فإنه حين دخل جعل ينظر نظرة الباحث وهو مطمئن فقالت له : لقد كذبت فيما ادّعيت ، فإنهم لا يطاردونك ! فضحك وقال : لقد أصبت يا جوانا .

— إذن أخرج من هنا ... إذهب في الحال .

— سأذهب كما تريدين فاطمئني .

— ماذا تريد ؟

— سوف تعلمين ماذا أريد ، ولكن لِمَ هـذا الجفاء ، فإني لم أكن أخيفك من قبل ؟

فتنهدت جوانا تنهّد ارتياح كأنها اطمأنت بعض الاطمئنان ، فدنا ساندريجو عند ذلك منها وقال لها : ألعلّك نسيت يا جوانا أني أحببتك من قبل وأنك أحببتني أيضاً وأنك لا تزالين تحبينني . نعم إنك لا تزالين تحبينني فانقضي قولي إذا كنت تجسرين . وإذا

كنت تحبيني فكيف تستقبليني بهذا الجفاء ؟

فملكت جوانا روعها تباعاً واحمرّ وجهها لكلمات ساندريجو الأخيرة فقالت له : نعم إني أحببتك من قبل وكنت أرجو أن أكون امرأتك وأن أكون معك من أسعد النساء .

— أرأيتِ إذن ؟

— نعم ، ولكن ذلك لم يكن غير حلم يا ساندريجو وقد حدثت حادثة قضت بفراقنا إلى الأبد .

— وما هذه الحادثة ؟ ألعلّك أحببت سواي ؟

— كلا يا ساندريجو ، فإن المرء لا يهب قلبه مرتين . وإني مستعدة للموت في سبيلك الآن كما كنت من قبل .

وعند ذلك سالت دمعتان من عينيها وقالت له: إني أصبحت غير جديرة بك ، فاذهب يا ساندريجو ولا تفتكر بي بعد الآن .

— ما هذه الأقوال التي أسمعها منك ، فقد كنت أعرف من قبل أنك غريبة الأخلاق وكنت تبالغين في كتمان حبك عني فلم أعلمه إلا من عينيك ، ولكني أرى منك الآن غير ما كنت أراه من قبل ، وقد عدت إليك كي أتزوج بك فما هذا الانقلاب ؟

فعضت جوانا يدهـا من اليأس وقالت : ذلك مستحيل ، فاسكت واذهب فإنك تقطع قلبي .

فجلس ساندريجو باطمئنان وقال لها : إذا كنت لا تريدين أن نبحث في الغرام فلنبحث في سواه . فقولي الآن كيف اتفق وجودك هنا بعد أن بحثت عنك ملياً في فينيسيا ، وقد عهدتك

فقيرة فكيف تقيمين في هذا المنزل الذي تدل رياشه على البسطة والثروة ؟

فسكتت جوانا وبدا عليها الاضطراب فقال لها: لقد فهمت الآن معنى قولك إنك غير جديرة بي ، فإنك هنا مع عشيق .

فارتعشت جوانا وحاولت أن تحتج عليه وتقول له : كلا يا ساندريجو ليس لي عشيق ولا أحب سواك ! ولكنها لم تستطع أن تقول فان ما رأته من ابتسام ساندريجو ذكرها بذلك الشيخ وتلك الفتـــاة التي ائتمنها عليها رولاند وأيقنت أنها في خطر فقال لها ساندريجو بعد سكوتها: أجسري على إنكار ما أقول.

فأجابته عند ذلك بلهجة القانطين قائلة : نعم لي عشيق وإني أقيم في منزله وهو غائب الآن ولكنـه سيعود قريباً والويل لي ولك إذا رآنا معاً .

*

في ليلة من ليالي الشتاء وفي المنزل الحقير الذي كانت تقيم فيه جوانا مع سكالا برينو في فينيسيا ، كانت جوانا تهيء الطعـــام لسكالا برينو بينما كان سكالا برينو يمسح غدارته وينظف أسلحته. وقد قرع الباب عند ذلك بشكل اصطلاحي فقـال سكالا برينو إنه صديق من الرفاق .

ثم فتح الباب فظهر منه رجل فأدخله سكالا برينو وقال له : ماذا حـدث يا ساندريجو ؟ قال : لم يحدث شيء سوى أنهم طاردوني فأفلتّ منهم وأتيت إلى هنا لألتجيء .

كان عمر جوانا في ذلك العهد ستة عشر عاماً وقد جرت هذه الحادثة التي نقصّها الآن قبل الحوادث التي بدأنا قصّها بعام أي قبل عام من تاريخ القبض على رولاند .

ويذكر القراء أن سكالا برينو كان زعيم ساندريجو وأن هذا اللص كان يحقد على زعيمه حقداً هائلاً بسبب تلك الحادثة التي جرت لها مع أمباريا في المغاور خلافاً لسكالا برينو فإنه لم يكن حاقداً عليه بل كان يميل إليه ويفضله على الرفـــاق ولذلك قال لجوانا حين دخوله : أكثري الطعام يا جوانا فإنه يأكل معنا .

وقال لساندريجو : أدخل أيها الأخ !

وبعد أن أكل وشرب معها التفّ بردائه ونام وقد أنهكه التعب . ونام سكالا برينو أيضاً فذهبت جوانا إلى الغرفة التي كانت تنام فيها بعد أن نظرت نظرة أخـيرة إلى ساندريجو فكانت هذه المرة الأولى التي تسارقت فيها بالرقاد .

وقد أقام ساندريجو معها ثمانية أيام فكان يقضي الليـــل بالمقامرة وقصّ أخبار حملاته فكانت جوانا تسمع أخباره وهي تعجب ببسالته وإقدامه. وقبل سفره بيوم اتفق أن سكالا برينو كان خارج المنزل فأقام ساندريجو معها وجعل يقص عليها غرائب أخباره حسب عادته .

وفيما هو يتكلم قطع على نفسه الحديث وقال لهـــا فجأة : أتعلمين يا جوانا أنك بارعة الجمال ؟

فأطرقت جوانا برأسها إلى الأرض استحياءً واحمرّ وجهها ثم اصفرّ حين أخذ ساندريجو يدهـــا بين يديه وقال لها وهو

يبتسم : أتريدين أن تكوني امرأتي ؟ إني أذهب بك إلى الجبال هناك حيث تتنشقين أريج الأزهار وتناجين الأطيار وتعيشين أرخى عيش .

فنظرت إليه عند ذلك وقد وضعت يدها على صدرها كأنها خشيت شدة خفوق قلبها لفرحها وقالت : نعم إني أريد أن أكون امرأتك لأني لا أجد لك نظيراً بين الرجال ، فاذهب وعُدْ بكاهن يزوّجنا أتبعك إلى حيث تريد . فحاول ساندريجو أن يضم الفتاة إلى صدره فهربت منه وأسرعت إلى غرفتها فدخلت إليها وأقفلتها .

وفي اليوم الثاني سافر ساندريجو وقد أثرت عليه جوانا تأثيراً عظيماً بدليل أنه كان يتردد إلى المنزل كلما عاد من سفر ، بحيث زاد تعلقه بها وزادت به افتتاناً وهي محافظة على نفسها أشد المحافظة .

إلى أن حدثت الحوادث التي ذكرناها فاختفى ساندريجو بعد أن قبض على سكالا برينو وربما انتهى به الأمر إلى سلوانها .

غير أن جوانا لم تنسه رغم تقادم الأيام، وكانت دائماً تناجي نفسها فتقول : إنه يحبني ولا بدّ أن يعود يوماً فيتزوج بي .

هذه هي حكاية تلك الفتاة المنكودة فليتصوّر القارىء كم لقيت من اليأس حين اضطرت مكرهة إلى الاتجار بجمالها لإنقاذ أم رولاند من الموت جوعاً وكم كانت تضحيتها عظيمة وهي حافظة نفسها لمن تعتقد أنه خطيبها .

فلما لقيته بعد أعوام طويلة اضطرّت أن تقول له : نعم ،

لي عشيق وإني مقيمة في منزله !

*

أما ساندريجو فإنه لما سمعها تقول هذا القول وقف وظهرت بين عينيه علائم الوعيد فقال : أنت تكذبين يا جوانا فليس لك عشيق ، وأنت مقيمة هنا مع دوج فينيسيا السابق ومع ابنة الحظية أمباريا .

فصاحت جوانا صيحة الرعب ونظرت إلى ما حواليها كأنها تبحث عن سلاح تقتل به هذا الرجل الذي طالما أحبته . ولكن ساندريجو أدرك قصدها فهز كتفه وقال لها بصوت أجش : أصغي إلي يا جوانا ، إنه يوجد رجلان أهاناني إهانة لا أغتفرها لهما ، وسيكون انتقامي منهما دون إشفاق . وأنت تعرفين هذين الرجلين فلا حاجة إلى ذكر اسميهما .

والآن ، فإني محتاج إلى أخذ الفتاة بيانكا التي عهد إليك بحراستها وأنا لا أريد لها سوءاً ولكني أريد أن أرجعها إلى أمها لأن ذلك يوافق مشروعاتي ، فهل أنت معي على أعدائي ؟ إذا كان ذلك فتعالي معي فإننا نذهب إلى كاهن يزوجنا وتصبحين امرأتي إلى الأبد .

ولقد قلت لي أنك غير جديرة بي ، ولكني أفهم ما تقولين ولا أفهم إلا أني أحبك وأنك تحبينني، فتعالي معي إلى فينيسيا حيث تقولين كل ما جرى هنا ثم نذهب إلى كاهن يعقد لنا عقد الزواج ، فماذا تقولين ؟

قالت : أقول إن بيانكا لا تخرج من هنا ما زلت في قيد الحياة .

وقد قالت هذا القول بلهجة دلت على عزيمة راسخة رسوخ الجبال . فقال لها اللص : إذن أنت عليّ مع أعدائي ؟

— نعم !

— وتقولين إنك تحبينني ؟

— نعم !

— إذن لتلقى التبعة عليك فأنت أردت ذلك وأنت المسيئة إلى نفسك .

وعند ذلك انقضّ عليها انقضاض البازي على الحمامة فألقاها إلى الأرض وأوثق يديها ووضع كامة في فمها ثم جرد خنجره وحاول أن يقتلها ولكن الإشفاق منعه عن هذا القتل الذريع فأرجع يده وهو يقول في نفسه : أية فائدة لي من قتلها، بل يسرني أن تخبرهما بما قلت كي يعلما أني عدوّ شديد ؟

وكان قد عثر وهو يقودها بمفتاح الغرفة في جيبها فأخرجه منها وفتح به الغرفة المؤدية إلى غرفة بيانكا . وكان والد رولاند نائماً في تلك الغرفة فوقف حين رآه موقف المتردد في قتله ثم قال في نفسه : أية فائدة من قتله فهو أعمى مجنون فليمت ببطء .

وعند ذلك دنا منه وجعل ينظر إليه ويبتسم ابتسام المتهكم ويقول : إنه لا يستحق عناء القتل وصبغ خنجري بدمائه .

وقد أيقظ الضجيج ونور المصباح ذلك الشيخ ففتح عينيه ونظر بهما إلى جهة الضجيج وهما لا تريان فظهر منهما بيان غريب

على انطفاء نورهما حتى أن ذلك اللص الجسور ارتعد خوفاً وخيل له أن هاتين العينين المظلمتين قد اتقدتا ببارق من الوعيد .

وقد تراجع مذعراً وأقفل الباب ثم هز كتفيه وقال: تباً لي أأخاف من مجنون أعمى ؟

وعند ذلك مشى إلى غرفة أخرى ففتح بابها وأطل منه فقال وقد أبرقت عيناه ببارق من السرور : إنها هنا !

وكانت بيانكا، نائمة في سريرها نوماً هادئاً كصغار الأطفال وهي تبتسم ومعصمها الجميل خارج اللحاف وصدرها يرتفع ويهبط بأنفاسها بانتظام يدل على نومها الهادىء . فوقف اللص يتمعن بوجهها الجميل وقد سال العرق على خديها المورّدين فكان يشبه ندى الفجر فوق الورد .

فلم تستيقظ ، ولم يندفع اللص بسليقته الوحشية بل تغلبت حكمته على أمياله فوضع مصباحه على المائدة ودنا منها فلمس كتفها برفق . وعند ذلك صحت الفتاة ولم تكد ترى ذلك الرجل حتى ذعرت ذعراً لا يوصف وصاحت تستغيث وتنادي جوانا .

غير أن جوانا لم تستطع أن تجيبها بغير الأنين فإنها كانت مكمومة الفم . فعضت بيانكا معصمها وبلغ الذعر منها أشد مبلغ بحيث أن صوتها احتبس في فمها فلم تعد تستطيع الإستغاثة .

وأما ساندريجو فإنه ملك نفسه وتكلف هيئة تدل على الرفق والدعة فقال لها بلهجة حنوّ : إطمئني يا سيدتي ولا تجزعي فلا أريد لك سوءاً وأصغي إليّ دون رعب كي لا تفوتك كلمة من كلماتي فإن الوقت غير متسع لدينا وإني أقسم لك بالله العظيم أني

لا أريد لك إلا الخير ، وفوق ذلك فلا فائدة من مناداة جوانا إذ ليست هنا ، أتريدين الآن أن تصغي إليّ ؟

فأشارت برأسها إشارة إيجاب فاطمأنّ اللص وقال لها :
إذن فاعلمي أني آت إليك من قِبَل أمك .

— أمي ؟

— نعم ، أمك السنيورا أمباريا ، وهي التي أرسلتني . وإذا أردت برهاناً على صدق ما أقول أخبرتك بجميع ما اتّفق لك فإنهم اختطفوك من منزل أمك بالرغم عنها وبالرغم عنك ، وإن أمك الآن في حالة شديدة من اليأس وقد لقيتني وعهدت إليّ أن أردّك إليها . أتصدقينني ؟

فظهر لبيانكا أن هذا الكلام طبيعي معقول فقالت له: أتمّ حديثك . فقال ساندريجو في نفسه : لقد فزت عليها . ثم قال لها : إن أمك السنيورا أمباريا توسلت إليّ أن أبحث عنك فرضيت بذلك وتعهدت أن أردّك إليها وقد توفّقت إلى لقائك في هذا المنزل لأخلصك من مخالب مضطهديك .

لا تعترضي فلا فائدة من الاعتراض . والآن اسمعي ما أقوله لك : إني سأخرج من هذه الغرفة المجاورة ربع ساعة كي تلبسي ثيابك وتتأهبي للذهاب معي . فقالت : أتبعك ؟ كلا ! وماذا يثبت لي أنك قادم من قِبَل أمي ؟ قال : أرجو أن تتبعيني طائعة برضاك فقد أتيت يقيناً من قبل أمك السنيورا أمباريا حتى أنها أمرتني أن أستعمل العنف إذا خطر لك أن تنسي تلك الأمّ التي لا تعرف منذ فراقك غير البكاء .

فتمتمت الفتاة قائلة : رباه ، ماذا أعمل ؟

فأتم اللص حيلته فقال: ولذلك أرجو أن أجدك متأهبة بعد ربع ساعة للرحيل معي بملء الرضى ، وأقسم لك أنك غداً تكونين آمنة في قصر السنيورا أمباريا . ومهما يكن من الأمر ، وسواء صحت عزيمتك على الرحيل أو على البقاء ، فإني سأدخل إليك بعد ربع ساعة فإذا لم تصممي على الرحيل اضطررت إلى تقييدك وحملك بالعنف إلى أمك وسواء عندي في تلك الحالة إذا كنت لابسة ثيابك أو كنت كما أنت الآن .

وقد قال هذا القول ونظر مسرعاً نظرة الفاحص إلى هذه الغرفة فوجد أن نوافذها مشبكة بالحديد وأنه لا خوف من فرارها ، فانحنى عند ذلك أمامها وانصرف .

أما بيانكا فقد بلغ منها الخوف من هذا الرجل أشدّ مبلغ لا سيما حين قال لها إنه لا فرق عنده بين أن يجدها لابسة او عريانة ، فلم تجد بداً من لبس ملابسها بسرعة . ولكنها كانت موقنة أيضاً أن هذا الرجل يقول الحقيقة فإن جميع أقواله تنطبق على حوادث اختطافها فلم يبقَ لديها شك أن أمها يئست لفراقها وأنها عهدت إليه أن يعيدها كيفما اتفق .

ثم ظهر لها أن المقاومة أمر مستحيل وهي تعلم من نفسها أنها باسلة تستطيع الدفاع عن نفسها إذا ظهر لها سوء قصد هذا الرجل وعلمت أنه من الكاذبين . ولذلك أخذت خنجراً فخبأته بين ثيابها . ولما عاد ساندريجو بعد ربع ساعة وجدها قد أتمت لباسها فقال لها : هل أنت متأهبة يا سيدتي للرحيل معي ؟

فعاودها الرعب عند ذلك حين رأت هذا الرجل واقفاً معها في غرفة رقادها فصاحت صياح يأس تستغيث بجوانا . فقال لها اللص : لقد قلت لك يا سيدتي إن جوانا ليست هنا فأسرعي إلى إجابتي الآن وقولي هل أنت مستعدّة للذهاب معي أم تؤثرين أن أستعمل العنف وهو ما أعمله بملء الأسف ولكنني لا أتردّد ؟

وكان يقول لها ذلك بسكينة وأدب ، فأطرقت الفتاة هنيهة ثم التفتت إليه وقالت : هلمّ بنا يا سيدي فإني أتبعك . فتنهد اللص تنهد ارتياح وقال :

– هلمي بنا يا سيدتي وشهد الله أني ما كنت أتوقع أن أجد مثل هذا العناء بإقناع فتاة على الذهاب إلى أمها القانطة لفراقها.

– قالت : سر أسر معك .

فأخذ عند ذلك بيدها وخرج بها من ذلك المنزل فسار بها مسرعاً إلى حيث ربط جواده فلم تكن ساعة حتى وصل بها إلى شاطىء البحيرات ، وهناك لقي ذلك البحار الذي أوصله وأقام ينتظره في السفينة. فقال له النوتي: لقد قتلتني صبراً وهذه آخر مرة أنتظرك في مثل هذه المواقف ! فلم يجبه ساندريجو والتفت إلى بيانكا كي يحملها إلى القارب فوجدها مغمياً عليها . فقال في نفسه : حسناً ، فإن إغماءها يغنيني عن المناقشات .

وعند ذلك حملها بين ذراعيه ليأخذها إلى القارب فلما التقى الجسمان وشعر أنه يضم هذه الفتاة إلى صدره وأن شعرها الجميل مسدول على كتفيه تكهرب جسمه وشعر بأن قلبه يكاد يثب من صدره وأن رجليه قد وهنتا .

وقد رأى البحار ما كان من اضطراب ساندريجو فقال له : لقد فهمت الآن . فانتهره ساندريجو قائلاً : أسكت أيها الأبله !

وقد نفى قول البحار تلك الوساوس من صدره فوضع الفتاة في القارب وغطاها بوشاحه. فقال له البحار: ماذا تصنع بالجواد؟ قال : إني أهبك إياه فيكون أجرة رحلتك . قال: لا شك أنك من كبار ذوي المكارم ، فأمهلني ريثما أرسل هذا الجواد إلى محل أمين .

وعند ذلك وثب إلى البر فسار بالجواد بضع خطوات فالتقى بغلام يعرفه فقال له : إذهب بالجواد إلى ميستر فضعه عند صديقي صاحب الخمارة التي تعرفها وقل له إنه لي .

ثم تركه وعاد إلى القارب فجعل يجتاز به البحيرات . أما بيانكا فلم يعد إليها رشدها إلا حين بلغ القارب الرصيف أمام تلك الخمارة التي لقي فيها ساندريجو ذلك البحّار . فنزل إلى البر وأنزل الفتاة فجعل يسير وهي تتبعه مشتتة البال واهية العزيمة .

وما زال يسير حتى بلغ إلى منزل فصعد بها سلمه وأدخلها إلى غرفة ثم خرج من تلك الغرفة فسمعت الفتاة صرير مفتاح بابها مرتين .

ثم خرج ساندريجو دون أن يقول لها كلمة أو يوضح أسباب سجنها في هذه الغرفة ، فهلع قلبها من الخوف وسقطت على كرسي وهي تشهق بالبكاء .

وكانت الشمس قد أشرقت في تلك الساعة وملأت أشعتها الفضاء فانطلق ساندريجو مسرعاً إلى قصر المحظية أمباريا، وبعد

مخابرات طويلة مع الخدم تمكن من الوصول إليها فقال لها فجأة: إن ابنتك يا سيدتي قد اختطفت من عهد قريب أليس كذلك ؟
فارتعشت أمباريا بعاطفة رجاء وقالت له : كيف عرفت ذلك ؟
فابتسم ساندريجو وقال : يكفي يا سيدتي أن أكون عرفت ! إذن إن ابنتك اختطفها رجل شديد الحقد عليك لا يريد لك غير السوء .

فبرقت عينا الحظية ببارق من الحقد وقالت: ولكني سأقتل هذا الرجل شرّ قتل ! فقطب ساندريجو حاجبيه وقال :

— ذلك إذا لم أكن السابق إلى قتله. ولكننا سنبحث في شأنه فيما بعد يا سيدتي. وأما الآن فقد أتيت لأقول لك بأني أستطيع أن أرد ابنتك إليك .

— أنت ؟

— نعم يا سيدتي !

— أين هي ؟ تكلم .

— سأقول لك أين هي حين يتم اتفاقنا على بعض أمور .

— ما هي هذه الأمور التي تريد أن نتفق عليها ؟ قل وأسرع فإني أوافقك على كل ما تريد ... ولكنك رأيت ابنتي دون شك ، فإذا كان بين جنبيك قلب رجل فقل لي في الحال أين هي وأي خطر يتهددها .

— اطمئني يا سيدتي فإن ابنتك على أحسن حال ولا يتهددها شيء من الأخطار ، فإذا شئت كانت عندك بعد ساعة .

— بعد ساعة ؟ تقول بعد ساعة ؟

— نعم يا سيدتي ويكفي لذلك أن نتفق .

فجعلت أمباريا ترتعد وقد تنازعتها في حين واحد عوامل الفرح والخوف واليأس والرجاء فقالت له بصوت يتلعثم : ألا ترى يا سيدي أني أموت جزعاً فأخبرني على الأقل أين وجدت ابنتي وكيف لقيتها ؟

— ذلك بسيط يا سيدتي ، فإن الإتفاق دفعني إلى أبواب منزل في ضواحي فينيسيا .. وهناك امرأة كنت أعرفها من قبل فاضطررت إلى الإقامة ساعة عندها وعرفت بعد البحث أن هذه المرأة عهد إليها حراسة بنتك . وقد عرفت من تلك المرأة اسم بنتك واسم الذي اختطفها ، فخرجت من المنزل وصبرت إلى أن هجم الليل فدخلت إلى ابنتك وسألتها إذا كانت تريد أن تتبعني لأردها إليك فوافقتني وأتيت بها إلى محل أمين .

— هنا في فينيسيا ؟

— لم أقل يا سيدتي إني أتيت بها إلى هنا بل إلى محل أمين ، ولكنه غير بعيد ! فوقفت أمباريا وقالت : إذن سر بي إليها .

— ألعلك نسيت يا سيدتي أن لديّ بعض شروط أقترحها عليك .

— قل كم تريد ... أسرع .

— إني لا أريد مالاً يا سيدتي .

— إذن ماذا تريد ؟

فوقف ساندريجو وقال : أنظري يا سيدتي ، فقد امتهنت إلى اليوم مهنة اللصوصية وأنا أدعى ساندريجو والناس يخافونني

من هنا إلى مسافة عشرين مرحلة، فإذا شئت ألفت عصابة تلقي الرعب في قلوب أهل هذه البلدة . ولكنني غيرت مناهجي الآن إذ خدمت الحكومة خدمــة جليلة أرجو بعدها أن تكافئني بتعييني من قادة الجيش ورجائي أن أصبح قائداً عاماً حين سنوح فرصة أو حــين نشوب حرب ، فإني شديد ضليع في فنون الحروب ، فإن اللصوص يا سيدتي لا شغل لهم غــير الهجوم والدفاع . وعلى الجملة فإني أرجو أن يكون لي في هــذه العاصمة خير مستقبل ينطبق على مطامعي ، فهل تجدين زوجاً خيراً مني للآنسة بيانكا ؟

فذعرت أمباريا وقالت بلهجة احتقار : أنت تكون زوجاً لبيانكا ؟

فلم يظهر اللص استياء من لهجتها وقال لها : إني أحب ابنتك وأشعر أن هذا الحب قد تملك قلبي وأنه ثابت مكين . وسأقدم لك برهاناً على ذلك وهو أن ابنتك بقيت عندي مدة طويلة دون أن يكون لها نصير .

– ماذا تعني بهذا البرهان ؟

– أعني به أنها خرجت نقية طاهرة من بين يدي ساندريجو ولم يتفق لي ذلك مع عذراء من قبل . فالمعنى يا سيدتي أني أقترح عليك السلام والتحالف . وإنمــا أقول التحالف إذ لديك عدو هائل لا بدّ لك من مصارعته .

– أي عدوّ تعني ؟

– رولاند كانديانو !

– إنهم سيقبضون عليه قبل يومين .

– بل إنك لا تعرفين هذا الرجل حق العرفان ، فإنه جدير أن يقاوم جيش فينيسيا بأسره، فقد أرسلوا مائتي جندي للقبض عليه في منزل طوّقوه وهو لا يزال حراً . فاعلمي إذن أنــك في أشد حاجة إلى محالفتي وسأمهلك إلى الغد فإمــا أكون صهرك وحليفك وإما أكون عدوّك فاختاري .

وعند ذاك نهض وانصرف مسرعاً فأرادت أمباريا أن تستوقفه ولكنه ابتعد دون أن يلتفت إليهــا فانطرحت على كرسيها مذهولة وهي تقول : أتكون ابنتي زوجة اللص ساندريجو ؟ وبعد ، فأي عجب من ذلك ، أليست بيانكا ابنة محظية؟ ومن يكون زوجة إبنة المحظية إذا لم يكن من اللصوص؟

ثم ضحكت ضحكاً عصبياً وقالت : لقد رأى ذات يوم ابن تاجر شهير ابنتي فهام بهــا ، وأعجبني ذكاء الفتى ومروءته ، فرضيت بــه زوجاً لابنتي . وهمّ بعقد الخطبة حتى إذا عرف من أنا هجرها دون اكتراث . وكذلك كل من كان يراها فإنــه كان ينظر إليها ويعجب بجمالها ولكن دون احترام . فــإن الحية في اعتقادهم لا تــلد إلا الحية ، وابنة المحظية لا تخرج إلا محظية ! نعم ، هذا هو معتقد الناس بي وبهــذا الملاك الذي لم يشفق عليه غير رولاند ! نعم، لقد رأيته حين كان ينظر إليها تلك النظرات الحنونة وهو وحــده الذي كان يحترم طهارتها دون سواه ... ولكني أكره هذا الرجل وإنما أكرهه لأنه اختطف بنتي وأراد أن يفرق بيني وبينها إلى الأبد .

ثم سكتت هنيهة وعادت إلى مناجاة نفسها فقالت : أتراني أبغضه لهذا السبب وحده؟ كلا فإني أحببت هذا الرجل فاحتقر حبي واحتقرني ! أواه ! إني لا أنسى تلك الليلة التي بحت له فيها بغرامي فرفع يــده عليّ يريد أن يسحقني ! إني لا أنسى تلك الدقيقة الهائلة وما أصبت به من الخجل ، ما حييت .

نعم أيتها الأم الشقية الفاسدة الأخلاق ، إنك لا تكرهين هذا الرجل الذي يستطيع دون سواه إنقاذ بنتك إلا لأنك لا تزالين تحبينه ! نعم إنك لا تزالين تعبدينه ، وإنك لم تعودي إلى فينيسيا إلا من أجله ! والآن فإن تلك النار التي كانت مخبوءة تحت الرماد في صدرك قد عادت إلى الأجيج، وهذه العاطفة التي تحسبينها كرهاً ما هي إلا عاطفة حب !

وعند ذلك سارت إلى تلك الغرفة السرية التي أخذت إليها من قبل عشيقها دافيليا وهي تشهق بالبكاء . وكانت هذه الصورة ذات الإطار الذهبي، صورة رولاند المعلقة فوق الهيكل، لا تزال في موضعها . فارتعشت حين رأت هذه الصورة وذكرت قتلها دافيليا وركعت كما ركعت في ذلك اليوم تحتها فبسطت يديها إلى ذلك الرسم وجعلت تذرف الدموع وقد نسيت في ذلك الموقف بنتها وساندريجو وعبو بل نسيت الوجود .

ذلك أن الحب قد انتصر على الكره وعادت إلى هيامها برولاند .

الأب

*

تقدّم لنا القول فيما تقدم أن رولاند أرسل سكالا برينو إلى الزعماء برسائل يلقي فيها أوامره إليهم .

وكانت مراكز تلك العصابات متفرقة في مساحة ثلاثين مرحلة ، فأقام سكالا برينو يومين وهو يسير على جواده من مكان إلى مكان دون أن يشعر بتعب لفرحه بقرب لقاء بنته .

فلما فرغ من مهمته سار توّاً إلى قرية ميستر فوصل إليها في الساعة العاشرة من المساء ، فترجل عن جواده ودخل مسرعاً إلى البيت حيث كانت الظلمة والسكينة سائدتين. وهناك وقف وهو يضطرب اضطراباً لطيفاً ويقول في نفسه : إني لا أستطيع الآن أن أقول لها إني أبوها ، ولكنني سأتمتع برؤيتها ستة أيام .

غير أنها لا بدّ أن تكون نائمة الآن وأنا أذوب شوقاً إلى رؤيتها فبأية حجة تتذرع جوانا إلى إيقاظها ؟

وتمعّن طويلاً فلم يجد حلاً لهذه المشكلة فقال في نفسه: لا بدّ لي من الانتظار إلى الصباح . ولكن لأدخل فإني سأقف على الأقلّ على أخبارها من جوانا. وعند ذلك فتح باب الحديقة بمفتاح

كان أعطاه إياه رولاند ودخل فقرع باب المنزل بشكل اصطلاحي ففتح في الحال وظهرت منه جوانا وهي صفراء الوجه فقالت له بصوت منخفض مضطرب: أهذا أنت؟ أأتيت أخيراً؟

فارتعش سكالا برينو لهيئتها ولاضطرابها وقال لها: لقد حدث مصاب دون شك؟ فأشارت برأسها إشارة إيجاب وجلس دون أن يجسر على سؤالها.

أما جوانا فإنها اضطربت اضطراباً خفيفاً وقالت له: لقد اختطفوا بيانكا.

فوقف سكالا برينو كأن لولباً قد أوقفه ثم هوى إلى الأرض مغمياً عليه. فأسرعت جوانا إلى معالجته حتى استفاق فكان أول ما قاله: بيانكا... بيانكا... هل اختطفوها؟

قالت: نعم، وهو مصاب أليم ولكني أرى أن هذه الحادثة قد أثرت عليك تأثيراً غريباً. قال: كيف لا تؤثر علي وهي بنتي ؟!

— بنتك ؟

— نعم، ولذلك حكاية ستعلمينها فيما بعد. أما الآن فأخبريني كيف كان هذا الاختطاف؟ بل قولي لي قبل ذلك أتعرفين الرجل الذي اختطفها ؟

فاصفرّ وجه جوانا لأنها إذا ذكرت اسم ساندريجو تكون قد عرضته لخنجر سكالا برينو وقد رأت ما كان من حزنه فقالت في نفسها: إذا استحال هذا الحزن إلى غضب كان هائلاً !

ولكنها كانت مثال الإخلاص فوازنت بين حبها وإخلاصها

وأطرقت مفكرة. فقال لها سكالا برينو: ما هذا السكوت؟ ألم تعرفيه ؟

فتغلّب الإخلاص في قلبها على الحب وقالت: نعم عرفته.

— ما اسمه ؟

— ساندريجو !

فضم سكالا برينو قبضتيه وتهدّد بهما السماء إذ لم يجد من يتهدده وقال: حسناً، فسأسدد ما بيننا من الحساب القديم. وبعد أن هاج هياج الأسود سكن فجأة فمسح عرق جبينه وقال: ألم يختطف سواها ؟

— كلا، فإن الشيخ لا يزال هنا !

— متى حدثت هذه الحادثة ؟

— منذ يومين، في الليل.

— كيف تمكن من اغتصاب الأبواب وهي متينة ؟

— إنه لم يغتصبها بل أنا التي فتحت له الباب. واسمع كيف اتفق ذلك: فإنه قرع الباب وجعل يناديني فعرفت صوته وسألته عما يريد فقال لي إنهم يطاردونه فإذا لم أفتح له قبضوا عليه، فخفت وأشفقت ولم يعد في بالي إلا أنهم سيظفرون به وأني قادرة على إنقاذه.

فتفرّس سكالا برينو بها ثم قال: جوانا... أيتها الأخت العزيزة، لقد نسيت أنك كنت تحبينه! أسكتي، لا تعترضي عليّ فقد علمت أموراً كثيرة لم أكن أعلمها قبل أن صيّرني الرئيس رجلاً... إنك لا تزالين تحبين ساندريجو وهو شقاء عظيم لأنك لا

تعلمين مبلغ حقد هـذا الرجل . ولو كان حقده قاصراً عليّ لمَا
باليت بـه ، ولكنه حاقد على مولاي رولاند . وهو لم يختطف
بيانكا إلا للانتقام منه وقـد بات العداء شديداً بيننا الآن لا
ينتهي إلا بالموت .

فسالت مدامع جواناوقالت له : لا تحسب أني مخطئة فيما
حدث فقد دافعت ما استطعت الدفاع حتى أنه صرعني وقيّدني
ووضع كامة في فمي . ولولا ذلك لمَا استطاع اختطافها وأنا في
قيد الحياة .

— حسناً، فلندع البحث في هذا الشأن فاني مسافر في أثره.
أتعلمين في أية جهة سار ؟

— كيف أستطيع أن أعلم وقد كنت مقيّدة ؟

وقد حاول سكالا برينو أن يذهب لفوره ولكنه شعر بتعب
عظيم فأرجأ سفره إلى الغد ونام وقد أنهكه الحزن والتعب .

أما جوانا فقد لبثت ساهرة وقد كبرت عليها هذه النكبة
فقالت في نفسها : ويحٌ لي مما أعانيه ، فان هذه النكبة كلها علي.
فانه إذا قتل سكالا برينو قتلت نفسي في أثره وإذا كان الفوز له
سحق قلبي . فلمن أتمنى الفوز ولمن أرجو الخذلان ؟

وفي الساعة الخامسة صحا سكالا برينو من رقاده وقال وقد
رآها لا تزال في جانبه : لقد خيل لي أني نمت كثيراً في حين أني
لم أنم غير ساعة .

قالت : بل إن الفجر قد انبثق . فارتعش وقال في نفسه :
إنها لم توقظني إلا كي تفسح مجال الفرار .

وعند ذلك أكل ما تيسر ثم عانق الفتاة بحنوّ وقال : أرى
يا جوانا أنك قد تكونين أشدّنا نكبة بهذا المصاب ومهما حدث
فاذكري أني أخوك واعلمي الآن أني ذاهب للبحث عن بيانكا
إذ لا بد لي من إيجادها .

أما هذا اللص الذي سرق قلبك وهو لا يستحقه فأقسم لك
أني إذا التقيت به لا أكون البادىء بضربه . فارتعشت جوانا
سروراً وقبّلته والدموع تسيل من عينيهـا فودّعها وأسرع
بالرحيل . وقد امتطى جواده وسار وهو لا يفتكر إلا بطريقة
إيجاد ساندريجو حتى وصل إلى فندق فأقام فيه وطلب زجاجة
شراب فأسند رأسه إلى يده على المائدة وجعل ينظر من النافذة
المفتوحة إلى الطريق .

وفيما هو على ذلك رأى رجلاً ماراً فدهش لمرآه وقـال في
نفسه : ماذا يفعل جانيتو هنا ؟

وكان جانيتو هو ذلك البحّار الذي جاء ساندريجو في قاربه.
فأسرع سكالا برينو حين رآه وسار في أثره حتى أدركه ، وكان
يعرفه ، فإنه من بحّارة ميناء فينيسيا الذين يشتركون مع عصابات
اللصوص ، فدنا منه وقال له : ماذا تفعل هنا يا جانيتو ؟

فدهش البحار لمرآه وقال له : إني لم أكد أعرفك يا سكالا
برينو وأنت بملابس الفرسان . أما أنا فقد أتيت بمهمة إلى قرية
ميستر وأنا عائد إلى فينيسيا .

— وأنا كذلك عائد إليها .

— إذن نعود معاً ؟

— هو ذاك ، فهلمّ بنا .
وترجل سكالا برينو وسار وإياه إلى جهة الشاطىء .

مرسى الذهب

*

لم يكن لسكالا برينو غاية خاصة حين تبع جانيتو ولكنه كان يعلم أن هذا البحّار عارف بجميع أخبار العصابات ورجالها.

ولما كان ساندريجو قد طُرد من الجبال ، فلا بد أن يكون قد لجأ إلى مكان قد يعرفه هذا البحّار ، أو أنه قد يكون رآه منذ يومين فيسهل عليه البحث عنه. وبدأ جانيتو الحديث فقال: كيف أننا لا نراك بيننا منذ عهد بعيد ، وإني أراك الآن في طريق تريفيز على مثل هذا الجواد الجميل ؟

فأجابه قائلاً : وأنت يا جانيتو ، ماذا تعمل هنـا ؟ قال : إني أتيت بمهمة إلى هذا الفندق . قال : وأما أنا فإني أتنزه .

فغمز البحّار بعينه وقال : إنك تتنزه وتبحث معاً علّك تجد حصى هذه الطريق قد استحالت إلى دنانير !

— ربما كان شيء من ذلك ، فمَن الذي أرسلك بالمهمة ؟

— صاحب السفينة ماريا وهي خير سفن الميناء .

— وإلى أين تعود ؟

— إلى مرسى الذهب !

فارتعش سكالا برينو لهذا الاسم إذ علم أنه المكان الذي يجتمع فيه اللصوص وأنه خير مكان أمين يلجأ إليه الهاربون إلى فينيسيا، فإن مرسى الذهب كان اسماً للخمارة التي ذهب إليها ساندريجو وقال له : لقد خطر لي أن أذهب معك إليها . قال : تعال ، فانهم يستقبلونك بالترحيب .

— إني على يقين من ذلك ، ولكني أخاف الجواسيس .

— إن خمارة مرسى الذهب لا يدخل إليها الجواسيس ولم يدخل إليها غير واحد منهم مرة ولكنه ...

— لكنه ؟

— ولكنه لم يخرج .

— كيف ذلك ؟

— أتعرف الخمارة ؟

— تقريباً .

— أتعرف ذلك القبو المغطّى الكائن في آخر الخمارة ؟

— لقد سمعت به ، فأخبرني بما تعرفه عنه بالتفصيل .

— ذلك أنه حين يدخل إلى هذه الخمـــارة رجلٌ لا تروق زيارته في عين صاحبها برتولو ... أتعرف برتولو ؟

— نعم أعرفه ، فهو ذلك الرجل الأعور القوي .

— هو بعينه . فعندما يدخل إليه ذلك الرجل الذي تسوءه زيارتـــه يُحسن استقباله ويسقيه من أفخر الخمور الكأس تلو

الكأس حتى يضيع صوابه ويزيد اشتياقه إلى الخمر شأن كل السكارى ...

– هو ذاك .

– وعند ذلك يدعوه برتولو إلى شراب كأس من أفضل ما عنده ! ولكن هذه الخمرة لا تُشرب إلا في مواضعها أو في القبو لأنه لا يُخرج منها إلى الزبائن ...

– وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك يذعن له الرجل شاكراً فيدعوه برتولو إلى أن يتبعه ، ويفتح باب القبو وينزل أمامه ، فاذا لم يستطع نزول السلم أعانه بعض رفاق برتولو إذ يوجد دائماً أربعة أو خمسة رجال لمثل هذه الحوادث ، حتى إذا نزل بالكره أو بالرضى عاد برتولو من حيث أتى وأقفل الباب .

فضحك سكالا برينو وقال : بحيث أن هذا الرجل الذي ينزل إلى القبو ليشرب يموت من الظمأ .

قال : ليس الأمر كما توهّمت ، فان برتولو حين يخرج من القبو ويقفل بابه على ذلك المنكود يذهب توّاً إلى الترعة ويرفع صفيحة من الحديد لا يعرف مكانها سواه . وهذه القطعة من الحديد تسدّ منفذاً عالياً في القبو تحت سطح الماء ، فاذا فتحها دخل الماء إلى القبو فملأه وغرق ذلك المنكود . أرأيت كيف أنه لا يموت من العطش ؟

فارتعد سكالا برينو وقال: أقتلوا جاسوساً بهذه الطريقة؟

– نعم ، وهو الجاسوس الوحيد الذي تجاسر على الدخول

إلى هذه الخمارة. ولكنهم يستخدمون القبو لغير الجواسيس أيضاً.

– لمن ؟

– للخائنين الذين يرسلهم إلى برتولو رئيس العصابات الأكبر.

– من هو هذا الزعيم الذي يمتثل له برتولو هذا الامتثال ؟

– لماذا تسألني عنه ؟

– ذلك بسيط ، فاني مللت عيش الوحدة فقد أردت الاستقلال ولكني لم أنجح بحيث أني أسَرّ أن ...

– أن تعود إلى الانتظام في سلك العصابات ... فاذا كان ذلك ، يستقبلونك على الرحب إذ طالما تحدثوا بك في الخمارة وبفرارك العجيب من السجن .

– أيعرفون هنا أمر فراري ؟

– ومن تريد أن يعرفه إذا لم يعرفه أصحابك القدماء ؟

– حسناً ، ولكني قبل أن أنتظم في سلك العصابات أحب أن أعرف من هو رئيسي كي أعلم لمن يجب أن أمتثل ...

– لقد أصبت ... ولكن ...

ورأى سكالا برينو ما كان من تردّده في الكلام ، فقال : أصغ إلي يا جانيتو واعلم أنه إذا لم يعجبني ذلك الرئيس عاهدتك على نسيان اسمه وأنت تثق بي كما أظن .

– دون شك .

وإذا راق لي الخضوع كان الفضل لك في إدخالي بين أعضاء العصابة . فاقتنع البحّار ببرهانه وقال له : حسناً ، فاعلم إذن أن الرجل الذي يخضع له برتولو وندعوه زعيمنا الأكبر إنما هو

ساندريجو .

فلم يستطع سكالا برينو ضبط نفسه وصاح صيحة فرح . فقلق البحّار وقال له : ماذا أصابك ؟ فقال : لا شيء سوى أني سررت أن يكون ساندريجو ذلك الزعيم .

– ألعلّك تعرفه ؟

– نعم ، فقد كنا من قبل في عصابة واحدة .

– إذن لقد رضيت أن تكون معنا ؟

فلم يجبه سكالا برينو لفوره ومشى وإياه بضع خطوات ثم وقف فجأة وقال له : جانيتو ، يجب أن تتبعني . فنظر البحّار إلى ما حواليه نظرة قلق وقال : إلى أين ؟ قال : ستعرف حين نصل . واعلم يقيناً أنك لا تصاب بسوء إذا تبعتني بل يكون لك في ذلك فائدة فإني أحب أن أذهب إلى هذه الخمارة دون أن يعلموا بقدومي . وأنا أخيّرك بين أن تتبعني وبين أن تبقى، فاذا آثرت البقاء يقتضي لك أربعة رجال ليحملوك لأنك ستبقى ميتاً .

وهنا برقت عينا سكالا برينو وجرّد خنجره ، فخاف البحّار خوفاً شديداً وقال له : أتجسر يا سكالا برينو على قتلي وعلى تحمل تبعة مثل هذا الذنب ؟

– إني لا أقتلك إذا رضيت الذهاب معي . وإنك لا تكون نادماً إذا فعلت .

– حسناً ، فسأتبعك إلى حيث تريد .

– إذن هلمّ بنا وأسرع بالمسير .

وسار الاثنان نصف ساعة فبلغا قرية ميستر ، وهناك التفت سكالا برينو إلى البحّار وقال له : إنك إذا أشرت إشارة أو بدرت منك صيحة فأنت ميت لا محالة . قال : كن مطمئناً فلا فرق عندي بين أن أستبدل رئيساً برئيس بل إني أفضّلك على ساندريجو . قال : إذا كنت مخلصاً في ما تقول فلا يمضي زمن قليل حتى تهنىء نفسك بالخلاص من ساندريجو وبرتولو .

وقد استراح الاثنان هنيهة في ميستر ثم سارا إلى مغاور بيافا فعهد سكالا برينو بذلك البحّار إلى ثلاثة من رجال العصابة ثم عاد من حيث أتى وهو يكاد يجن ليأسه ، فانه كان على يقين من أن ساندريجو لم يختطف بيانكا إلا انتقاماً من رولاند . ولكنه كان يعرف أيضاً هذا اللص وأنه لا يحترم طهر العذارى فجعل يعض أصابعه لقنوطه ويقول : رباه ، سهّل لي سبيل الوصول إليه قبل فوات الأوان .

*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كان نحو عشرين بحّاراً مجتمعين في خمارة مرسى الذهب وهم يعاقرون بنت الحان . وفي الساعة العاشرة قال برتولو صاحب الخمارة بصوته الجهوري : هلمّوا أيها الرفاق واذهبوا في شؤونكم فقد دنت ساعة إقفال الخمارة .

فدفع معظمهم ما عليهم من الحساب وانصرفوا فلم يبقَ إلا خمسة أو ستة من الشاربين . غير أن برتولو لم يدعهم إلى

الانصراف كما دعا الآخرين بل إنه أقفل باب الخمارة من الداخل وعاد فنظر إلى أولئك الذين بقوا وعرفهم جميعهم ما خلا واحداً منهم كان لابساً ملابس فقراء البحّارة وقد أدار وجهه إلى جهة النور . فدنا برتولو منه فهزّه بعنف وقال له : قل أيها الصديق ماذا تعمل هنا !

فانتبه الرجـــل وأشار بيده إشارة سرّية . فجلس برتولو بجانبه وقال له بصوت منخفض وبلهجة تدل على الرعب : من أنت أيها الرجل العارف بإشاراتنا السرية فاني لم أرك قبل الآن؟

— ماذا يهمك اسمي ؟

— إذن ماذا تريد ؟

— أريد أن أرى ساندريجو ، فهل هو هنا ؟

— كلا !

— أيحضر الليلة ؟

— ربما .

فقال له بلهجة المتوعد : ألا تريد أن تتكلم ؟ فقال برتولو في نفسه : لقد فهمت قصدك الآن . ثم قال له : إن ساندريجو في فينيسيا وسيحضر إلى هنا عند انتصاف الليل .

— حسناً . فدعني أنام الآن ولا توقظني إلا عند حضوره فاني في حاجة إليه . فتركه برتولو وتظاهر هنيهة بأنه يشتغل في مهامّ الخمارة ثم دخل إلى قاعة أخرى وراء تلك القاعة وخلا فيها برجل .

وكان في تلك القاعة نافذة تشرف على القاعة العمومية فقال

برتولو لذلك الرجل الذي كان معه : أنظر يا ساندريجو من هذه النافذة ، أترى هذا الرجل الهائل الجثة الجالس وحـــده على المائدة الثانية ؟

— نعم إني أراه .

— إذن فاعلم أنه سكالا برينو .

فاتقدت عينا اللص ببارق من السرور وضمّ قبضته فقال له برتولو : ليس هذا كل شيء ، فان هذا الرجل يريد مقابلتك .

— حسناً ، فسيراني . هل أقفلت الباب الخارجي ؟

— بالزلاج !

— وباب الرواق ؟

— أقفلته أيضاً .

— وباب القبو ؟

— إنه مقفل على عادته !

— إذن افتحه وادعُ لي جميع من يوجد في الخمارة من الرفاق.

فتركه برتولو وعاد إلى القاعة فطاف بأولئك الشاربين وأشار لكلّ منهم إشارة سرّية ثم ذهب إلى حيث كان سكالا برينو فجلس بجانبه وقال له : إن ساندريجو لا يلبث أن يحضر ، ولا شك أنك قادم إليه بشأن خطير . قال : هو ذاك ، فاني قادم إليه بمهمة تفيده كل الفائدة .

— أتريد أن تخلو به ؟ وهل محادثتكما سرّية ؟

— دون شك !

فنهض برتولو وجعل يؤنب الحاضرين لتأخرهم بأنه لا يفتح لهم

في الغد إذا تأخروا دقيقة أيضاً. فقام الجميع ودخلوا الواحد تلو الآخر إلى الرواق وتواروا عن الأنظار . وذهب برتولو في أثرهم فأدخلهم إلى حيث كان ساندريجو وفتح زلاّج الباب وأقفله إيهاماً لسكالا برينو أنه أخرجهم ، ثم عاد إليه فقال له :

– لقد أصبحنا الآن وحدنا فلا حاجة بعد ذلك إلى أن تتظاهر بالنوم يا سكالا برينو .

– كيف ذلك ؟ أعرفتني ؟

– ومن لا يعرفك ؟ أتحسب أني كنت أطرد أولئك الزبائن من أجلك لو لم أعرفك ؟

فشكره سكالا برينو وهو لا يدرك مقصده من ذلك ، وقال له : أتظن أن ساندريجو يتأخر ؟

– إنه حضر ، فاذا أردت أن تكلمه فما عليك إلا أن تتبعني .

– أين هو ؟ ولماذا لا يأتي إلى هنا ؟

– لا أعلم ، فقد أخبرته بأنك تريد مقابلته فقال لي : إنه ينتظرك . والآن إذا أردت أن تتبعني مشيت أمامك إليه . وإذا أبيت فأنت مخيّر بين البقاء هنا وبين الإنصراف .

فذكر سكالا برينو ما قاله له البحّار عن ذلك القبو الهائل وقال في نفسه : إنهم يريدون إلقائي في هذا القبو دون شك .

غير أن سكالا برينو كان يبلغ بشجاعته حد الجنون ، وله بقوته البدنية ثقة لا تحد ، فقال في نفسه وهو يبتسم : إنهم إثنان فقط وما تعوّدت أن أبالي بإثنين .

وعند ذلك وقف وقال : هلمّ بنا . فقال برتولو : ليس

المكان ببعيد . ثم مشى أمامه فدخل إلى الرواق واجتازه إلى القاعة ، فتبعه سكالا برينو ونظر إلى تلك القاعة نظرة اطمئنان فانه لم يرَ فيها غير رجل واحد وهو ساندريجو. وكان ساندريجو جالساً حول مائدة عليها كاسات من الشراب وقد وضعت هذه المائدة على قيد خطوات من القبو الذي بقي بابه مفتوحاً بحيث لو جلس سكالا برينو على تلك المائدة مقابل ساندريجو لكان ظهره إلى جهة باب القبو ولما يَبعُد عنه غير خطوتين .

ولا نعلم إذا كان سكالا برينو رأى ذلك الباب المفتوح وعلم أنه باب القبو المخيف . ولكنه جلس على الكرسي المعد له أمام المائدة وقال لساندريجو بلهجة تدل على السكينة : السلام عليك يا ساندريجو . لقد مضى زمن طويل دون أن أراك . فرد ساندريجو تحيته وقال له . وأنا يسرّني أن أرى رفيقاً قديماً .

وقد كان سكالا برينو يبذل جهداً عنيفاً كي يتمكن من ضبط نفسه والتظاهر بالسكينة فلم يخنق هذا الرجل الذي كان السبب في سجنه ستة أعوام واختطف بنته ، وذلك لأنه قد أقسم لجوانا أن لا يكون البادىء بالضرب .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين وكلاهما يعلم أنه يريد الموت لصاحبه ، وكلاهما يتظاهر بالسكينة ، إلى أن افتتح سكالا برينو الحديث فقال : لقد أحببت أن أراك في البدء قبل أن أعلم إذا كان يجب أن أعتبرك رجلاً أو يجب أن أقتلك كما يقتلون الكلاب .

فأجابه ساندريجو قائلاً : وأنا كنت أنتظر أن أسمع كلامك

لأقرر نفس قرارك .

– إذن فاسمع ما أقوله لك: إن الحقد قد تولّد في قلبك عليّ في حين أني لم أعاملك إلا معاملة الصديق. وقد دفعك هذا الحقد إلى ارتكاب جريمة تعاقب عليها شرائعنا الجبلية بالإعدام ، فأنت الذي وشيت بي حين قبضوا عليّ. أتعترف بذلك أم تنكر؟

– لا أقول شيئاً على سبيل الاعتراف فان المجرمين لا يعترفون .

– إذن أنت تنكر ؟

– كلا ، فأنا الذي دفعتهم للقبض عليك .

– حسناً ، فاني أقمت في السجن ستة أعوام ثم هربت منه ولقيتك في الجبال .

فضم ساندريجو قبضة يده وقال : نعم ، وكان ذلك في اليوم الذي سرقت عصابتي مني ويوم أكرهني رولاند كانديانو على التماس العفو أمام الرفاق . قل فما تريد بعد ذلك ؟

– أريد بعد ذلك أنه يوجد امرأة طاهرة القلب سليمة النية شديدة الإخلاص ، ولقد أحبتك هذه المرأة ولا أدري كيف ، فاعلم يقيناً أني لولاها لكنت قتلتك شرّ قتل .

– وبعد ذلك ؟

– اصبر ، فان جوانا عهد إليها بحراسة فتاة ...

– وهذه الفتاة قد اختطفتها واستعنت على ذلك بغرام جوانا.

فطاش رأس سكالا برينو وهمّ بقتله ولكنه أسرع إلى ضبط نفسه فقال : إنك تستطيع شراء جرائمك ، فردّ لي تلك الفتاة

التي اختطفتها وتزوج جوانا . وأنا أتعهد بأن أعينك وأنيلك مائة مرة أكثر مما ترجوه .

– أحقّ ما تقول ؟

– إني أقسم .

– أود أن أقبل بملء الرضى . ولكن هناك مانعان قويّان يحولان دون ذلك .

– ما هما ؟

– المانع الأول هو أن جوانا تحبني ولكني لا أحبها .

– والثاني ؟

– والثاني أن هذه الفتاة التي تسألني بأن أردّها إليك هي التي أحبها . فنهض سكالا برينو وقد اتقدت عيناه وقال له : أتقول إنك تحب بيانكا ؟

فخاف ساندريجو وأيقن أنه سيبطش به إذا لم يستنجد وصاح : إليّ ... إليّ ...

وعند ذلك دفع المائدة التي كانت بينه وبين ساندريجو بعنف فجرد سكالا برينو خنجره وهجم عليه فأسرع ستة لصوص إلى نجدة زعيمهم وتراجع سكالا برينو كي يستند إلى الجدار ويحتاط به فشعر أنه سقط في هوة . ولكنه قبل أن يصل إلى أسفلها تعلقت يده بسقفها فأخذ ساندريجو الكرسي الذي كان جالساً عليه فضربه به على رأسه فأفلتت يداه حافة السقف وسقط ، وأسرع برتولو فأقفل باب ذلك القبو .

أما سكالا برينو فقد طاش رأسه للضربة التي أصابته وهوى

إلى أرض القبو فأغمي عليه .

وصحا من إغمائه لرطوبة شديدة شعر بها فذكر لفوره ذلك الخطر المحدق به إذ ذكر ما رواه له جانيتو البحار عن حكاية ذلك القبو الهائل حين ختم تلك الحكاية بقوله : إن المرء لا يموت في هذا القبو عطشاً بل من كثرة الشرب .

وقد مرّت هذه التصورات بمخيلته مرور البرق ، ونظر إلى ما حوله فرأى الظلمات تكتنفه من كل جانب وسمع من فوق رأسه صوتاً يشبه صوت تدفق المياه وشعر أن المياه قد بلغت إلى ركبتيه فصاح صيحة يأس وقال: «الترعة... الباب الحديدي... الماء المتصاعد ... » .

ذلك أن الماء كان يتصاعد ببطء ولكنه مستمرّ في صعوده وهو لا يزال يتدفق من الباب إلى أرض القبو . فوقف جامداً قانطاً مبهوتاً إلى أن تجاوزت المياه ركبته فتمثلت له جوانا وبيانكا فتنهّد تنهداً كاد يتمزق له صدره وقال: ربّاه، أأموت في حين كدت أبلغ أوج السعادة ؟ ثم تمثّل له بعدهما رولاند فقال : أيها الرئيس أين أنت ؟

وقد ارتعش حين لم يجبه غير الصدى ، وذكر ما قاله له ساندريجو وهو أنه يحب بيانكا وأن تلك الحمامة الوديعة باتت فريسة ذلك اللص الدنيء النفس والوغد الحقير إذ هي في قبضته فصاح صيحة يأس ارتجّت لها جوانب القبو ، ومدّ يديه يلتمس في الظلام سلّم القبو كما يلتمس العميان السبيل إلى أن عثر به فصعد عليه حتى التطم رأسه بسقف القبو فوضع كتفيه القويتين

تحته وحاول أن ينهضه ولكن جهده ذهب عبثاً .

حتى إذا أيقن أن فتح ذلك الباب محال وقف واليأس ملء قلبه ، ولكن الماء لم يقف ، فإنه حين صعد السلم كان قد بلغ إلى قدميه ثم جعل يتصاعد حتى بلغ إلى ركبتيه . وذعر ذعراً شديداً حين علم أنه سيموت موتاً بطيئاً وأن الماء سيبلغ إلى صدره فيغمره . فعزم على أن يموت ميتة سريعة كي يتخلص من عناء هذا اليأس إذ أيقن أن الموت لا بدّ منه .

وعند ذلك ذكر جوانا وبيانكا ورولاند وهؤلاء هم كل الذين يحبهم في هذا الوجود وألقى نفسه من السلم إلى ذلك الماء الأسود.

*

كان سكالا برينو من الماهرين في السباحة ، فلم يكد يلقي نفسه في تلك المياه حتى تغلب في نفسه حب الحياة على اليأس فصعد إلى سطح الماء بعد أن كان قد بلغ الأرض وجعل يسبح دائراً حول القبو وقد تولد في نفسه أمل لا يدري ما هو ، فإن الرجاء آخر نور ينطفىء في قلب الإنسان وإن القوى تتلاشى والصبر يفنى ولكن الرجاء يبقى إلى آخر لحظة من الحياة .

وعلى ذلك فإن سكالا برينو كان يرجو ولكنه لا يعلم ما يرجوه ، فجعل يسبح وهو لا يفتكر في شيء إلا بأن يبقى عائماً على سطح المياه. وظل على هذه الحال إلى أن كلّت يداه وتلاشت قوى رجليه وقد بعد عن السلّم الذي كان يستريح على درجاته فبذل جهداً عنيفاً وهو آخر جهد وجعل يطوف سابحاً إلى أن

علقت يـــداه بقضبان غليظة من الحديد وهي لتلك النافذة التي يدخل منها ماء الترعة إلى القبو .

*

كان ساندريجو قد أطلق سراح جميع اللصوص الذين كانوا في الخمارة بعد أن ألقوا سكالا برينو في القبو ولم يبقَ غير برتولو . وقد جعلا عند ذلك يضعان الأثقال فوق باب القبو حتى إذا أتما مهمتها قـال برتولو : إن هذا القبو خير من آبار السجون ، فإن الفرار منه محال . فوضع ساندريجو أذنه على باب القبو وقـال : إنه لا يتحرك .

فقال له برتولو : إصبر قليلاً فستسمع حين يبدأ شرب المياه. قال : كم ينبغي لذلك من الوقت ؟ قـال : إن القبو يمتلىء عادة بمدة ساعتين .

ثم انقطع الحديث بينهما فاضطجع ساندريجو فوق باب القبو وجعل يتنصت. ولبث على ذلك إلى الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل حتى لم يعد يسمع شيئاً فنهض برتولو وقال : لقد انتهى كل شيء . فنهض ساندريجو في أثره وقال : نعم ، لقـد انتهى كل شيء .

المحظية الكبرى

*

خرج ساندريجو من تلك القاعة وصعد سلماً يؤدي إلى طابق علوي في تلك الخمارة . وهناك وقف عند باب غرفة ووضع أذنه على قفل الباب فاطمأن وقال : إنهـا نائمة . ثم دخل إلى غرفة مجاورة لها ونام نوماً هادئاً .

وفي صباح اليوم التالي صحا من رقاده فجلس في سريره وجعل يحدث نفسه فيقول : إن حادثة الليلة قد أتعبتني فوق ما يتعبني يوم معركة ، وكنت أودّ أن أكون قـد تخلصت منه بطعنة خنجر ، فإني أشعر أني رجل حين أهزّ خنجري بيدي وقد غدا بريق عينيّ أشدّ من بريقـه فيغلي الدم في عروقي ويخفق قلبي سروراً بالقتال . وما أشد ما يكون سروري حين يسقط ذلك العدو صريعاً تحت قدميّ ويتخبط بدمائه فإن منظر تلك الدماء يسكرني .

وأما هذا القبو وهذه النافذة التي يسيل منها الماء إليه ، فلا لذة باستخدامها للقتل ، فإني لا أزال أسمع صوت تدفق الماء من تلك النافذة وسوف أسمع هذا الصوت المحزن ما حييت .

وعند ذلك هزّ رأسه ونزل من سريره فارتدى أحسن ما كان عنده من الملابس وتجمّل بما كان اختلسه من الجوهرات وتقلّد حساماً طويلاً كان قد اغتصبه من أحد الأشراف . ثم خرج ، وبعد نصف ساعة كان في قصر الدوج حاكم فينيسيا .

وهناك أخرج من جيبه رسالة فدفعها إلى أحد الحجّاب وسأله أن يوصلها إلى الدوج. فلم تكن غير هنيهة حتى أمر الدوج بإدخاله إليه فنظر إليه نظرة تدلّ على عدم الاكتراث وقال له : إنك أعطيتني كتاب توصية من المولى دندولو رئيس ديوان التفتيش ، ولكن هذا الكتاب الذي يوصي بك خير وصاية لم يذكر فيه اسمك. ولولا ثقتي بالرئيس لما أذنت لك بالدخول إليّ .

فقال له ساندريجو : أنا يا مولاي التمست من الرئيس أن لا يذكر اسمي حذراً من أن لا تأذن لي بشرف المثول بين يديك متى عرفت ذلك الاسم ، فاسمح لي الآن أن أذكر لك اسمي . فأشار الدوج إشارة قبول ، فقال ساندريجو : إنك يا مولاي حين رقّيت إلى أريكة الحكم في فينيسيا كان أول أمر أصدرته تعيين جائزة لمن يأتيك برأسي ، فإني أدعى ساندريجو ، وأظن أن هذا الاسم يكفي للتعريف بي .

فاحمرّ وجه فوسكاري من الغضب وكان أول ما خطر له أن يأمر بالقبض على هذا اللص الجسور وأن يعزل دندولو . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سكينته فقال في نفسه : إن رئيس ديوان التفتيش لم يرسل لي هذا اللص إلا لأنه يجب الإبقاء عليه ، فقد كان بوسعه أن يعامله معاملة اللصوص. ولذلك اطمأن وقال له:

— إنك الآن ضيفي ، وسأنسى كل ماضيك .

— ولكني أتيت يا مولاي كي أسألك نسيان هذا الماضي إلى الأبد .

— أراك تتكلم بجرأة نادرة .

— ويحقّ لي ذلك !

وقد قال هذا القول وهو يعلم يقيناً أنه يخاطر بحياته ولكنه علم أنه لا يفوز إلا بالجرأة فقال : نعم يا مولاي ، يحق لي أن أكون جريئاً فقد خدمت الجمهورية خدمة جليلة وأنا قادر على أن أخدمها أيضاً خدمة أجلّ .

— ماذا تستطيع أن تفعل في خدمتها ؟

— أستطيع أن آتيها برأس رولاند كانديانو .

ففرح فوسكاري فرحاً لا يوصف ، فإنه لم يكن يفتكر برولاند حتى يصاب بما يصاب به النائم حين يفاجئه الكابوس ولا سيما بعد فراره من السجن . ولكنه لم يظهر شيئاً من ذلك السرور ، ومضى ساندريجو في حديثه فقال : وإذا شئت برهاناً يا مولاي على ما أقول فاعلم أني بدأت بقتل سكالا برينو. وهذا الرجل لم يسىء إليّ بشيء ولكنه كان عدو الجمهورية وكان شديد الخطر عليها .

— كيف يكون مثل هذا اللص خطراً على الجمهورية ؟

— لأنه كان ساعد رولاند الأيمن ، فإن رولاند يضع الخطة وسكالا برينو ينفذها ، فكانا قويين باتحادهما . أما وقد بات رولاند وحده فقد ضعف وإن كان لا يزال قوياً إلى الآن .

– ما هي قوّته ؟

– لقد أخبرك رئيس ديوان التفتيش يا مولاي ، أنه زعيم عصابات كثيرة تشبه الجيش فهو يستطيع بها أن يكون من الأقوياء . أمّا غرض رولاند من تأليف هذه العصابات فلا دخل لي به ، ولكني أعيد عليك ما قلته لك وهو أني أنا وحدي الذي أستطيع القبض على رولاند لأني أنا وحدي الذي يعرف مكانه .. دعني أتم حديثي يا مولاي وسترى رأيك بعد إتمامه ، فإني بدأت بقتل سكالا برينو فأكون بقتله قد جرّدت رولاند من خنجره . والآن أتسمح لي أن أسألك سؤالاً ؟

– تكلم .

– أتعلم أين يوجد أسقف فينيسيا ؟

فظهر الاضطراب على وجه فوسكاري بالرغم عنه وقال : الكردينال بمبو ؟

– نعم ، الكردينال بمبو الذي اختفى دون أن يعلم أحد مقرّه . ولكني أعلم أين هو .

– أنت ؟

– نعم أنا . فإنّ لي رقباء في الجبال كما لك جواسيس في فينيسيا .

– إذن تقول أين هو الكردينال بمبو ، فإذا لم يكن قولك من قبيل الإدعاء أصبحت ثروتك مضمونة .

– أرى يا مولاي أننا قد بدأنا بالإتفاق . أما الكردينال فإنه الآن في قبضة رولاند كانديانو وهو حاقد عليك حقداً هائلاً

دون شكّ لا أعلم أسبابه إذ ليس ذلك من شأني .

فاصفرّ وجه فوسكاري وحدّق بساندريجو كأنه يريد أن يقرأ سرائر قلبه فقد قال في نفسه : إن رولاند ما زال قد ظفر بالكردينال فهو سيظفر بألتياري ودندولو و ... بي أنا !

ورأى اللص ما كان من اضطراب الدوج فوثق من انتصاره عليه وقال له : لا يجب الاقتصار على معرفة مكان الكردينال بل المهمّ إنقاذه وإرجاعه إلى فينيسيا . وأنا أتعهّد بذلك ، فإذا أردت كان الكردينال غداً عندك وإذا أردت جئتك أيضاً برولاند مكتوف اليدين والرجلين . فقال الدوج : ماذا تريد مقابل ذلك ؟

– أتأذن لي أن ألتمس يا مولاي ؟

– قل .

– إني سئمت يا مولاي عيش التشرّد وعلمت أني ما خلقت لأعيش شريداً طريداً ، وعلى الجملة فإني أحب أن أعيش في فينيسيا .

– إني أعفو عنك عفواً كاملاً فتعيش فيها .

– لقد نلت هذا العفو يا مولاي من رئيس ديوان التفتيش فلا تكون قد أنعمت عليّ بشيء .

– إذن ماذا تريد ؟

– أريد منصب قائد في الجيش فإني لا أستطيع القبض على رولاند إذا لم يكن لي شيء من السلطة .

فأطرق فوسكاري مفكراً وكان من أهل المضاء في العزيمة

فقال في نفسه : إن هذا الرجل قد يفيدني فوائد كثيرة وكفى أنه سينقذني من رولاند ، فأية خسارة عليّ إذا عينته في الجيش؟ وفوق ذلك فما يمنعني أن أبطش به بعد أن يجيئني برأس رولاند ؟

وعند ذلك نظر إليه وقال : إنك تسألني أمراً كبيراً . قال: إني عارف بجسامة مطلبي يا مولاي ، ولكن رأس رولاند وإنقاذ الكردينال يساويان هذا المنصب الذي أطلبه . وغداً عندما يكون صديقك الكردينال عندك تبحثان فيما إذا كنت أستحقّ هذا الجزاء .

فقام فوسكاري إلى درج وأخرج منه ورقة وكتب عليها بيده صورة الأمر لتعيينه ثم ختمه وناوله إياه . فانحنى ساندريجو وقال : لا أجد كلمة تعبّر عما في فؤادي من الامتنان لمولاي سوى أني مستعدّ لسفك دمي في سبيل مجده . فقال فوسكاري: بل أسفكه في سبيل مجد الجمهورية فنحن جميعنا من خدّامها . وعلى ذلك فإنك ستأتي غداً بالكردينال كما قلت .

— هو ذاك يا مولاي ، فسيكون غداً عندك وهو يخبرك بما لقيه من قوة رولاند . أما رولاند فسيكون في قبضة يدك بعد شهر .

— حسناً ، فاذهب يا حضرة القائد .

فارتعش ساندريجو سروراً وهو يقول في نفسه : لقد أصبحتْ بيانكا لي دون مزاحم .

ثم أسرع لفوره إلى قصر أمباريا . وكانت أمباريا تنتظره بملء الجزع منذ أمس فقد مضى يوم وليلة دون أن يأتي إليها كما

وعد . فلما وصل استقبلته في الحال فقال لها : هل تمعنت يا سيدتي ؟ قالت : كل ما تمعنت فيه هو أني كنت أنتظرك ، فإن ابنتي في قبضتك ولك القوة الآن !

— ولكنك تأنفين من تزويج بنتك بلصّ .

فارتجفت أمباريا لأنه كان يعبّر بما قاله عن أفكارها ، ولكنها كانت تخشى أن تثير غضبه ، فقال لها : لا تخشي أن تقولي كل ما تفتكرين به ، وفوق ذلك فإنك لم تكتمي نفورك وهو نفور طبيعي ، فلو كنت في مكانك لما فعلت إلا ما تفعلين.

— ماذا تعني ؟

— لا أريد بكلامي غير ما هو ظاهر من معناه فإن بيانكا فتاة طاهرة نقية جميلة لا يجب أن تكون امرأة لص .

فارتجفت أمباريا وخشيت أن يكون متهكماً في مقاله . ولكن ساندريجو تكلّف هيئة الرزانة والجد بما يوافق منصبه الجديد فقد كان في الصباح لصاً فأصبح الآن من قواد الجندرمة وشأن الجندرمة جليل في ذلك العهد .

وقد جعلت أمباريا تنظر إليه دون أن تجيب فقال لها : أتزوّجين ابنتك من رجل له منصب رسمي في فينيسيا ؟

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به رجلاً له منصب في الجيش .

— نعم ، لقد لمحت عن ذلك ولكنه بعيد التحقيق بل هو مستحيل .

— أتحسبين حقيقة أنه يوجد أمر مستحيل في هذا الوجود

على رجل قوي الإرادة ، ولا سيما حين يستمد هـذه القوّة من الغرام ؟

– الغرام ؟

– لا تخشي ، فإني أقسم لك أني احترمت بنتك وذلـك لأني أحبها حقيقة ، أتثقين بقولي ؟

– نعم .

– يسرني أن أرى منك هذه الثقة وأن لا أكون في عينيك ذلك اللص بل ذلك الرجل الذي أحب ابنتك حباً طاهراً دعاه إلى احترامها، فماذا تقولين لي إذا تمكنت بالقوة والبسالة والجرأة والحيلة من بـلوغ تلك الأمنية التي تحسبينها مستحيلة ؟ قالت : أقول إنك عملت عملاً عظيماً لأن الموانع التي تعترضك عظيمة .

فابتسم ساندريجو وقال: لقد أصبت يا سيدتي فإن الحكومة عيّنت جائزة لمن يقتلني ، وإذا أراد أحـد خدمك أن يشي بي نال ثروة، وإذا لقيني رجل في الطريق فعرفني وقتلني لا يعاقب بذنبه بـل يكافأ عنه . ولذلك لا أستطيع نيل الأمنية التي أرجوها إلا إذا خدمت الحكومة خدمة جليلة . وقـد يكون ذلك غير كاف أيضاً فربما احتجت إلى إنقاذ الحكومة نفسها من خطر شديد .

كان ساندريجو يقول هذه الأقوال وأمباريا تنظر إليه وهي معجبة بما يقول. وعند ذلك ضحك اللص وأخرج من جيبه ذلك الأمر القاضي بتعيينه فدفعه إلى أمباريا وقال: لقد تمّ المستحيل يا سيدتي فخذي واقرأي .

فأخذت الحظية الورقة وقرأت كلّ مـا فيها فلم تذهل ولم تتعجب فإنها كانت تعتبره منذ هنيهة جديراً بمثل هـذه الأعمال العظيمة . فلما أتمت القراءة أطرقت صامتة ، فقال لها : ما بالك لا تجيبين على سؤالي يا سيدتي ؟

– أي سؤال تعني ؟

– هل تريدين أن تزوّجي ابنتك من القائد ساندريجو ؟ فإذا رضيت كانت ابنتك عندك بعد ساعة .

فهجمت أمباريا عليـه فطوّقت عنقه بذراعيها وقالت له : نعم يا ساندريجو لقد رضيت فإنك خير كفؤ لها .

*

كان ساندريجو قد أقام بيانكا في الطابق العلوي من الحمارة كما تقدم فأقامت ثلاثة أيام وهي على أسوأ حال لا تعلم أين هي ولا ماذا يريدون منها ولا تعرف هـذا الرجل الذي ادّعى أنه موفَد إليها من قِبَل أمها .

غير أنها وثقت في هذه الأيام الثلاثة أنهم لا يريدون بها شراً ولكنهم كانوا أقاموها في غرفة ضيقة لا نوافذ لهـا تشبه غرف السجون . وكانت تأتي إليها كل يوم امرأة صماء خرساء بـدليل أنها لم تكن تتكلم ولا تجيب الفتاة على أسئلتها فتأتيها مرّتين في كل يوم بطعام طيب لم تكن بيانكا تأكل منه غير القليل فتقضي أوقات وحدتها بالبكاء .

وفي اليوم الثالث ضاق ذرعهـا وأيقنت أن سجنها سيطول

وأنهم سيفرقون بينها وبين أمها إلى الأبد . وفيما هي على ذلك
وقد عاد اليأس يضلّ صوابها فُتح الباب ودخل منه ساندريجو
فعرفته لفورها وتراجعت خائفة مذعورة . ولكنه دنا منها وقال
لها بلهجة تكلّف فيها الحنوّ : لقد انتهت متاعبك فإذا شئت
أن تلاقي أمك فاتبعيني .

قالت : ولكني أخشى أن تستبدل سجني بسجن آخر . قال :
لقد أقمتك هنا أكثر مما كنت أريد ، ولكن ذلك ليس بخطئي
وستخبرك أمّك بصدق ما أقول ، فتعالي يا سيدتي دون خوف
فإن القارب ينتظرنا وبعد هنيهة تكونين بين ذراعي أمّك التي
تشرّفني بصداقتها .

وعند ذلك مدّ لها يده فأبت بيانكا أن تتوكأ عليها وسارت
في أثره وهي خائفة مضطربة لا تصدق ما قاله هذا الرجل عن
صداقته لأمها إذ أيّة علاقة يمكن أن تكون بينهما ؟

وبعد ساعة كانت بيانكا بين ذراعي أمّها وهما تبكيان
سروراً بهذا اللقاء حتى إذا سكن ثائر شوقها قالت لها أمها :
أعرّفك يا ابنتي بالسنيور ساندريجو أحد قواد الجندرمة وأحد
أصدقائي المخلصين الذي ما رجعت إليّ إلا بفضله فأحبّيه يا
بيانكا فهو جدير بحبك وبحبي .

فاصفرّ وجه بيانكا وجعلت تجيل نظرها بين أمّها
وساندريجو وقد بات خوفها من أمّها أشدّ من خوفها من
ساندريجو . فلمّا خلت بنفسها جعلت تبكي وتقول :
أين أنت يا جوانا الطيبة الشريفة ؟ وأنت أيها الرجل النبيل

الذي حماني أين أنت ؟ إن نظرة واحدة منك كانت تسكّن كلّ
آلامي !

إلتقاء وحشين

*

خرج ساندريجو من قصر أمباريا وهو يكاد يطير سروراً
فبرح فينيسيا لفوره وصار في طريق مغاور بيافا فوصل في
الساعة التاسعة إلى قرية تريفيزا ودخل إلى أحد بيوتها ولقي فيه
اثني عشر رجلاً مجتمعين ، وكانوا مضطجعين على الأرض حول
موقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شكّ فإنهم حين دخول
ساندريجو وقفوا جميعهم إكراماً له . وهو بعد عناء أربعة أشهر
لم يستطع أن يجمع غير هذا العدد القليل من رجال عصابته
القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كان
مركزها العام خمارة مرسى الذهب كما رأينا .

فتفقّد ساندريجو رجاله وقد ظهرت عليه علائم الرضى
فقال : لقد اجتمعتم كلكم هنا ، فكم يبلغ عددهم هناك ؟ فأجابه
أحدهم وكان نائبه في غيابه ، قائلاً : إنهم ستة فقط ، أربعة عند
باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن . قال : إذن لا بدّ لنا

من الفوز ، ولكن يجب أن نفاجئهم مسرعين . قال : نعم ، فإن سكالا برينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى أن يعود . قال ساندريجو : لا تخافوا سكالا برينو بعد الآن فقد سددت معه حسابي القديم ولا تنسوا ما وعدتكم به فإن الكنز في المغارة فيجب أن تبحثوا عنه فيها حتى تجدوه ومتى ظفرتم به يكون النصف لكم .

فاتقدت عيونهم ببارق من السرور ، ومشى ساندريجو أمامهم وهو يقول : إذن هلمّوا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كلّ منهم في جهة حسب الأوامر التي تلقاها . وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء حتى إذا وصل إلى مسافة ألف خطوة منها اختبأ وراء الأدغال وأقام ينتظر .

وبعد ساعة سمع صفيراً فقال : لقد قضي الأمر . وأسرع إلى المغارة فدخل إليها فوجد أربعة رجال مقيدين فقال له نائبه : لقد كانوا ستة فاضطررنا إلى قتل اثنين . فأشار ساندريجو إشارة تدلّ على عدم الإكتراث ثم نظر إلى الأسرى وقال : فكوا قيودهم . ففكوا قيودهم ، وعند ذلك دنا ساندريجو منهم فقال لهم : لقد كنتم من رجال عصابتي فثرتم عليّ وخضعتم لرجل لم يكن في شيء منا بل لا يمكن أن يكون .

وأنا الآن قادم من فينيسيا حيث لقيت كبار أهل المناصب وعرفت منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جاء إلينا ليلقي بذور الشقاق بين عصابتنا . أتعلمون من هو هذا الرجل الغريب

الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟ إنه أحد عملاء مجلس العشرة . وخطته بسيطة واضحة وهي أنه يحاول أن يحمل عصابات الجبل على الثقة به ثم يأتي بهم إلى فينيسيا وهناك يقبض عليهم جميعهم مرة واحدة .

فصاح به أحد الأسرى قائلاً : لقد كذبت ! فأخذ ساندريجو غدّارته فوضعها على صدغ الأسير وقال له : أأنت واثق من أني كذبت ؟ قال : نعم ، إنك من الكاذبين . فأطلق ساندريجو الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات شهيد وفائه لرولاند .

أما ساندريجو فلم يكترث لما فعل وعاد إلى مخاطبة الأسرى فقال : أتريدون أن تكونوا معنا ؟ أتريدون أن تذهبوا إلى رفاقكم المتشردين في الجبال فتخبروهم بما قلته لكم وتُظهروا لهم ذلك الخطر العظيم الذي يتهددهم ؟ وإذا كنتم حقيقة من اللصوص فلا بدّ لكم أن تقتلوا وأن تنقذوا إخوانكم . أما أنا فإني أنسى الماضي وأجعل لكم حظاً من هذا الكنز الموجود هنا . فقال أحدهم : إني أقبل . وقال الثاني : إني رضيت .

وسكت الثالث فقال له ساندريجو : ما بالك لا تجيب ؟ ألعلك تريد أن تقفو أثر هذا القتيل ؟ قال : نعم ، فإني أؤثر كلّ موت على الخيانة ، فما أنت إلا من الكاذبين ، فاضرب يا ساذ . . .

وقبل أن يتمّ لفظ اسم ساندريجو سقط قتيلاً ، فأدار رفيقاه رأسيهما كي لا يريا هذا المنظر ، فقال لهما : لقد أصبحتما الآن منّا

ونسيت كل ما مضى منكما . ثم ذهب إلى نائبه وهمس في أذنه قائـلاً : يجب أن تبالغ في مراقبتها وإذا خفت منها الخيانة فاحذر أن تكون رحيماً . وبعد ذلك نظر إلى الجميع وقال : إبـدأوا الآن التفتيش عن الكنز . فصاح الجميع صياح الفرح وتواروا عن الأنظار في تلك المغارة الكثيرة الشعاب .

أمـا ساندريجو فإنه ذهب إلى قلب المغارة وبيده مشعل فوصل إلى باب مُحكم الاقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً فقال في نفسه : أيكون قد مات ؟ ثم فتح الباب بالمفاتيح التي أخذها من الأسرى ودخل إلى ذلك السجن فرأى في أحد زواياه رجلاً متربعاً وقد تمزقت ملابسه ورقّ ونحل حتى ذهب لحمه ولم يبقَ فيه من دلائل الحياة غير بريق عينيه !

وكان هذا الرجل الكردينال بمبو .

فلما رأى الكردينال ذلك الرجل داخلاً عليه يحمل مشعلاً بيده وفي منطقته ذلك الخنجر المصبوغ بالدماء تراجع زاحفاً مذعراً حتى التصق بالجدار وهو يقول :

— إنك قادم لقتلي كما أرى، فإن رولاند كانديانو الذي انتزع الرفق من قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد أن يتمّه بقتلي ! فقال له ساندريجو : إطمئنّ . ولكن بمبو لم يسمع هذه الكلمة وقال بلهجة المذعر :

— ألم أكفّر بعد عن ذنبي ؟ نعم إن ذنبي كان عظيماً والآن وازنت بين شقائي وبين مـا حملت رولاند من الشقاء فعلمت مقدار إساءتي إليه . ولكن لكل شيء حدّ حتى العقاب، فقل

لرولاند الذي هو رجل مثلي إن العقاب الأكبر بيد الله لا بيده، فإن الله المنتقم الجبار يغفر أيضاً لمن يتوب ويندم ندامة صادقة. وأنا تائب نادم، فإني أقضي جميع أوقاتي بالصلاة والاستغفار ولكن لا يسمعني أحد .

وجعل الكردينال عند ذلك يقرع جبهته بالأرض ويلتمس ويستغفر . فنظر إليه ساندريجو نظرة ازدراء وقال في نفسه : ويحٌ للرجال كم يغيّرهم الشقاء ! فقد كان هذا الرجل يخافه الناس وكان لا ضمير له ولا ذمة ولا رحمة ولا قلب فأصبح عند الشقاء جازعاً ضعيفاً يشبه الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث بأمه . ووالله إني لو لم أتعهد لفوسكاري بإحضاره إليه لتركته يموت في هذا السجن فإنه لا يستحق الحياة .

ثم قال له : إنهض يا حضرة الكردينال فإنك من أمراء الكنيسة ويجب أن نركع أمامك لا أن تركع أمامنا فأنت الآن حرٌ طليق . فلبث بمبو جاثياً وقال :

— أنا ... حرٌ ... طليق ؟!

قال : ألم أقل لك ذلك ؟ فانهض فأنت حرٌ أن تخرج من هنا وأن تعود إلى فينيسيا وإلى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر الدوج الذي ينتظرك .

— أنا حرٌ ؟! إذن لقد عفا عني رولاند ! إذن لم يخطىء ظني فيه، فهو الرجل الطيب الكريم الأخلاق الذي أسأل الله أن يباركه عني !

وقد سالت الدموع الغزيرة من عينيه وحاول أن يقف ولكنه

سقط فقال : ربّاه ، ألا يكون مراده تعذيبي بالرجاء الكاذب بعد اليأس كما عذّبته أنا حين زرته في السجن ؟

فأنهضه ساندريجو وهزّه هزاً عنيفاً وقال : لا شك أنك قد فقدت صوابك وإلا فما معنى هذا الهلع بعد أن قلت لك إنك حرّ ، وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعو له هذا بل أنا الذي أنقذتك ، فتعال معي .

وعند ذلك حدّق إلى خارج المغارة بينما كان اللصوص يشتغلون بنقب جدرانها باحثين عن الكنز . فلما تنشّق الكردينال هواء الجبال النقيّ ورأى النجوم تتّقد في السماء وقف هنيهة وهو مندهش مأخوذ. فأجلسه ساندريجو على حجر وسقاه كأساً من الخمر فشربها جرعة واحدة .

وهدأت أفكاره بعد أن كان مصاباً بما يشبه الذهول، فنظر إلى ما حواليه وبدأ يعلم ما مضى فقال لساندريجو :

– من أنت ؟ أذكر لي اسمك يا منقذي كي أردّده في صلواتي ما حييت !

فأجابه ساندريجو قائلاً : إني أدعى ساندريجو !

– ساندريجو ؟

– نعم ، من قوّاد الجندرمة في فينيسيا !

– ألعلّهم أرسلوك لإنقاذي ؟

– كلا ، بل أرسلت نفسي، وإذا كنت أنقذتك فلأنّ إنقاذك يروق لي .

– إني أباركك مهما كان قصدك !

وأخذ عند ذلك يد ساندريجو بين يديه فضغط عليها إشارة إلى امتنانه ، ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير واثق من أنه بات حرّاً طليقاً. وطال طوافه بضع ساعات بحيث أنه لم يعد إلى المغارة إلا حين طلوع الشمس . وقد فكر ملياً أثناء طوافه واطمأنّ باله حتى عادت إليه سكينته ودهاؤه .

فلما رآه ساندريجو قال له : إني أوثر أن أراك كما أنت الآن على ما كنت عليه !

فقال الكردينال : هل تتبعني ؟

– وأية فائدة لي من أن أتبعك فقد كنت واثقاً أنك ستعود.

– إذن أنا حقيقة حرّ ؟

– أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

– هو ذاك ، فإلى أين تريد الذهاب بي ؟

– إلى فينيسيا حيث ينتظرونك .

– من الذي ينتظرني ؟

– الدوج فوسكاري ، كما قلت لك .

– حسناً ، فلنذهب في الحال .

– بل يجب أن تأكل كي تتقوّى ثم تغيّر ملابسك ، ألا ترى أنها باتت رقعاً بالية ؟

وقد دلّه ساندريجو عند ذلك على قاعة في المغارة كان فيها مائدة عليها طعام وشراب وهناك ثوب تامّ من ملابس الفرسان . فبدأ الكردينال يلبس الثوب ، ثم أكل وشرب ، وخرج الإثنان من المغارة فركبا جوادين وهمّا بالرحيل . وقبل أن يرحلا نادى

ساندريجو أحد اللصوص فقال له : ألم تعثروا على شيء ؟ قال : كلا . قال : عودوا إلى البحث عن الكنز فإني واثق من وجوده في هذه المغارة . فهز اللص رأسه إشارةً إلى يأسه من لقائه . فقال ساندريجو : لا بدّ أن تجدوه لو نسفتم الجبال .

ثم أطلق لجواده العنان واقتدى به الكردينال فاجتازا قرية ترفيزا وسارا في طريق تريفيزا كي يذهبا منها إلى ميستر ومن هناك إلى بحيرات فينيسيا . وبدأ الكردينال الحديث فقال : إني أعيد عليك ما قلته وهو أني ممتنّ لك إلى الأبد ! فقال ساندريجو: إني أقبل امتنانك الأبدي بالرغم من اعتقادي بأنه لا يوجد شيء أبدي في هذا الوجود ، حتى ولا امتنان كردينال !

فلم يجبه الكردينال على تهكمه وقال : لقد قلت لي حين أنقذتني في الليل أقوالاً لا أذكرها لاضطرابي في ذلك الحين ، ولكني لا أزال أذكر أني سمعت منك اسم رولاند .

— نعم ، فقد سألتني إذا كان هو الذي سفح عنك .

فاتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال : ألعلّ هذا الرجل من أصحابك؟ قال : إن صداقته لي تشبه صداقة العاصفة للنوتي، وصداقة النمر للوعل . نعم ، إني أكره هذا الرجل بملء جوارحي. ولولا يقيني أنك تكرهه أشدّ مما أكرهه لمَا أنقذتك ولتركتك تموت في سجنك . أقول هذا وأنا أرجو أن تعذرني لحرّيتي .

— قل ما تشاء فإني ما سررت بحياتي بمثل ما أسمعه الآن منك .

— إذا كان ذلك فلنتكلم بجلاء ، فاعلم إذن أنك غير مدين لي بشيء وذلك أني لم أنقذك لفائدتك بل لفائدتي إذ أرجو أن تكون لي أشدّ سلاح على مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال : إني ضربته ضربات شديدة ولكني أرجو باعتمادي عليك أن أضربه الضربة القاضية .

— إعتمد عليّ ولكن يجب أن أعرف هذا الحليف الذي تعاهدت وإياه على الهجوم وقد عرفت مَن أنا في حين أني لم أعرف من أنت .

— لقد قلت لك إني قائد في الجندرمة تحت إمرة التياري القائد العام . ولكني لم أنل هذا المنصب إلا من عهد قريب فقد كنت قبله من اللصوص .

فنظر إليه الكردينال نظرة إنكار ، فأجابه ساندريجو على نظرته قائلاً : إن ذلك يدهشك دون شك . ولكنك حين تصل إلى فينيسيا تعلم عني أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة .

— من هو ؟

— هو الدوج فوسكاري .

— حسناً ، فسأصبر إلى أن أراه فأقول لك ما أريده منك. والآن قل لي ما تريده مني .

فأطرق ساندريجو هنيهة مفكراً وقال : إني أطلب إليك قضاء أمرين : أحدهما أن تعينني بكلّ قوتك على رولاند كانديانو .

— لقد اتفقنا على هذا الطلب . فما هو الثاني ؟

– إن طلبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكردينال . فقد كنت لصاً قبل أن أكون قائداً . ولكن اللصوص يحبون ، كما يظهر ، كسائر الناس . وقد أحببت فتاة ...

– أتريد أن أساعدك على رضى أهلها بزواجك ؟

– كلا ، فإني لا أعتمد على أحد في مثل هذا الشأن .

– إذن ماذا تريد ؟

– لقد كنت بالأمس لصاً وأصبحت اليوم قائداً فأريد أن يكون لي مقام بين العائلات الإيطالية ولا سيما لامرأتي .

– لماذا يكون لامرأتك مقام ؟

– الأمر سوف تعلمه ، فإن الأسرات النبيلة ستستقبلها ببرود وأنا أريد أن يدخل القائد ساندريجو وامرأته إلى أرفع بيت وهما شامخا الرأس .

– ماذا يجب أن أعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟

– يجب أن تحضر حفلة زواجي أشرف العائلات ، وأن تكون الحفلة باهرة ، وأن يعقد قراننا أعظم رجال الكنيسة في فينيسيا ، أي الكردينال بمبو بنفسه .

– إذن أنت أنقذتني لهذه الغاية ؟

– كلا ، بل إني أنقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي أنك تحمل من الحقد على رولاند فوق ما أحمل . ولا أنكر عليك أني حين سمعتك تتوسل وتثني على كرم رولاند ندمت وعزمت على التخلّي عنك . غير أني رأيت ولا سيما بعد هذا الابتسام الذي تبتسمه الآن أن حقدك عظيم عليه ، وهو رجل شديد يستحقّ

عناء المؤامرات عليه .

– وأنا أرى رأيك ، فلنسرع إذن فإني مـــا زلت في هذه الجهات لا آمن على نفسي .

وقـــد جدّ الإثنان عند ذلك السير . وبعد ساعة دخلا إلى سراي الدوج فقـــال ساندريجو لفوسكاري : أرأيت يا مولاي كيف وفيت بوعدي ؟

فشكره الدوج بإشارة وجعـل ينظر إلى بمبو وهو معجب بتغيّره ، فإن سجن بضعة أيام فعل به ما لم يفعله برولاند سجن ستة أعوام . فأدرك بمبو سرّ نظراته وقال له : نعم، لقد تغيّرت كثيراً ، فإن كل دقيقة مرّت بي في ذلـك السجن الهائل كانت بمثابة عام . ثم قـــال له بصوت منخفض : يجب أن نتحادث . قال : في هذا المساء .

– أين نجتمع ؟

– حسب العادة ، في جسر التنهدات .

– حسناً ، فسأوافيك . ولكن أعلمت أن رولاند في قيـد الحياة ؟

– نعم لقد علمت !

– إنه حاقد علينا حقداً شديداً . وانتقام هذا الرجل هائل كما علمت بالبرهان .

وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بمبو جباناً ، ومع ذلك فإنه ارتعد فقال له بمبو : يجب أن نحذر لأنفسنا كلّ الحذر وأن نتّخذ الوسائـل السريعة فننقضّ انقضاض الصاعقة أو يقبض

عليها رولاند الواحد تلو الآخر ، فإن هذا الرجل أشدّ وأقوى مما كنا نتوقّع .

– سنجتمع في هذا المساء .

ثم التفت إلى ساندريجو وقال له : أشكرك يا حضرة القائد لإنقاذك الكردينال فأنت من أشدّ أعواننا . ورجائي أن تستمر على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وأن أستمرّ على ترقيتك بما ينطبق على كفاءتك !

فانحنى ساندريجو شاكراً وهو يكاد يطير سروراً ثم استأذن من الدوج وخرج مع الكردينال إلى قصره . وهناك قال له الكردينال : لقد مشيت الآن أيها الصديق في طريق الثروة والسعادة ، فإن فوسكاري لا يرجع عما يعد به . وأما أنا فإنني سأساعدك بملء قوتي .

– وأنا معتمد عليك دون شك .

– إذن عد إليّ غداً فإنني مضطرّ هذه الليلة إلى مشاورة رجل لا بدّ لي من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

– وأنا سأبدأ عملي منذ اليوم! ولكن ألا تستطيع أن تجيبني الآن عما سألتك إياه ونحن في طريق البحيرات ؟

– ماذا سألتني ؟

– أن يحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ، ويعقد لي في الكنيسة الكاتدرائية ، ويتولّى عقد القران الكردينال بمبو أسقف فينيسيا .

– إنه شرف عظيم لا يُمنح عادة إلا لأكابر الناس . ولكنني

لا أستطيع أن أرفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد ، فقل لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

– إنها تدعى بيانكا ، وهي ابنة المحظية أمباريا .

وعند ذلك انحنى وانصرف ، فبقي بمبو وحده دون حراك كأنما الصاعقة قد انقضّت عليه . ولم يثب إلى رشده إلا بعد حين فجعل يقول: بيانكا ؟ إنه يريد أن يتزوّج بيانكا ، وأن أتولى أنا عقد القران ؟ فيا له من أبله !

ثم ضحك ضحكاً هائلاً وقام وغيّر ملابسه وخرج من منزله فركب قارباً وسار به إلى قصر أمباريا فصعد السلم وهو يضمّ قبضتيه منذراً متوعداً يقول في نفسه : إني أقتل الإثنين ولا أسمح بمثل هذا الزواج .

وفي ذلك الحين رسا قاربٌ عند باب قصر أمباريا وخرج منه رجل .

أمّا هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

تم الجزء الأول من هذه الرواية الشيّقة
ويليه الجزء الثاني والأخير
وهو بعنوان : « عشاق فينيسيا »